رابعة العدوية

إمامة العاشقين والمحزونين

العابدة
الخاشعة

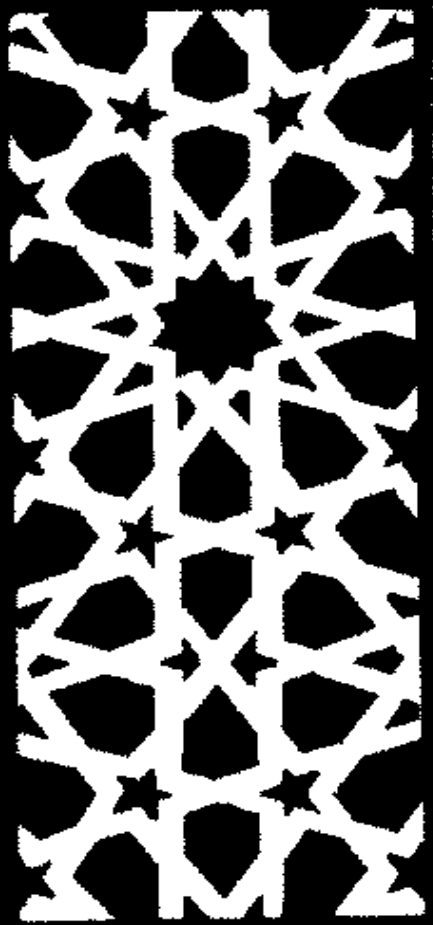

دكتور عبد المنعم الحفني

العابدة الخاشعة

رابعة العدوية

إمامة العَاشِقين والمَحزُونين

الناشر : **دار الرشاد**
١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥ - ٢٩٩٢٦١٥
رقم الإيداع : ٩٥/٩٦٣٤
الترقيم الدولى : 977-5324-19-X
طبع : **آسون**
العنوان ٤ عطفة فيروز - متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ - ٣٥٤٤٥١٧
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٤١١هـ - ١٩٩١م
الطبعة الثانية : ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م
تصميم الغلاف : **محمد فايد**

العابدة الخاشعة

رابعة العدوية

إمامة العاشقين والمحبين

دكتور عبد المنعم الحفني

دار الرشاد

إلى أخي وصديقي وأستاذي المفكر الكبير أنيس منصور

بعضَ هَذْيِك وغَرْسِ تعليمك

عبد المنعم الحفني

★★★

قلـــــوب العـــــارفين لها عيـــونٌ تـــرى مـــا لا يـــراه النـــاظـــرونـــا

والسنـــــــةٌ بِسِرٍ قـــــد تَنَـــــاجَى تَغيبُ عـن الِكـــرام الكـــاتبينـــا

وأجنحـــــــــــــةٌ تطيرُ بغير ريـش إلى ملكـــــوت رب العـــــالمينـــــا

فتسقيهـــــا شراب الصـــــدق صرفـــاً وتشرب من كـــؤوس العـــارفينـــا

★★★

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

★★★

مازال نجم إمـامة العاشقين والمحزونين ، العابدة الخاشعـة رابعة العـدوية ـــ مازال بازغًا ، ومـا زالت المؤلفات تتابع عنها ، والمساجد تقام باسمها ، تبركًا وتيمنًـا ، ولقد نفذت الطبعة الأولى مـن هذا الكتاب وبسرعـة عجيبة ، واقتضى الأمـر طبعة ثـانية ، وتأتـى هذه الطبعة منقّحةً وعلى خير وجه إن شاء الله .

فالحمد لله على ما أعطانـا من نعمة العقل والتمييز ، وفضّلنا على كثير من عباده بنعمة الشكر واليقين ، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ، والله أدعو أن يتم علينا تقواه ، وأن نقول القول السديـد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، يُصلِح أعمالنـا ويغفر لنا ذنوبنـا ، ويُنلنا الفوز العظيم بطاعته ورسوله ، ويُعنّا على حمل الأمانة ، ويتوب علينا ، إنه بنا غفور رحيم .

عبد المنعم الحفنى

To: www.al-mostafa.com

مقدمة الطبعة الأولى

ربِّ يَسِّـــر

★★★★

. من الشخصيات المحورية فى التصوف الإسلامى **رابعة العدوية** ، وهى صاحبة فضل وفكر ومدرسة ، والقراءة فى الشخصيات النبيلة والعظيمة تُعدى بالنبل والعظمة . والتصوف غذاء روحى ، **ورابعة العدوية** روحانية وراهبة من راهبات الفكر الصوفى الأصيل ، وهذا الزمن الذى نعيشه ما أحوجنا فيه إلى جرعات روحية تحيي فينا موات الآمال ، وتتنزل بها علينا السكينة والطمأنينة ، وهذا زمان القلاقل والصراعات وقيل فيه إنه **عصر القلق** ، ويبدو أن طابع الشخصية العصرية صار هو الطابع **العُصابى** ، وما أكثر ما يحتاج شبابنا وشيوخنا ونساؤنا ورجالنا إلى منْ يذكّرنا باستمرار بالقيم الروحية ، ويوَعّينا بماضينا ، ويؤمّلنا فى غدٍ أكثر إشراقًا ، ونحن لايمكن أن نكون خُلقنا عبثًا أو طُرِحْنا فى الوجود اطّراحاً من غير غاية يترسمها الخالق ولا هدف ولا علّه.

والإنسان مقدور عليه أن يعيش ، ويستشعر المسئولية ، ويقبل بالواجبات . وهو يحتاج للآخرين ، ولكنه معهم فى شِقاق وعداء ، والآخرون بالنسبة له هم **الجحيم** ، وإن كان يحاول باستمرار أن يجعل وجوده معهم فى وئام ، ويجاهد مع ذلك أن لا يفقد نفسه وتتميع ذاته ، ويعمل على أن تكون له استقلاليته . والآخرون يريدونه تابعًا وأن يزيّفوا وجوده . **ورابعة العدوية** وجودها أصيل لم يتزيف ، وفكرها استقلالى ، وذاتها متوحدة ، وما أحرانا أن نضع أعيننا على أمثالها ، وأن تصافح آذاننا كلماتها ، ونتمثلها ونحن نصنع حياتنا . والقراءة فى **رابعة** وعنها نَسمْة نَسْتَروْحها ونحن نعانى من هذا اللهيب المتّقد الذى تلفحنا به صُحُفنا اليومية والإذاعات من حولنا ، والذى تحترق به أفئدتنا ويوغِر منا القلوب بالحقد والضغينة ، والحديث عن **رابعة** وفلسفتها وشعرها يلذ للمتعبين والحيارى .

ومـا أجدرنـا أن نلتمس كتـابًا مـن الكـتب الحافـزة بين الحين والحين ، كلما ادلهمت أمورنـا ، واغتمّت لها نفوسنا واضطربت منـا الأفكار ، وقد اخترت أن اقـرأ كتـابًا **للدكتور عبد الرحمن بدوى** ـ وهو من أساطين مفكـرينا ـ عن **رابعة العدوية** ، باسم « **شهيدة العشق الإلهى** » ، فكأنى لم اقرأ هذا الكتاب من قبل ، وكأنى لم أعـرف هذا المفكر العملاق معرفتـى لأبى أو أكثر ، ولقـد تتلمذت عليـه وأخذت عنـه ، وأسلوب **الدكتور بدوى** جزل ومُشَوّق ، وانتقاؤه للألفاظ انتقاء العالِم باللغة وأسرارها ، فللمعانى ما يناسبها ويَقْوَى على حملها من الألفاظ التى تزيد من وضوحها ولألائها ، وهو يسوق الأمثال ويحلّق بالقارىء فى آفاق المعرفة ، ويختار الحكايات من مختلف الثقافات ، ولاتملك نفسك كقارىء إلا أنْ تعجب من مهارته وعلمه وأستاذيته.

وأنت إذ تجرى بعقلك على السطور ، تتابع أفكاره وتلاحق صوره ، تحب منه تشبيهه **للبصرة** حيث ولدت وعاشت وماتت **رابعة العدوية** ، بأنها **فينسيا العربية** ، ترفّ كالآل الذاخـر بالتهـاويل ، فى رؤى الساغبين الـلاغبين الضـاربين إليها مـن أعماق الفيافى فى قلب الجزيرة العربية ، حتى إذا بلغوها وأناخوا الإبل عند **المربد** ،دخلوا المسجد الجامع من باب البادية ، فبهرتهم دقة الأساطين وبراعة الفن ، وجلّوا بأبصارهم المغبرة بالرمال إلى النقوش المترفة ، فاستشعروا مسًا ممـا ينتظرهم على الجانب الشرقى ، حيث السفن الزاهية تنحدر من الشمال قادمة من بغداد فى نهر معقـل ، والجوارى المنشئات فى الخليج تمخر عباب نهر الأبُلّة متصاعدة فى وقار وقد وقُرت بأثمن السلع المحّملة إليها من الهند والصين . وتلك هى **البصرة** فى العهد الـذى عاشـت فيه رابعة . كانـت نقلة بين البـادية والحضر ، والخشـونة الزاهدة الصلبة القاسية الإيمان ، والترف الناعم الهائم فى أوداء القداسة الشهوانية ، ومن ثم جاءت مزيجًا من هذين الطرفين المتباعدين فى تخطيطها ومساق الحياة فيها ، فكانت روحها مسرحاً لمأسـاة هذا الازدواج المتوتـر العنيف فى طبيعتها ، وبهذا الاستقطـاب طبعت نفوس ساكنيها ، ففى روح كلٍ تسكن طبيعتـان متعارضتان ، إحداهما تتلمس غـذاءها من قوت الحواس ، والأخرى تستشرف إلى قوت القلوب .

ولن تستطيع إحداهما القضاء على الأخرى بل سيظل التعـارض قويًا عنيفًا ، وفى عنفه

يقـوم ذلك التوتـر الحى الـذى يجعل من حيـواتهم مصدراً للتشـويق لايقل فى قيمتـه عن مذاهبهم ، فإلى جـانب الحياة اللاهية التى عمـرت بها القنوات والمتاجر ممـا كان خير إطار لقصص ألف ليلة وليلة ، كانت هناك الربُط التى تشيع فيهـا الزهادة والقداسة ، وإلى جانب الأسواق الصـاخبة بمشاغل المادة وشئون الـدنيا كانت المساجـد والمكتبات العامة بمثابة معابـد الفكر الرفيع ، ففى سـاحـة السوق حيث ضجيج الاعمال وعقد الصفقـات واختلاط الأجناس وأسبـاب الترف ، كان يقـوم المسجد الجامع الثـانى ، فإذا تزود منْ بـالسوق من أفخم السلع أوى إلى المسجد فطاف على حلقاته ، فهنا حلقة النحويين واللغويين يحتدم فيها الجدل الصـارخ حول شـاردة من شـوارد اللغة ، قـذف بها فى جمعهم كـوفىّ جاء محَمـلاً بأسلحة أهل بلده ، وهناك مجلس **الحسن البصرى** تسوده رهبة ذلك الـزاهد الجليل وهو يلقى مواعظه الضاربة فى أعماق الزهد ، فيستدْر الدمع من مآقى الحاضرين ، أو يستحيل إلى مجلس ذكر تتردد فيه الأذكار الصافية والأدعية النـاضرة ، أو تثار فيه مسائل من التوحيد سرعان مـاتشيع الحرارة فى هذا الجو الـرقيق . فإذا ماجَنّ الليل وسكـن الأحياء وجُسْتَ فى المدينـة ، ترامـت إلى مسامعك انغـام اللهـو العنيف فى نفس الـوقت الذى يقـرع أذنك فيـه تضرعات المتهجدين القانتين ، وهنا اللاهون يمخرون بزوارقهم الزاهية فى مياه تلك القنوات المتشابكة يعزفـون ويعربدون ، وهناك فى زاوية أخرى ترى العابـدين سادرين بين المقابر يستهلمون الموت والقبر افكاراً وموضوعـات للتأمل الحزين والعظمة البالغة والعزوف عن الدنيا . وهنا أمثال **إبن ابى عيينة** يقضـون الليالى البيض فى أحضـان الشهوة الآثمة ، وهناك أمثال **رياح بن عمرو القيسى** ممن لم يكن يعرف غير البكـاء والتهجّد والتضرّع والصراخ من أعماق الهاوية إلى الله !

وبمثل هذه المقـدمة الشعـرية يستهل **الدكتور بدوى** بحثه ، ولـه دائماً مصطلحاتـه وألفاظه من مثل **التوتر الحى ، والذات الوجوديـة الزاخر باطنها بممكنات التفتح على المجهول**. وهو دائمًا فى كل كتاباته المبـدع ، وكان كتابه عن **رابعة** إبداعًا أيما إبداع ، ورسم صورة للبصرة لانملك ونحن نراه فيها يؤكد على جانبى الصراع ، وعلى التناقض فى البصرة البلـد والنـاس ، إلا أن نخمن أن ذلك نفسـه هـو رأيـه أيضًـا فى **رابعة العدوية** وحياتها وجهادهـا النفسى والفكرى ، فهى عنـده الصوفيـة التى بدأت حياتها وقـد أوغلت فى الإثم

والحياة الحسية حتى التهب منها الجسد فتطهرت روحها فى عذاباته ، **فهل كانت رابعة كذلك ؟ وهل كانت فى مبتداها بائعة هوى تهفو لأن تتوب ، فلما كان أوان التوبة أنابت وأصلحت وعاشت متبتلة ، وصارت من أعلام التصوف ، وصاحبة مدرسة فيه ، ورائدة فى مجال كانت فيه المعلمة لأفذاذ الرجال ؟ هل رابعة كذلك ؟ .**

أسئلة لابد أن تُحسَم ،لأنه لم يعرف عن بائعات الهوى أن من الممكن أن يتبن ويبلغن فى توبتهن حد التصوف وهذه الدرجة الرفيعة فيه ، حتى لتكون الواحدة صاحبة مدرسة فكرية ! **وهل منهج الاحتمال والترجيح والتاويل المسرف الذى اتبعه الدكتور بدوى هو المنهج السليم الذى يمكن الركون إليه ونحن نؤرخ لأمثال رابعة ؟** ولربما ما ألجأ **الدكتور بدوى** إلى هذا المنهج قلة المادة التاريخية عن حياتها ، وتضارب الأراء بشأنها ، ولربما أيضًا أن هذا المنهج نفسه هو ما يناسب **الدكتور بدوى** ليطرح نظريته فى **رابعة** ، مدعمًا بها مذهبه هو نفسه فى الفلسفة ، والملاحظ أن اختياره للشخصيات التى يؤرخ لها فلسفيًا هو اختيار ليس من فراغ ولكنه مقصود ، وذلك أنه من خلال هذه الشخصيات فإنه كان دائمًا يشرح فلسفته ويزيدها وضوحًا . ويبدو أنه من اللازم قبل كل شىء أن نزيد القارىء معرفة **برابعة** ، بأن نورد أقوال المؤرخين فيها وفيما استحدثته فى الفكر الإسلامى ، مما يروى عنها من حكايات وأقوال ومأثورات ومحادثات مع كبار الصوفية من المشايخ المشهود لهم بالصلاح ، ومناقشات مع أعيان البصرة ومفكريها ، مما يجعلها شخصية أسطورية يختلط فيها الخيال بالواقع ، فهل يكون هذا الكتاب الرائع **للدكتور بدوى** أيضًا كتابًا قد اختلط فيه الخيال بالواقع ؟ سنرى ..

عبد المنعم الحفنى

★★★

الفصل الأول

رابعة فى كتابات الشرق والغرب

- ١ -

فى الشرق

★★★

كان الجاحظ أول من كتب مؤرخًا لرابعة . والجاحظ (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ) عاش فى البصرة فى زمن قريب من زمنها ، وله التصانيف الكثيرة ومنها الحيوان والبيان ، والتبيين ، وكان من أئمة الأدب ومن شيوخ المعتزلة ، وأطلق عليه بعضهم اسم معلم العقل والأدب ، ولربما سمع الجاحظ برابعة فى صغره ، ولربما رآها رأى العين ، ولاشك أنه سمع عنها ممن رأوها وعاينوها من المفكرين والأدباء ، وهو يذكرها فيقول : ومن النساء (يقصد من أهل البيان) رابعة القيسية ، ويقول فى موضع آخر : قيل لرابعة القيسية لو كلمنا رجال عشيرتك فاشتروا لك خادمًا يكفيك مؤونة بيتك ؟ فقالت : والله إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسألها من لا يملكها ! ويقول الجاحظ على لسان سفيان الثورى . وقلت لرابعة القيسية هل عملت عملاً قط ترين أنه يُقبَل منك ؟ فقالت : إن كان كل شىء فخوف أن يُرَد علىّ . ويقول أيضًا عن نسبها وزهدها : ومن آل عتيك بنو عدوة ، ولهذا تسمى العدوية ، وأما كنيتها فأم الخير بنت اسماعيل وبذلك يحدد الجاحظ نسبها ، ويذكر سبب تسميتها بالقيسية مرة وبالعدوية أخرى ، ويؤكد اسم أبيها وهو إسماعيل .

★★★

وفى طبقات ابن الملقن يذكر أن هناك سَميّة لرابعة ، وربما يكون اسمها رابعة ، وهى زوجة لأحمد بن أبى الحوارى (١٤٨ ـ ٢٣٠ هـ) الصوفى الشامى ، واسم أبيها

إسماعيل أيضًا ، وكانت عابدة كرابعة العدوية أم الخير بنت اسماعيل البصرية ، مولاة آل عتيك ، وهي الصالحة المستورة من أعيان عصرها ، وفضلها مشهور ، وكانت وفاتها سنة (١٣٥ هـ) ، ودفنت بظاهر القدس من شرقيّه ، على رأس جبل يسمى جبل الطور .

★★★

ويذكرها الزركلي في اعلامه فيقول : إنها رابعة بنت اسماعيل العدوية ، توفيت سنة (١٣٥ هـ) ، وهي أم الخير مولاة آل عتيك ، البصرية ، صالحة مشهورة من أهل البصرة ، ومولدها بها ، ولها أخبار في العبادة والنُسك ، ولها شعر ،ومن كلامها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم . وتوفيت بالقدس .

★★★

وقال بن خلكان : وقبرها يزار ، وهي بظاهر القدس من شرقيه ، على رأس جبل يسمى الطور . ووفاتها سنة (١٣٥ هـ) كما في شذور العقود لابن الجوزي . وقال غيره سنة ١٨٥ هـ كما في وفيات الأعيان ـ الجزء الأول ص ١٨٢ ، وعند الشريشي الجزء الثاني ص ٢٣١ ، وفي الدر المنثور ص ٢٠٢ ، وفي مجلة لغة العرب أن للسيدة مرجريت سميث الإنجليزية كتابًا عن رابعة العدوية رجّحت فيه وفاتها سنة ١٨٥ هـ ، وقالت : إنها عاشت وتوفيت ودفنت بالبصرة .

★★★

وفي كتاب الروض الفائق في المواعظ والرقائق للشيخ الحريفيش المتوفى سنة ٨٠١ هـ يقول في المجلس السابع والعشرين . فيما يجلو القلوب من القسوة بذكر أخبار القسوة أن الله تعالى قال وهو أصدق القائلين ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ ، وقال تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم

والحافظات ، والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ ، فقَرَن الله سبحانه وتعالى ذكر النساء الصالحات بالرجال الصالحين . وللنساء أحوال وزهد وخير وصلاح كما فى الرجال ، وفى النساء من لهن الأوراد والسياحات والكشف وغير ذلك من الخصوصيات التى خصهّن الله تعالى بها ، كمن مضين منهن فى الصدر الأول ، **كرابعة العدوية ، وشعوانة ، وريحانة ، وأم الخير** ، وغيرهن من النساء المشهورات وغير المشهورات . كما حُكِىَ عن رابعة العدوية ـ رحمها الله تعالى ـ أنها كانت إذا صلّت العشاء ، قامت على سطح لها وشدّت عليها درعها وخمارها ثم قالت إلهى أنارت النجوم ، ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! ثم تقبل على صلاتها فإذا كان وقت السحر وطلع الفجر قالت . إلهى هذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعرى أقَبِلْتَ منى ليلتى فأهنأ ، أم رددتها علىّ فأعْزى ؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ! وعزتك لو طردتنى عن بابك مابرحتُ عنه لِما وقع فى قلبى من محبتك . ثم أنشدت

يا سرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى وعُدّتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى	أنت لى مؤنسٌ وشوقٌ كزادى
أنت لسولاك ياحياتى وأنسى	ماتشتتُ فى فسيح البلاد
كم بدت مِنّة وكم لك عندى	من عطاءٍ ونعمةٍ وأيادى
حُبك الآن بُغيتى ونعيمى	وجلاءٌ لعينِ قلبى الصادى
ليس لى عندك ما حييت براحٍ	أنت منى مُمَكّنٌ فى السواد
إنْ تكنْ راضيًا علىّ فإنى	يامُنى القلب قد بدا إسعادى

ثم يحكى الحريفيش عن قصة لها مع ذى النون المصرى على لسان صوفى يدعى سعد بن عثمان فيقول . إنه كان فى تيه بنى إسرائيل (أى سيناء) ، وإذا بشخص قد أقبل ، فقلت يا أستاذ ! شخص قد أتى . فقال لى انظر من هو ، فإنه لايضع أحد قَدَمَه فى هذا المكان إلا صدّيق . فنظرتُ فإذا هى امرأة ،فقلت إنها امرأة : فقال صِدّيقة وربِّ الكعبة !

فابتدر إليها وسلّم عليها ، فقالت ما للرجال ومخاطبة النساء ؟ فقال أنا أخوك ذو النون ولست من أهل التُّهَم ، فقالت : آية من كتاب الله عز وجل قوله تعالى ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ . فقال لها صفي لي المحبة ، فقالت : سبحان الله ! أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة وتسألني عنها ؟ فقال لها : للسائل حق الجواب . فأنشدت تقول :

أحبك حبين : حبُّ الهوى ... وحبّاً لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حبّ الهوى ... فذِكرٌ شُغِلت به عن سواكا

وأما الذي أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا

فما الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وتقول :

يا حبيب القلب مالي سواك ... فارحم اليوم مذنبًا قد أتاك

يا رجائي وراحتي وسروري ... قد أبَى القلبُ أن يجيبَ سواكا

ويروى الشيخ الحريفيش ما قيل من أنه لما مات زوج رابعة العدوية (كذا !) استأذن الحسن البصري في الدخول عليها هو وأصحابه ، فأذنت لهم وأرخت سترًا وجلست وراءه ، فقال لها أصحابه . إنه قد مات بعلك ولابد لك من زوج ، وقد انقضت مُدَّتك ، فاختاري مِن هؤلاء الزهّاد من شئت منهم . فقالت : نعم ، حباً وكرامة ! وسألت : من هو أعلمكم حتى أزوجه نفسي ؟ قالوا : الحسن البصري . فقالت له : إن أجبتني عن أربع مسائل فأنا لك أهل ؟ فقال لها : إسألي فأنا أجيبك إن وفقني الله تعالى . قالت . ما يقول الفقيه العالم إذا أنا مُتُّ . هل خرجت من الدنيا مسلمة أم كافرة ؟ فقال : هذا غيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى . قالت : فما يقول إن وُضِعت في القبر وسألني منكر ونكير ، أفاقدر على جوابهما أم لا ؟ فقال : وهذا أيضًا غيب ! قالت . فإذا حُشِر الناس في القيامة وتطايرت الكتب ، فيُعطَى بعضُهم كتابه بيمينه ، ويعطى بعضهم كتابه بشماله . أفأُعطَى كتابي بيميني أم بشمالي ؟ قال : وهذا أيضًا غيب ! قالت . فإذا نودي في الخلائق ، ففريق في الجنة

وفريق فى العسير . فمن أى الفريقين أكون ؟ قال لها : وهذا أيضًا غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل ! فقالت له : فإذا كان الأمر كذلك ، وأنا فى قلق وكرب من هذه الأربعة ، فكيف أحتاج إلى الزوج وأتفرغ له !!

وانشدت :

راحتى يا إخوتى فى خلوتى ... وحبيبى دائمًا فى حَضرتى

لم أجد لى عن هواه عِوضًا ... وهواه فى البرايا مِحنتى

حيثما كنت اشاهِد حُسنَه ... فهو محرابى إليه قبلتى

إن أمت وجدًا وما ثَم رضا ... واغَنَائى فى السورَى واشُقوَتى

يا طبيب القلب ياكل المنى ... جُد بوصلٍ منك يَشفى مُهجتى

ياسرورى وحياتى دائمًا ... نشأتى منك وأيضًا نشوتى

قد هجرتُ الخلق جمعاً ارتجى ... منك وصلاً فهو اقصى مُنيتى

★★★

وفى « إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين للغزالى » يقول الزبيدى : إنها رابعة ابنة اسماعيل العدوية البصرية العابدة رحمها الله تعالى ، وكانت إحدى المحبين وماتت سنة ١٣٥ هـ ، وكان الثورى (يقصد سفيان) يقعد بين يديها ويقول علّمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة ! وكانت تقول له : نِعْمَ الرجل أنت ، لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان الثورى زاهدًا عالمًا : لكل إلا أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا . وقال لها الثورى يومًا : لكل عَقْد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفًا من ناره ولا حبًا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، إن خاف عمل ، أو إذا أُعطى عمل ، بل عبدته حبًا له وشوقًا إليه ! وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت. إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ فكان هذا

جوابًا لانه قال : سليني حاجتك . وخطبها **عبد الواحد بن زيد** ، فحجبته أيامًا حتى سئلت أن يدخل عليها ، فقالت له . ياشهواني ! أطلب شهوانية مثلك ! اى شيء رأيت فيَ من آلة الشهوة ! وخطبها **محمد بن سليمان الهاشمي** أمير البصرة على مائة ألف ، وقال : لي غلة عشرة آلاف في كل شهر أجعلها لك . فكتبت إليه ما يسرّني أنك لي عبد ، وأن كل مالك لي ، وأنك شغلتني عن الله طرفة عين ! وقالت **رابعة** في معنى **المحبة** أبياتًا تحتاج إلى شرح حملها عنها أهل البصرة وغيرهم ، منهم **سفيان الثوري** ، **وجعفر بن سليمان الضبعي** ، **وعبد الواحد بن زيد** ، **وحماد بن زيد** . وهي هذه :

أحبك حبين : حبَّ الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا

فأمّا الذي هو حبّ الهوى ... فذِكْرٌ شُغِلتُ به عن سواكا

وأمّا الذي أنت أهلٌ له ... فكشفك الحُجب حتى أراكا

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وقد تكلم **صاحب القوت** على هذه الأبيات بكلام ساطع الأنوار ، يعرفه من رُزقه ، وينكره من حُرِمه ، ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب، لجماله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحبين ، فقد أشار بذلك إلى أن كلامها يدل على أن المحبة بهذا السبب أقوى الأسباب وأثبتها دواماً .

وأما **صاحب القوت** فقال . فأما قولها حب الهوى ، وقولها حب أنت أهل له ، وتفرقتها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى مزيد من تفاصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه، ويخبره من لم يشهده . وفي تسميته ونعت وصفه إنكار من ذوي العقول ممن لاذوق له منه ولا قدر له به ، ولكنا نجمل ذلك ونـدل عليه من عرفه . معنى حب الهوى أي رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين ، لا من خبر وسمع تصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك عليّ ، ولكن محبتي عن طريق العيان فقربت منك ، وهربت إليك بك لما تفرعت لك كما قال المحب :

فَرَغتْ قلبها اشتغالاً بذكرى ... وكذا كل فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا ﴾ أى ملآن بذكره حتى فاض فكادت أن تظهره فتقول هـو ابنى ، فعبر عن الملء بالفراغ من ضـده ، لولا أن أولينـا عليه بربطنا فكظمت ، ولو لم تفعل لأظهرت ، ولو أظهـرت لقتل . وأما الحب الثانى الذى هو أهل له تعنى حب التعظيم والإجـلال لوجه العظيم ذى الجلال . تقـول ثم إنى مع ذلك لأستحق هذا الحب ولا أستاهل هل أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبى لك لايوجب لك جـزاء عليه ، بل يوجب علىّ ممـا لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيـه أبدًا ، إذا كنت قد أحببتك فلزمنى من خوف التقصير ، ووجب علىّ الحيـاء من قلة الوفاء ، والخوف لما تعرضت به من حبك ، إذ ليس كمثلك شيء كما قال المحب :

أصبحتُ صبـــــاً ولا أقـــــول بمن ... خـــــوفـــــاً لمن لا يخاف من أحـــــدِ

إذا تفكـــــرتُ فى هـــــــوای لـــــــه ... لمستُ رأسى هل طـار عن جســـــدى

لولا أن الحب ينطق ، والشوق يقلق ، والوجد يحرق ، فـالحب لا يلام لغيبة النفس عنه وإلاّ نام ، تقول فتفضلتْ علىّ بفضل كرمك ومـا أنت له أهل مِن تفضلك ، فأريتنى وجهك عندك آخراً ، كما أريتينـه اليوم عندك أولاً ، فلك علىّ مـا تفضلتَ به فى ذاك عنـدى فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذا هاهنا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك ، إذا كنتُ أنـا وصلتُ إليها بك ، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما . فهذا الـذى فسّرناه هو وجـد المحبين المحققين . وقد كانت تـذكر الأنُس فى وَجْدها ، وترتفع إلى وصف معنى الخُلة فى قولها السائر

إنـى جعلتـك فى الفـــــــؤاد محدثـى ... وأبحتُ جسمـى من أراد جلـــــوسـى

فـــالجسـم منى للجليس مـــــؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفـــــــؤاد أنيسـى

ومن قولها النادر فى مقام الخُلّة :

وتخللـتَ مسلـك الـــــــروح منـى ... وبـــــــه سمـى الخليـل خليـــــــلاً

فإذا مـــــا نطقـتُ كنتَ حـــــديثـى ... وإذا مـــــا سكـتُ كنـتَ الغليـــــلاً

وقد أهَلَ لها ذلك كل ما نقله عنها العلماء ووصفوها به ، فوصفنا من نعت المحبين بعض ما يصلح من كلامها ، لانا ظننا بقولها ذلك أن كان لها فى المحبة قدم . ولا يسعنا ان نشرح فى كتابٍ حقيقة كشف ما أجملناه ، ولولا أن نفصّل وصف ما ذكرناه. ومن لم يكن من المحبين كذلك حتى لا يدل بمحبته ولا يقتضى الجزاء عليها من محبوبه ، ولا يوجب على حبيبه شيئًا لاجل محبته ، فهو مخدوع بالمحبة ومحجوب بالنظر إليها ، وإنما ذلك مقام الرجاء الذى ضده الخوف ليس من المحبة فى شىء ، ولا تصح المحبة إلا بخوف المقت فى المحبة . وقال بعض العارفين ما عرفه من ظنَّ أنه عَرَفَه ولا أحبّه من تَوَهّمَ أنه أحبَّه ـ وهذا كلام صاحب القوت .

وفى بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم يقول **الزبيدى** : وقالت **رابعة العدوية** من يدلنا على حبيبنا . فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدُنيا قطعتنا عنه . ورابعة قدّس الله سرها كانت رأساً فى المعرفة والمحبة كما هو مشهور من حالها ، ولا يخفى عليها مقام المعية ، وإنما قالت ما قالت وهى فى مقام الاستغراق الذى هو من نتائج المحبة وغلب عليها الشوق إلى المشاهدة ، والمحب فى مقام القرب قد يتطلب من يأخذ بيده ويتعلق بالأذيال ، فنبهتها الخادمة على أن الوصول إلى مقام المشاهدة لا يكون إلا بعد المفارقة من هذا العالم فتمتنع عنه القواطع ، فما أدق نظرها رحمها الله .

وقيل **لرابعة** كيف حبّك للرسول ﷺ فقالت : والله إنى لأحبه حبًا شديدًا ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين . وفى ذلك يحكى ايضاً عن **أبى سعيد الخراز** قال : رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت : يا رسول الله أعذرنى ، فإن محبة الله شغلتنى عن محبتك . فقال : يا مبارك : من أحب الله فقد أحبنى .

وقيل نظرت رابعة إلى **رياح القيسى** وهو يقبّل صبيًا من قومه ويضمّه إليه ، فقالت : أتحبه يا رياح ؟ قال نعم . قالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعًا فارغًا لمحبة غيره ! فصاح رياح وسقط مغشيًا عليه .

وقال **ذو النون** بينما أسير على ساحل البحر إذ أبصرت بجارية عليها أطمار شَعر ، وإذ هى ناحلة ذابلة ، فدنوت منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان .

وعصفت الرياح ، واضطربت الأمواج ، وظهرت الحيتان ، فصرخت ثم سقطت إلى الأرض ، فلما أفاقت نجت ، ثم قالت : سيدى بك تقرّب المقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبّحت الحيتان ، والبحر الزخّار ، والقمر النّوار ، والنجم الزهّار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلىّ القهّار .

يـــا مـــؤنـس الأبـــرار فى خلـــواتهم ... يـــا خير من حلّت بـــه النُّـــزّال

مـن ذاق حبـك لا يـــــــزال متيمًا ... فـــرح الفـــؤاد ـــــ متيماً بَلبْـــال

مـن ذاق حبك لا يُـــــــرى متبسمًا ... من طـــول حـــزن فى الحشـا إشعـــال

فقلت لها زيدينا من هذا . فقالت : إليك عنى ، ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت :

أحبـــــك حبين : حـــــــب الهوى ... وحبـــــاً لأنك أهـل لـــــذاكـــــا

فأمّـــا الـــــذى هـــــو حب الهوى ... فـــذِكـــرٌ شُغِلتُ بـــه عن ســـواكـــا

وأمّـــــا الـــــذى أنت أهلٌ لـــــه ... فكشفُك الحُجب حتـى أراكـــــــا

فما الحمـــــــــــد فى ذا ولاذاك لى ... ولكـن لك الحمـــــد فى ذا وذاكـــــا

ثم شهقت فإذا هى فارقت الدنيا ، فبقيت أتعجب مما رأيت منهـا ، فإذا بنسوة قـد أقبلن ، عليهن مدارع الشَعر ، فاحتملنَها فغيبنَها عن عينىّ ، فغسلنَها ، ثم أقبلنَ بها فى أكفانها فقلن لى . تقدّم فصَلّ عليها . فتقدمت وصلّيت عليها وهن خلفى ، ثم احتملنها ومضين .

★★★

وفى رسالة القشيرى أن رابعة خاطت شقًا فى قميصهـا فى ضـوء مشعلة سلطـان ، ففقدت قلبها زماناً حتى تذكرت فشقت قميصها فوجدت قلبها .

وقيل إن رجلاً قال لرابعة : إنى أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبتُ هل يتوب علىّ ؟ فقالت : لا بل لو تاب عليك لتبت !

وسُئلت رابعة متى يكون العبد راضيًا ؟ فقالت . إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة .

وفى باب الغيرة أن رابعة مرضت ، فقيل لها ما سبب عِلّتك ؟ فقالت : نظرت بقلبى إلى الجنة فأدّبنى ، فله العتبى لا أعود !

وقيل كان صالح المرّى يقول كثيرًا : من أدمن قرع بابٍ يوشك أن يُفتح له ، فقالت له رابعة . إلى متى تقول هذا ؟ ومتى اغلِق هذا الباب حتى يُستفتح ! فقال صالح : شيخٌ جهيل وامراة عَمِلَتْ !

وقيل قالت رابعة فى مناجاتها : إلهى ! أتحرق بالنار قلبًا يحبك ! فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا فلا تظنى بنا ظن السوء !

وقال بعضهم كنت أدعو لرابعة العدوية ، فرأيتها فى النوم تقول : هداياك تاتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل من نور !

★★★

ومن « تَعَرُّف الكلاباذى » يقول : إن بعضهم ذكر المحبة على وجهين : محبة الإقرار وهى للخاص والعام ، ومحبة الوجد من طريق الإصابة ، فلا تكون فيها رؤية للنفس والخَلْق ، ولا رؤية للأسباب والأحوال ، بل يكون مستغرقًا فى رؤية ما لله وما منه ، ولرابعة العدوية :

أحبك حبين : حبَّ الهوى ... وحبًا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى ... فذِكرٌ شُغِلتُ به عن سواكا

وأما الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا

فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا

★★★

وفى كتاب « قوت القلوب » لأبى طالب المكى أن رابعة العدوية كانت إحدى المحبين ، وكان الثورى يقعد بين يديها ويقول : علّمينا مما أفادك الله من طرائف الحكمة ! وكانت تقول . نِعْمَ الرجل أنت لولا أنك تحب الدنيا ! وقد كان رحمه الله زاهدًا فى الدنيا عالمًا ، إلا

أنها كانت تجعل إيثار كتب الحديث والإقبال على الناس من أبواب الدنيا . وقال لها الثورى يومًا : لكل عبد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدتُ الله خوفًا من الله ، فأكون له كالأمَة السوء ، إنْ خافتْ عَمِلت ، ولا حبًا للجنة فأكون كالأمَة السوء ، إنْ أُعطيتُ عملتُ ، ولكنى عبدتُه حبًا له وشوقًا إليه . وروى عنها حماد بن زيد أنها قالت : إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ،فكيف أسألها من لا يملكها ! وكان هذا جوابًا لأنه قال لها اذكرى لى حوائجك حتى أقضيها . وخطبها عبد الواحد بن زيد فقالت : ياشهوانى ! أطلب شهوانية مثلك ! أى شيء رأيت فىّ من آلة الشهوة ؟! وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مائة ألف ، وقال : لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك . فكتبت إليه : مايسرنى أنك لى عبد ، وأن كل ما تملكه لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين ! وقد قالت فى معنى المحبة أبياتًا تحتاج إلى شرح ، حملها عنها أهل البصرة وغيرهم ، منهم جعفر بن سليمان الضبعى ، وسفيان الثورى ، وحماد بن زيد ،وعبد الواحد بن زيد .

أحبك حبين : حبَّ الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى ... فذِكرٌ شُغِلتُ به عن سواكا

وأما الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا

فما الحمدُ فى ذا ولاذاك لى ... ولكن لك الحمدُ فى ذا وذاكا

فأما قولها حب الهوى ، وقولها حبّ أنت أهل له ، وتفريقها بين الحبين ، فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ،ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت صفته إنكار من ذوى العقول ممن لا ذوق له ولا قدم له فيه ، ولكنا نحمل ذلك ونـدل عليه مَن عرفه : ويعنى حب الهوى أنى رأيتك فأحببتك ، عن مشاهدة عين اليقين لا عن خبر وسمع وتصديق من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتى إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىّ ، ولكن محبتى من طريق العيان ، فقربت منك ،وهربت إليك ، واشتغلت بك ، وانقطعت عمّن سواك . وقد كانت لى قبل ذلك أهواء فلما رأيتك اجتمعت كلها ، فصرت أنت كلية القلب وجملة المحبة ، فانسيتنى ما سواك . ثم إنى مع ذلك لا أستحق هذا الحب ، ولا أستاهل أن

انظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبى لك لا يوجب عليك جزاءً عليه ، بل يوجب علىّ كل شىء لك منى ، كل شىء مما لا أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبدًا ! إذ كنت قد أحببتك فلزمنى خوف التقصير ، ووجب علىّ الحياء من قلة الوفاء ، فتفضّلت علىّ بفضل كرمك وما أنت له أهلٌ من تفضلك ، فأريتنى وجهك عندك آخراً كما أريتنيه اليوم عندى أولاً ، فلك الحمد على ما تفضّلت به فى ذا عندى فى الدنيا ، ولك الحمد على ما تفضلت به فى ذاك عندك فى الآخرة ، ولا حمد لى فى ذا هاهنا ، ولا حمد لى فى ذاك هناك ، إذ كنتُ إنما وصلت إليهما بك ، فأنت المحمود فيهما لأنك وصلتنى بهما ! فهذا الذى فسّرناه هو وَجْد المحبين المحققين ، ظناً بقولها ذلك ، إذ كان لها فى المحبة قَدَم صِدق ، والله أعلم .

★★★

وفى عوارف المعارف للسهرودى يقول إن الفقير فى المدارة ربما يتعدّى حدّ الاعتدال فى وجوه المعيشة ، متطلبًا رضا الزوجة ، فهذا فتنة عموم حاله ، وفتنة خصوص حاله الإفراط فى المجالسة والمخالطة ، فتنطلق النفس عن قيد الاعتدال ، فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغفلة ، ويستجلس مقار المهلة ، فيقل الوارد لقلة الأوراد ، ويتكدّر الحال لإهمال شروط الأعمال . وألطف من هذين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضور ، وذلك أن للنفوس امتزاجًا ،وبرابطة الامتزاج تعتضد وتشتد وتتطرى طبيعتها الجامدة ، وتلتهب نارها الخامدة ، فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأهل عند المجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه ، وعينان ظاهران يستعملهما فى طريق هواه ، وقد قالت رابعة فى معنى هذا نظمًا :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدّثى ... وابحتُ جسمى مَن أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

★★★

وفى طبقات الشعرانى فصلٌ فى ذكر جماعة من عُبّاد النساء رضى الله عنهن ،منهن

رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها ، وكانت كثيرة البكاء والحزن ، إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً . وكانت تقول : مالى حاجة بالدنيا ! وكانت بعد أن بلغت الثمانين كأنها شِنّ بالٍ تكاد تسقط إذا مشت ، وكان كفنها لم يزل موضوعًا أمامها ، وكان بموضع سجودها . وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، وسمعتُ رضى الله عنها سفيانًا يقول : واحزناه ! فقالت له : واقلة حزناه ! ولو كنت حزينًا ما هناك العيش ! ومناقبها كثيرة رضى الله عنها ومشهورة .

★★★★★

وفى مجموعة « الرسائل والمسائل » لابن تيمية : أن ما ذُكِر عن رابعة من قولها عن البيت انه الصنم المعبود فى الأرض فهو كذب عليها ، ولو قال هذا من من قال لكان كافرًا يُستتاب ، فإن تاب وإلاّ قتل ، وهو كذب فإن البيت لا يعبده المسلمون ، ولكنهم يعبدون ربّ البيت، بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك ما نقل من قولها « والله ما ولجه الله ولا خلا منه » ـ كلامٌ باطلٌ عليها . وعلى مذهب الحلولية لافرق بين ذاك البيت وغيره فى هذا المعنى ـ فلأى مزية يُطاف به ويُصلَّى إليه وَيُسَجّ دون غيره من البيوت ؟ وقول القائل « ما ولجه الله » فيه كلام صحيح . وأما قوله « ما خلا منه » فإنه أراد أن ذاته حالّة فيه أو ما يشبه هذا المعنى ، فهو باطل ، وهو مناقض لقوله « ما ولج فيه » . وإن أراد به أن الاتحاد ملازمٌ له ولم يتجدد له ولوج ، ولم يزل غير حالٍ فيه ، فهذا مع أنه كفر وباطل ، يوجب ألاّ يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

★★★

وفى صفة الصفوة لابن الجوزى : أن رابعة كانت كثيرة البكاء ، فقرأ رجل عندها آية من القرآن ، ذكر فيها النار ، فصاحت ثم سقطت . ودخل عليها أحدهم وهى جالسة على قطعة بورى خَلِق ، فتكلم بشىء ، فكان لدموعها وقعٌ على البورى مثل الوكف ، واضطربت وصاحت . وقيل إن أحدهم أتاها بأربعين دينارًا ، فقال لها تستعينين بها على بعض حوائجك ، فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء فقالت . هو يعلم أنى أستحى منه أنْ أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف أنا أريد أن آخذها ممن لا يملكها " وحدّث أحدهم أنه دخل على

رابعة وكانت عجوزًا كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشنّ تكاد تسقط ، ورأى فى بيتها كراخة بوارى وستر البيت جلّة وربما كان بوريًا ، وحُب ، وكوز ، ولبد هو فراشها وهو مصلاها . وكان لها مشجب من قصب عليه أكفانها . وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت وأصابتها رعدة . وإذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة . وطلب منها رجل يومًا أنْ تدعو له ، فالتصقت بالحائط وقالت : ومن أنا يرحمك الله ! أطعْ ربّك وادعه فإنه يجيب المضطر !

وقال أحدهم : دخلت على رابعة وهى ساجدة ، فلمّا أحسّت بمكانى رفعت رأسها ، فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها ، فسلمتُ ، فأقبلت علىّ وقالت : يابنى ! لك حاجة ؟ فقلت : جئتك لأسلّم عليك . فبكت وقالت : سترك اللهم سترك !! ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة .

وقيل إن رياحًا القيسى ، وصالح بن عبد الجليل ، وكلابًا ، دخلوا على رابعة فتذكروا الدنيا ، فأقبلوا يذمونها، فقالت رابعة : إنى لأرى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم ! فقالوا : ومن أين توهمت علينا ؟ قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكتمتم فيه !

وقيل لرابعة : هل عملت عملاً ترين أنه يُقبَل منك ؟ قالت : إنْ كان فمخافتى أنْ يُرَدّ علىّ !

ووصفها سفيان الثورى فقال : المؤدّبة التى لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها ! ولما دخل عليها مرة قال : اللهم إنى أسألك السلامة ! فبكت رابعة ! فسألها : ما يبكيك ؟ فقالت : أنت عرّضتنى للبكاء . فقال لها . وكيف ؟ قالت : أما علمت أن السلامة ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطخ بها ! وقالت له رابعة : إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم ، فاعملْ !

وكانت عبسدة بنت أبى شوال - وهى من خيار إماء الله تعالى - تخدم رابعة ، فوصفتها قالت . كانت رابعة تصلّى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذاك وهى فزعة .

يانَفْسُ كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نـوْمةً لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ! فكـان هذا دأبها دهرها حتى مـاتت ، فلما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت : يـاعبدة لاتؤذنى بموتى أحدًا ، ولفينى فى جُبَّتى هذه ! فلما ماتت كَفنتها فى تلك الجبة وخمارٍ صوف كانت تلبسـه . ورأيتها بعـد ذلك بسنة أو نحوهـا فى منامى ، عليهـا حلة استبرق خضراء ، وخمار من سندس أخضر لم أر شيئًا أحسن منه ، فقلت يـا رابعة : ما فعلت بـالجبة التى كفّنتك فيها والخمار الصوف ؟ قالت . إنه والله نُزِع عنى ، وأُبدِلتُ به هذا الذى ترينه علىّ ، وطُوِيت أكفانى وخُتِم عليها ، ورُفِعت فى عِلّيين لتكمل لى بها ثـوابها يوم القيامة . فقلت لها : ولهذا كنت تعملين أيـام الدنيـا ! فقالت : ومـا هذا عنـد مـا رأيت من كرامـة الله لأوليـائه ! وسـألتُها عن **عبدة بنت أبـى كلاب** فقـالت : هيهات ! سبقتنـا واللـه إلى الدرجـات العُلَى ! وسـألت : بِمَ ، وقـد كنت أنت عند الناس أكثـر منها ؟ قالت : إنها لم تكن تبـالى على أى حال أصبحتْ من الدنيا وأمسـت . وسألتها : فما فعل **أبو مالك** ـ يعنى **ضيغماً** ـ قالت . يزور الله عز وجل متى شاء . فقلت . فما فعل **بشر بن منصور** ، قالت : بخٍ بخٍ ! أُعطَى والله فوق ما كان يأمل ! وسألتها : مـرينى بأمر أتقرّبُ به إلى الله عز وجل ؟ فقـالت : عليك بكثرة ذِكره . أوْشَكَ أن تُغبَطى بذلك فى قبرك !

ويذكر **ابن الجوزى** عن **رابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى** : أن ذلك هو نسبها كما ذكره **أبو بكر بن أبى الدنيا** ، وأن **أبا عبد الرحمن السلمى** ذكر أن **رابعة العدوية** تشارك هذه فى اسمهـا واسم أبيها ، وعموم مـا يأتى فى الحديث عن زوجة أحمد أنها رابعة بالياء ، والعدويـة بصرية وهذه شاميـة ، ورابعة ـ بالباء بنقطة من تحتها ـ بصرية ، **ورابعة** ـ بنقطتين من تحتها ـ شاميـة ، والشامية يقول عنها **أحمد بن أبى الحوارى** إنها امرأته ، وكانت تقوم بالليل فانتقدها وقال : قد رأينا أبا سليمان وتعبّدنا معه ، فما رأينا من يقوم من أول الليل ! فقالت سبحان الله ! مثلك مـن يتكلم بهذا ! إنما أقوم إذا نوديت ! قال : وجلست آكل وتُذَكّـرُنى ،فقلت لها : دعينا يهنينا طعـامنا ! قالت : ليس أنـا وأنت ممن يتنغص عليه الطعام عند ذكر الآخرة ! ويقول **أحمد بن أبى الحوارى** كانت لرابعـة أحوالٌ شتى ، فمرة يغلب عليها الحب ، ومـرة يغلب عليها الأنس ، ومـرة يغلب عليها الخوف فسمعتهـا فى حال الحب تقول :

حبيبٌ ليس يعـــدلـــه حبيب ولا لســـــــواه فى قلبى نصيب
حبيبٌ غـــاب عـن بصرى وشخصى ولكن فى فـــؤادى مـــا يغيب

وسمعتها فى حال الأُنس تقول :

وقـــد جعلتُ فى الفـــؤاد محدثى وابحثُ جسمـى من اراد جلـــوسـى
فـالجسم منى للجليس مـــؤانس وحبيب قلبى فى الفـــؤاد انيسـى

وسمعتها فى حال الخوف تقول :

وزادى قليلٌ مـــــــا اراه مُبلّغـى اللـزاد ابكى ام لطـول مسـافتى !
أتحرِقُنى بـالنـار يا غـايـة المنى فاين رجـــائى فيك اين مخافتى !

ويذكر احمد بن أبى الحوارى أنه سمعها تقول : إنى لأضن باللقمة الطيبة أن أطعمها نفسى ، وإنى لأرى ذراعى قد سمن فأحزن . وقد يسألها أحمـد : أصائمة أنـت اليوم ؟ فتقول : وما مثلى يفطر فى الدنيا ! ويقول : وربما نظرتُ إلى وجهها ورقبتها فيتحرك قلبى على رؤيتها ما لا يتحرك مع مذاكرتى أصحابنا من أثر العبادة ، فتقول لى : لست أحبك حب الأزواج وإنما أحبك حب الإخوان . وإنما رغبتُ فيك رغبةً فى خدمتك ، وإنما كنت أتمنى أن يأكل مالى مثلك ، ومثل إخوانك ويعلق بن أبى الحوارى : انها كانت لها سبعة آلاف درهم فأنفقتها علىّ ، وكانت إذا طبخت قِدرًا قالت: كُلْها ياسيدى فما نضجت إلا بالتسبيح ! وتقول . لست أستحل أن أمنعك نفسى وغيرى ، فاذهب فتزوج . ويقول : فتزوجتُ ثلاثًا ، وكانت تطعمنى اللحم وتقول إذهب بقوّتك إلى أهلك ! وكنت إذا أردت جِماعها نهارًا قالت : بالله لا تفطرنى اليوم ! وإذا أردتها بالليل قالت : أسألك بالله لما وهبتنى لله الليلة ! وكانت رابعة تقول : مـا سمعت الأذان إلا ذكرتُ منـادى يوم القيـامة ، ولا رأيت الثلـج إلا ذكرت تطاير الصُحُف ، ولا رأيتُ جرادًا إلا ذكرت الحشر !

★★★

وفى كتاب **مصارع العشاق للسرّاج** : أن رابعة العدوية اعتلّت علّة قطعتها من التهجد وقيام الليل ، فمكثت تقرأ جزءها إذا ارتفع النهار ، لما يُذْكَر فيه أنه يعدل بقيام الليل ، وتقول : ثم رزقنى الله عز وجل العافية فاعتادتنى فترة فى عقب العلة ، وكنت قد سكنت إلى قراءة جزئى بالنهار ، فانقطع عنى قيام الليل ، فبينما أنا ذات ليلة راقدة رأيت فى منامى كأنى رُفِعت إلى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن ، فبينا أنا أجول فيها أتعجب من حُسنها ، إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده ، كأنها تريد أخذه ، فشغلنى حُسنها عن حُسنه ، فقلت : ما تريدين منه ؟ دعيه فوالله ما رأيت طائرًا قط أحسن منه ! ثم أخذتْ بيدى فدارتْ بى فى تلك الروضة ، حتى انتهت بى إلى باب قصر فيها ، فاستفتحت ففُتِح لها ، ثم قالت : افتحوا لى باب المقة ، فُفتِح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدى وما خلفى ، ودخلتُ إلى بيت يحار فيه البصر تلألؤاً وحُسناً ، ما أعرف له فى الدنيا شبيهًا أُشبهّه به فبينما نحن نجول فيه إذ رفع لنا باب يُنفَذ منه إلى بستان ، فأهوتْ نحوه وأنا معها ، فتلقانا فيه وُصَفاء كأن وجوههم اللؤلؤ ، وبأيديهم المجامر ، فقالت لهم : أين تريدون ؟ . قالوا : نريد فلانًا قُتل فى البحر شهيدًا . قالت : أفلا تُجمروا هذه المرأة ؟ قالوا : قد كان لها فى ذلك حظٌ فتركته . فأرسلتْ يدها من يدى ثم أقبلت علىّ فقالت .

صلاتُكِ نورٌ والعبادة رقود ... ونومك ضد للصلاة عنيد

وعُمرُك غُنم إن عقلت ومَهْلة ... يسير ويفنى دائماً ويبيد

ثم غابت من بين عينىّ ، واستيقظت من تبدّى الفجر ، فوالله ما ذكرتها فتوهمتُها إلا طاش عقلى وأنكرت نفسى !

ويروى **السراج** أن **رابعة** نظرت يومًا إلى **رياح القيسى** يقبّل صبيًا من أهله ويضمه إليه ، فقالت : ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعًا لمحبة غيره ! فقال **رياح** وهو يمسح العرق من وجهه : رحمةٌ منه تعالى ذِكره ألقاها فى قلوب العباد للأطفال !

★★★

وفى كتاب **طبقات الأولياء لعبد الرءوف المناوى** : أن **رابعة العدوية** ، رأس العابدات ، ورئيسة الناسكات القانتات الخائفات الوجلات ، وكانت فى عصر **الحسن البصرى** ، وهى إحدى النساء اللائى تقدمن ومهرن فى الفضل والصلاح ، كأم أيوب الأنصارية ، وأم الدرداء ، ومعاذة العدوية ، وهى من بينهن المشهورة بعظيم النُسك ، ومزيد العبادة ، وكمال النزاهة والزهادة ، وكانت تصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة ، فقيل لها ما تطلبين بهذا ؟ قالت : لا أريد به ثوابًا وإنما أفعله لكى يُسَرّ رسول الله يوم القيامة ، فيقول للأنبياء انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها !

وكانت تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مُصلاها قليلاً حتى يسفر الفجر ، ثم تثب وهى فزعة وتقول : يانفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا قومة لها إلا لصرخة يوم النشور !

وكتب **محمد بن سليمان الهاشمى** ـ وكانت غلة مُلكِه كل يوم ثمانين ألف درهم ـ إلى كبراء أهل البصرة ، فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة ، فكتبت إليه : أما بعد ، فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحَزَن ، فهىء مَزادَك ، وقَدّم لمعادِك ، وكنْ وصىَّ نفسِك ، ولاَ تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك ، وصُمْ الدهر ، واجعلْ فِطرك الموت ، وأما أنا أمثال ماخوّلك واضعافه ، لم يسرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين ، والسلام !

ومن **كراماتها** أن لصًا دخل حجرتها وهى نائمة ، فحمل الثياب وطلب الباب فلم يجده فوضعها فوجده ، فحملها فخفى عليه ، فأعاد ذلك مرارًا ، فهتف به هاتف : دع الثياب فإنا نحفظها ولاتدعها لك وإن كانت نائمة ! وهذا تحقيق التمكين بقوله تعالى : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه** ﴾ .

وسئلت متى يكون العبد راضيًا فقالت : إذا سرّته المصيبة كما سرته النعمة ! وكانت شديدة الخوف جدًا ، فإذا سمعت ذِكْر النار أُغمى عليها ، وكانت تقول لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيًا ! وقيل كيف ؟ فقالت لأنها تفنى !

وقالوا عن رابعة إنها مكثت أربعين عامًا لاترفع رأسها حياءً من الله ، وذمّ بعضهم الدنيا فقالت إن رسول الله ﷺ قال من أحب شيئًا أكثرَ من ذكره ، وذكر كم لها دليل على بطالة قلوبكم إن كنتم غرقى فى غيرها لما ذكرتموها .

وقال **مالك بن دينار** : أتيتها فإذا هى تقول : كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها ! يا رب أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ !

وقال لها **سفيان** . ما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ما عبدته خوفًا من ناره ولا حبًا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، وإنما عبدته حبًا وشوقًا إليه !

ومن مناجاتها : إلهى ! تحرق بالنار قلبًا يحبك ! فقيل لها لا تظنى بنا الظنون ! وكانت تنشد :

إنـى جعلتـك فى الفـــــؤاد محدّثـى وأبحتُ جسمـى مَن أراد جلـــــوسـى

فـــالجسـم منى للجليس مـــؤانسٌ وحبيـب قلبى فى الفـــــؤاد أنيسـى

وكانت كل ليلة تتطيب وتأتى زوجها (كذا !) وتقول ألك حاجة ، فإن كان له قضى وطره ، فتطهرت ونصبت أقدامها إلى الصباح . وكان كفنها لم يزل عندها ، ويجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء . وكانت تعيب على سفيان رغبته فى الدنيا ، فلما سمعته مرة يقول واحزناه طلبت إليه أن لا يكذب ، وقالت : قل واقلة حزناه ! واعتبرت أن ميل سفيان للحديث هو من رغائب الدنيا عنده ، وسألته ما تعدون السخاء فيكم ، فقال : أما عند أبناء الدنيا فمن يجود بماله ، وعند أبناء الآخرة من يجود بنفسه . فصَحَتــــه وقالت : أخطأتم ! إن السخاء أن تعبده حباً له لا طلب جزاء ولا مكافاة ! وضرب رأسها ركن جدار فأدماه ، فلم تلتفت لذلك ، فقيل لها ما تحسين بالألم ؟ قالت : شُغْلى بموافقة مراده فيما جرى شَغَلنى عن الإحساس بما ترون . وسمعت قارئًا يقرأ : ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون** ﴾ فقالت : مساكين أهل الجنة ! فى شغل هم وأزواجهم !! وعاب عليها ابن عربى هذه المقالة ، وقال . إنها ما عرفت ، وإنها لمسكينة ! فإنما شُغلهم إنما هو بالله . قال : وهذا من مكر الله الخفى بالعارفين فى تجريح الغير ببادى الرأى والتعريض فى

حق نفوسهم . إنهم منزهـون عن ذلك ! لكنه مع ذلك بالغ فى موضع آخر فى مـدحها وقال : إنها فى رتبة الشيخ **عبد الله القـادر الجيلانى** ، فقال : السـائرون إلى الله بعـزائم الأمور المشروعة على قسمين : طائفة ربطت همتها على أن الرسـول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق الموصلـة إلى جناب الحق ، فإذا أُعطـى العلم بذلك زال من الطـريق وخُلّى بينهم وبين اللـه ، فهؤلاء إذا سـارعوا سابقوا إلى الخيرات ولم يـروا أمامهم قَدَم أحد من المخلـوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفـة الأخرى جعلوا من نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إليه تعالى إلا والرسول ﷺ هو الحاجب ، فـلا يشهدون أمرًا إلا وأقدام الرسول ﷺ بين أيديهم . ثم قال : والحالـة الأولى هى حالة **عبد القـادر** ، **وأبى السعود بن شبل** ، ورابعة العدوية ، ومن جرى مجراهم .

وماتت **رابعة** سنة **ثمانين ومائة** ، وقيل غير ذلك ، ومن رأى **المناوى** أن رابعة البصرية غير رابعـة الشاميـة. وأن الأوْلَى تسميـة الثانيـة **رابعة** بمثناة تحتيـة فيفترقان ، وكـانت الشاميـة لها أحوال شتى ، فمـرة يغلب عليها الحب ، ومـرة الأنس ، ومرة الخوف ، وكـانت **زوجًا لابن أبى الحوارى** ، وكـان إذا أراد جماعها نهارًا قـالت : أسـألك بـالله لا تفطـرنى اليـوم ! وإذا أراد ليلاً قالت : أسـألك بالله إلاّ ما وهبتنى لله الليلة !!

★★★

وفى كتاب **النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى يقول** : إن **رابعة** توفيـت سنة ١٣٥ ، وهى البصرية الـزاهدة العابدة ، وكـانت مولاة **لآل عتيك** ، وكـان **سفيان الثورى** وأقرانه يتأدبون معها ، وكانت تصلّـى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجـر ، ثم تثب إلى الصلاة وتقـول : يانفس ! كم تنـامين ! وإلى كم لا تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة !

★★★

ويذكر **ابن تغرى بردى** فى كـلامه عن الـذين توفـوا سنة ١٨٠ ، ممن ذكـر **الذهبى** وفاتهم فى هذه السنة ، أن منهم رابعة التى تقدّمت وفاتها فى قول غير الذهبى .

★★★

وفى كتاب نفحات الأنس من حضرات القدس لعبد الرحمن جامى ، فى ذِكر العارفات الواصلات إلى مراتب الرجال رابعة العدوية رحمها الله ، وكانت من أهل البصرة وكان يزورها سفيان الثورى رضى الله عنه ويسألها بعض المسائل ، وكان من المولعين بوعظها ودعائها ، وقد سألها يومًا عن خير ما يتقرب به العبد إلى الله ، فأجابت : ألاّ يملكُ فى الدنيا والآخرة شيئًا سواه !

★★★

وفى كتاب شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى عن أخبار سنة ١٣٥ أن رابعة بنت اسماعيل البصرية العدوية ، شهيرة الفضل ، ماتت فيها ، وقيل توفيت سنة خمس وثمانين ومائة ، وقبرها على رأس جبل سمى الطور بظاهر بيت المقدس ، وقيل رابعة أخرى غير العدوية .

★★★

وفى كتاب سير السالكات المؤمنات الخيّرات لأبى بكر الحصنى : أن رابعة العدوية منهن ، وكانت عجوزًا كبيرة بنت ثمانين سنة ، كأنها الشِنّ تكاد تسقط وتحتها بارية ، وكانت إذا ذكر الموت انتفضت وأصابتها رعدة ، وكانت إذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة ، ورابعة زوجة أحمد بن أبى الحوارى خادم أبى سليمان الدارانى رضى الله عنهم بخلافها ، فهذه شامية ، ورابعة العدوية بصرية .

★★★

وفى سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبى : أنها البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة أم عمرو رابعة بنت إسماعيل ، ولاؤها للعتكيين ، ولها سيرة فى جزء لابن الجوزى ، وقال عنها أبو سعيد بن الأعرابى أن الناس حملوا عنها حكمة كثيرة ، وكذلك حكى سفيان ما يدل على بطلان ما قيل عنها وقد تمثلت بهذا البيت :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدّثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت ، وإلى الإباحة بتمامه . قلت فهذا غلو وجهل ، ولعل من نسبها إلى ذلك هو نفسه الإباحي الحلولي ليحتج بها على كفرة كاحتجاجهم بخبر « كنت سمعه الذي يسمع به ... » ، قيل عاشت ثمانين سنة ، وتوفيت سنة ثمانين ومائة ، وأما رابعة الشامية العابدة فأخرى مشهورة ، وهي أصغر من العدوية ، وقد تدخل حكايات هذه في حكايات هذه .

★★★

وفي شرح حال الأولياء للشيخ عز الدين بن عبد السلام أن رابعة سئلت عن المحبة فقالت ليس للمحب وحبيبه بين ، وإنما هو نطقٌ عن شوق ، ووصفٌ عن ذوق ، فمن ذاق عرف ، ومن وصف فما اتصف ، كيف تصف شيئًا أنت في حضرته غائب ، وبوجوده دائب ، وشهوده ذاهب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له ولهان ، فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار ، والحيرة توقف الجنان عن الإظهار ، والغيرة تحجب الأبصار عن الاغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار ، فما ثم إلا دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة وأسرار كاتمة ، وأجساد من السُقم غير سالمة ، والمحبة بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة .

وارحمتـــاً للعـــاشقين ! قلـــوبهم ... في تيـه ميـــدان المحبـة هـــائمـه
قسامت قيـــامـة عشقهم فنفـوسهم ... أبـدًا على قـــدم التـذلل قـــائمـه
إمـــــا إلى جنـــــات وصل دائماً ... أو نـــار صـــدٍ للقلـوب مـــلازمـه

وسئلت رابعة وهي مَنْ هي في ميدان المحبة كيف سميت رابعة فأنشدت

كأسي وخمري والنـديم ثـلاثـة ... وأنـا المشـوقة في المحبـة : رابعـه
كأس المسرة والنعيم يـديـرهـا ... سـاقي المدام على المدى متتـابعـه
فإذا نظـــرت فـــلا أُرَى إلاّ لـــه ... وإذا حضرت فـــلا أُرَى إلا معـــه
يـــاعـــاذلي إني أحب جمالـــه ... تـاللـه مـا أُذْني لعـذلك سـامعـه
لا عيرتي تـــرْقـــا ولا وصلي لـــه ... يبقى ولا عيني القـريحة هـاجعـه

وفى **شفاء السائل لتهذيب المسائل لعبد الرحمن بن خلدون** : يروى عن شطحة **لرابعة** قولها : « لو وضعت خمارى ما بقى بها أحد » ، ويفسر هذا الحال بأنها حال غيبة وسُكر ، يكون فيها الكلام بما لا يجوز الكلام فيه . كما نُقِل عن **أبى يزيد البسطامى** فى قوله : « سبحانى ما أعظم شانى » ، وقوله « جزت بحرًا وقف الأنبياء بساحله » .

★★★

وفى **تفسير المنار** عند شرحه للآية الكريمة : ﴿ **والذين آمنوا اشد حبًا لله** ﴾ (الجزء العاشر) يقول : وللصوفية الشرعيين فى حب الله منازل عالية ومقامات راسخة ومعارف واسعة فى حب كل شىء بحب الله . قالت رابعة العدوية .

أحبك حبين : حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حب الهوى	فذِكرٌ شُغِلتُ به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له	فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

والذى نفهمه من هذا الشعر أن الحب الأول هو **حب العبودية** ، وهو حيرة شاغلة عن كل ما عداها ، والثانى **حب المعرفة** ، وغايتها رفع الحُجُب الكثيرة المانعة من كمالها إلى التكمل بكرامة الرؤية فى الآخرة .

★★★

وفى **إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى** : أن **رابعة** سئلت. كيف رغبتك فى الجنة ؟ فقالت · الجار ثم الدار ! فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها ، بل عن كل شىء ، سواء حتى عن أنفسهم ، مثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستولى هَمّه بالنظر إلى وجهه والفكر ، فإنه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ويُعبَّر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه ، ومعناه أنه صار مستغرقًا بغيره ، وصارت همومه هما واحداً وهو محبوبه ، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه ، لا

لنفسه ولا غير نفسه . وهذه الحالة هي التي توصّل في الآخرة إلى قرة عين لا يُتصوَّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر .

★★★

وفي روض الرياحين عن مناقب الصالحين لعبد الله بن أسعد اليافعي : يروى أن بعضهم خطر له أن يزور رابعة العدوية رضي الله عنها . وانظر أصادقة هي في دعواها أم كاذبة ، فبينما أنا كذلك وإذا بفقراء قد أقبلوا ، وجوههم كالأقمار ، وراثحتهم كالمسك ، فسلموا عليّ وسلمت عليهم ، وسألتهم من أين أقبلتم ؟ فقالوا : ياسيدي حديثنا عجيب! فقلت لهم : ما هو ؟ فقالوا : نحن من أبناء التجار المولين ، وكنّا عند رابعة العدوية رضي الله عنها ، فقلت . وما سبب ذهابكم إليها ؟ فقالوا كنا من المتهين بالأكل والشرب في بلدنا ، فنُقِل لنا حُسن رابعة العدوية وحُسن صوتها . فقلنا لابد أن نذهب إليها ونسمع غناءها وننظر حسنها ،فخرجنا من بلدنا إلى أن وصلنا إلى بلدها ، فوصفوا لنا بيتها ، وذكروا لنا أنها قد تابت ، فقال أحدنا : إن كان قد فاتنا حُسن صوتها وغنائها فما يفوتنا حُسن جمالها ! فغيّرنا حُلَلنا ، ولبسنا لبس الفقراء ، وأتينا بابها فطرقنا الباب ، فلم نشعر إلا وقد خرجت إلينا وتمرغت بين أقدامنا وقالت . لقد سعدت بزيارتكم لي . فقلت لها : وكيف ذلك ؟ فقالت : عندنا امرأة عمياء منذ أربعين سنة فلما طرقتم الباب قالتْ : إلهي وسيدي بحرمة هؤلاء الأقدام الذين طرقوا الباب ، ألا ما رددت عليّ بصري ؟ فرّد الله عليها بصرها في الوقت ، فعند ذلك نظر بعضنا إلى بعض وقلنا ترون إلى لطف الله بنا لم يفضح سريرتنا . وقال الذي أشار علينا بلبس الفقراء . والله لا عُدْتُ أقلع هذا اللباس من عليّ ، وأنا تائب إلى الله عز وجل على يدَي رابعة . فقلنا له : ونحن رافقناك على المعصية ، ونحن نوافقك على الطاعة والتوبة ، فتبنا كلنا على يديها ، وخرجنا من أموالنا جميعًا ، وصرنا فقراء كما ترى .

★★★

وفي روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب يقول : إن رابعة حين سئلت من أنت ؟ قالت . كنت أضرب الدف والطبل فما سمع غيري .

بـــاللـــــه يـــا ريـح الصبـــا مُـــــرّى على تلـك الـــــربـــــا
وبلغـــى رســـــــــــــالتـــى بنصهـــــــــا أهـــل قبـــــــا
واحـــــــربـــــــا وهل يـــــــرد فـــــائتـــــا واحـــــربـــــا

★★★

وفى حلية الأولياء للأصبهانى : أن ذا النون المصرى فى تيـــه بنى إسرائيل (يعنى سيناء) مع سعيد بن عثمان وإذا بشخص قد أقبل فقال سعيد : أستاذ ! شخص قادم . فقال ذو النون : أنظروا فإنه لا يضع قدمه فى هذا المكان إلا صدّيق . فنظرت فإذا امرأة فقلت : إنها امرأة . فقال . صِدّيقة وربّ الكعبة . فابتدر إليهـا وسلّم عليها ، فـردّت السـلام ثم قالت : كلمة بـروحها للرجل ومخاطبة النساء ؟ فقال لها . إنى أخوك ذو النون ولست من أهل التهم . فقالت : مـرحبًا حّياك اللـه بالسلام . فقـال لها : ما حملك على الدخـول إلى هذا الموضع ؟ فقالت · آية فى كتـاب الله تعالى : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهـاجروا فيها ﴾ فكلما دخلت إلى موضع يُعْصَى فيه لم يهنئنى القرار فيه بقلب قـد أبهلته شدة محبته ، وهام بالشوق إلى رؤيته . فقال لها : صفى لى ! فقالت · يـا سبحان الله ! أنت عارف تتكلم بلسان المعرفة وتسـألنى ؟ فقال · يحق للسائل الجواب . فقـالت · نعم . المحبة عندى لها أول وآخر ، فأولها لهج القلب بذكر المحبوب ، والحزن الدائم ، والتشوق اللازم ، فإذا صاروا إلى أعلاها شغلهم وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات ، ثم أخذت فى الزفير والشهيق وأنشأت تقول ·

أحبـــــك حبين : حـــــب الهوى وحبـــــاً لأنك أهـل لـــذاكـــــا
فأمّـــا الـــذى هـــو حب الهوى فـذِكـرٌ شُغِلتُ بـــه عن ســواكـا
وأمّـــا الـــذى أنت أهلٌ لـــه فكشفُـك الحُجـب حتـى أراكـــــا
فما الحمـــــــــد فى ذا ولاذاك لى ولكـن لك الحمـــــد فى ذا وذاكـــا

★★★

وفى تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار : أن رابعة العدوية كانتها مريم ثانية ، صافية صفية ، مستورة مخدورة ، والهة بالعشق والشوق ، ومتحرقة إلى القرب ، وقد فنيت فى الوصال فصارت مقبولة من الرجال ، ومعدودة فى صفهم ، كما قال الأنبياء إن الله لا ينظر إلى صوركم . فليست العبرة بالصورة بل بالنية ، كما قال عليه السلام يحشر الناس على نياتهم ، فإذا كنا نأخذ عن عائشة الصدّيقة رضى الله عنها ثلث الدين ، فمن الجائز أن نتلقى عن إحدى خادماتها وهى رابعة العدوية . فالمرأة التى تسلك الطريق إلى الله كالرجل لا يمكن أن ننظر إليها كامرأة ، وقد قيل إننا يوم القيامة إذا دعينا يا رجل فأول المتقدمين سيكون مريم عليها السلام . ورابعة كان الحسن البصرى إذا لم يرها فى المجلس حاضرة تركه ، ومعنى ذلك أن المرأة كالرجل فى التأله ، ولا تفريق فى التصوف بين المرأة والرجل ، وفى توحيد الله ماذا يتبقى من الأنا والأنت ، وكما قال أبو على الفارمذى رضى الله عنه فإن النبوة عين العزة والرفعة ، فليس فيها سمو ولا انحطاط ، والولاية كذلك . وكانت رابعة فريدة فى تعاملها مع الله ، وفى معرفتها ، وهى من كبار صوفية زمانها ، وحجة عند معاصريها ، وفى الليلة التى ولدت لم يكن من شىء فى بيت أهلها ، فأبوها فقير ، ولم يكن فى البيت قطرة سمن يدهنوا بها موضع خلاصها ، ولا ما يستنيروا به ، ولا قطعة قماش يلفون بها الوليدة ، وكانت للأب ثلاث بنات ، فسميت رابعة ، لأنها رابعتهن . وسألته زوجته أن يذهب إلى الجيران فى طلب نقطة زيت لإضاءة المصباح ، ولكنه كان قد عاهد نفسه ألا يسأل الناس شيئًا ، ولو طَلَبَ لأعطوه ومع ذلك ذهب إلى الجارة ودق الباب ، وعاد يقول إنهم لم يفتحوا له ، وبكت امرأته ، ونام الرجل فرأى الرسول ﷺ فى منامه يقول له أن لا يحزن ، فهذه البنت الوليدة هى سيدة ، وأن سبعين ألفا من أمته ليرجون شفاعتها ، وأمره أن يذهب فى الغد إلى أمير البصرة عيسى زاذان ، ويكتب له ورقة يقول له فيها إنه يصلى مائة صلاة فى اليوم وأربعمائة صلاة يوم الجمعة ، إلا أنه نسى الله فى الجمعة الفائتة وعليه أن يكفر عن ذلك بأربعمائة دينار من ماله الحلال يدفعها لكاتب هذه الورقة ، وعندما استيقظ أبو رابعة كتب الرسالة وأعطاها للحاجب يوصلها للأمير ، وقرأها الأمير فأمر بأن يُصَرف لكاتب الرسالة الأربعمائة دينار بالإضافة إلى ألف أخرى يقسمونها على الصوفية وأمر الحاجب أن يحضر له من أعطاه الورقة ليراه ، ولكنه استدرك وقال بل إنه هو الذى سيذهب إليه بنفسه ، لعل الله يغفر له ، وسأل الرجل أن يطلب منه أى شىء وكل ما يلزمه .

To: www.al-mostafa.com

وكبرت رابعة ، وتوفت الأم ثم الأب وحدثت مجاعة فى البصرة فتمزق شمل الأسرة وتفرقت أخواتها ، وخرجت رابعة تهيم على وجهها ، حتى رآها من سولت له نفسه أن يأسرها ويبيعها بستة دراهم إلى شخص أخذها إلى بيته خادمة ، وأثقل عليها العمل ، وخرجت يومًا تقضى مصلحة ، فتبعها رجل فخافت وهربت ، وضلت الطريق فارتمت على الأرض تبكى وتناجى ربها أنها يتيمة وأسيرة ، وأنها تائهة ، فهل كان ذلك لأن الله غير راض عنها وهتف بها هاتف من أعماقها لا تحزنى لأنه فى يوم الحساب فإن المقربين سينظرون إليك ويحسدونك على ما أنت فيه ، وأثلج صدرها أن تسمع ذلك ، فسعت إلى بيت سيدها وصارت تصوم وتخدم سيدها وتصلى لربها وتقوم الليل ، وفى ليلة استيقظ سيدها يقضى حاجة فنظر حيث رابعة فوجدها ساجدة ، وسمعها تقول يا رب ! لكم يتمنى قلبى طاعتك وأن أبذل عمرى متعبدة لك ، ولو كان أمرى بيدى لما توقفت عن هذه العبادة ، ولكن أمرى بيد سيدى ! ورآها سيدها وكأن هالة من النور تحيط برأسها وهى ساجدة تصلى وتضرع إلى الله وقد ملأ النور البيت كله فتعجب وعاد مهمومًا إلى حجرته يفكر فى أمر رابعة حتى طلع النهار فنادى عليها وتحدث إليها وأعتقها وسألها أن تبقى فى بيته لو شاءت وسيكون الجميع فى خدمتها ، وأن تنطلق حرة إذا رغبت ومتى شاءت ، وودعت رابعة أهل البيت ورحلت وانقطعت للعبادة كما كانت ترجو . وقيل إن رابعة كانت تصلى كل يوم وليلة ألف ركعة وأنها كانت من المواظبين على حضور مجالس **الحسن البصرى** ، وقيل فى رواية أخرى أنها كانت تعزف على الناى وظلت على ذلك لفترة ، ثم تابت وبنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة . ويروى عنها أنها ذهبت للحج وكان لها حمار يحمل متاعها فتفوق ، وتطوع من كانوا معها من القافلة أن يحملوا المتاع على دوابهم ، ولكن رابعة قالت إنها لما نوت الحج لم يكن اعتمادها عليهم بل على الله ، فرحلوا وتركوها ، فقالت تناجى ربها : أهكذا يفعل الملوك بالمستضعفين من عبيدهم ؟ وهل من الممكن أن يسمح الله تعالى بأن ينفق حمارها ويتركها الجميع وحيدة فى الصحراء ، وما كادت تنتهى من كلامها حتى نهض الحمار حيًا يسعى فوضعت عليه متاعها وسارت فى طريقها لتلحق بالقافلة . وقيل إنها فى حجة أخرى كانت وحدها فى الصحراء وقد أصابها الإعياء فتوجهت بنظرها إلى السماء وقالت : يا رب أنا لبنة والكعبة حجر ! وما أردت من حجتى أن أرى الكعبة وإنما لأشاهد

وجهك ! فهتف بها هاتف أن ما تطلبه لستحيل وقد سبقها إلى ذلك موسى ،، فلما تجلى الله للجبل جعله دكًا وخرّ موسى صعقًا ، وقيل أيضًا أن رابعة فى مرة أخرى انتوت الحج وهّمت به ، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء فقالت رابعة لا أريد الكعبة ولكن رب الكعبة ! أما الكعبة فماذا أفعل بها : ورفضت النظر إليها !

وكان **إبراهيم بن أدهم** قد قضى أربعين سنة فى طريقه إلى الكعبة لأنه كان يصلى ركعتين كلما خطى خطوة . وكان يقول غيرى يسافر على قدميه وأنا أسافر على رأسى ! وبعد أربعين سنة عندما بلغ الكعبة لم يجدها فى مكانها فبكى ، وظن أن العمى قد لحقه فلم ير الكعبة فى مكانها ، وإذا بهاتف يهتف به أنه لم يصب بالعمى كما ظن ، وإنما الكعبة قد انتقلت إلى رابعة لملاقاتها ، وتأثر إبراهيم ، ثم رأى الكعبة تعود إلى مكانها ، ورأى رابعة قادمة مستندة إلى عصاها ، فقال لها . يا رابعة ! ما هذه الضجة التى صنعتيها لنفسك ! فالكل يقول إن الكعبة ذهبت للقاء رابعة ! وأجابته . وما هذه الضجة التى صنعتها لنفسك والكل يقول إبراهيم أمضى أربعين سنة حتى بلغ الكعبة ، لأن إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلى ركعتين ! فقال إبراهيم · نعم أمضيتُ أربعين سنة أشق طريقى فى تلك الصحراء ! وعلّقت رابعة · نعم يا إبراهيم ! أنت جئتَ بالصلاة وأنا جئت بالفقر ! وبكت . ولما زارت الكعبة عادت أدراجها إلى البصرة ، وخطر لها أن حجها ربما لم يكن صحيحًا ، فصاحت : يا رب ! وعدت بجزائين لشيئين ، للقيام بالحج ، والصبر على المصائب فإن لم يكن حجى مقبولاً عندك فما أكبر مصيبة ذلك عندى ! لكن ما جزائى على هذه المصيبة ؟

وفى السنة التى بعدها قالت : إذا كانت الكعبة قد أقبلت إلىّ فى العام الماضى فأنا التى سوف أقبل عليها هذا العام . وروى الشيخ **أبو على الفارمذى** أن رابعة فى موسم الحج قصدت إلى ناحية الصحراء وهى لا تستطيع المشى ، فما كان منها إلا أن رقدت على جانبها وأخذت تتقلب وتقطع المسافة على هذا الحال إلى أن بلغت الكعبة، وقيل بلغتها بعد سبعة أعوام . فلما بلغتها هتف بها هاتف من أعماقها أن يا رابعة ! ما الذى تقصدين إليه ؟ إن كنت تريدين الله فسيتجلى لك وعندئذ تذوبين كما يذوب الماء ! فقالت : يا رب ! وهل أقوى على ذلك وليست لى الطاقة لبلوغ هذه المرتبة وإنما لا أطلب إلا ذرة من الفقر الروحى ! فهتف بها

الهاتف يا رابعة ! الفقر رجاء الأولياء الذين يخافون الله ، وقد يحدث ولم يبق عليهم إلا شعرة ليبلغوا إلينا أن يفسد أمرهم ولا يصلون ، أما أنت فلازلت محجوبة بسبعين حجاب، فطالما لم تخرجي منها ولم تضعي قدمك بعد على الطريق إلينا فإنك لن تستطيعي الكلام في الفقر . يا رابعة ! انظري إلى أعلى ! ونظرت رابعة فرأت بحرًا من الدم ، وقال الصوت : يا رابعة ! إن هذا البحر من دموع الدم المسفوحة من عيون من أحبونا وسعوا إلينا ، ومنذ المقام الأول انتهى أمرهم حتى لم يعد منهم أثر لا في الدنيا ولا في الآخرة ! وصاحت رابعة : يا رب ! أطلعني على بعض ما ينالـه هؤلاء العشاق لك من السعادة ! وما أن انتهت من كلماتها إلا وجاءها الحيض ، وزالت عنها الطهارة ، ومع ذلك هتف بها الهاتف : إن المرتبة الأولى التي يبلغها العشاق هي لأمثال من تقلب على أضلاعه سبع سنوات كي يزور بيتًا من الحجارة ، ولما اقترب من البيت حيل بينه والوصول لشيء من نفسه ! وكادت رابعة تيأس ونادت : يا رب ! أنت لا تتركني لحالي في بيتي ولا تريد أن تقبلني في بيتك ! فإما أن أعود أدراجي إلى البصرة حيث بيتي ، وإما أن تقبلني في بيتك ! ولقد بحثتُ عنك قبل أن أدخله، ولكن يبدو أني لا أستحق دخوله فلم تأذنْ لي بمشاهدتك ، فلتأذن لي إذن بالانصراف ! وعادت رابعة إلى البصرة من غير أن تحج وأقامت في خلوتها منقطعة للعبادة ولم تفكر مرة أخرى في السفر إلى الكعبة .

ويروى أنها كانت يومـاً في بيتها وجاءها صالحان يزورانها ولم يكن لديها سوى رغيفين همّت بأن تقدمهما لهما ، إلا أن سائلاً طرق الباب فأعطته الرغيفين ، وتملّك الصالحين العجب ، وإذا بخادمة تطرق الباب وتقدم لرابعة صُرّة تفتحها لها وتقول تفضلي مع تحيات سيدتي ، وأخرجت رابعة منها ارغفة أحصتها فوجدتها ثمانية عشر ، فأعادتها للخادمة وطلبت منها أن تقول لسيدتها أنها أخطأت العدّ ، وذهبت الخادمة وعادت بالأرغفة ، فأحصتها رابعة ووجدتها عشرين ، وسألها الصالحان عن القصة ، فذكرت لهما أنها لمّا أعطت السائل رغيفين قالت: يا رب ! أنت قلت الحسنة بعشرة أمثالها ، وأنا من أجلك أعطيت الرغيفين فاعطني عشرة عن كل واحد ! فلما حضرت الخادمة بالثمانية عشر رغيفًا قالت: إما أن أحدهم أنقص العدد رغيفين ، وإما أن هذه الارغفة ليست لي ، وردتُها ، فلما عادت الخادمة بالعشرين عرفت أنها لي .

وحدث فى إحدى الليالى وكانت رابعة فى تهجدها أن دخلت قصبة فى عينيها دون أن تحس بها ، فقد كانت مستغرقة فى تعبّدها بحكم إخلاصها لله ومحبتها الشديدة له وقد استحكمت فى قلبها . ويحكى عنها أيضاً أن لصاً دخل بيتها وسرق بعض ملابسها ، وسعى إلى الباب يريد الخروج فلم يجده ، فوضع الملابس فوجد الباب ، فأخذهم فَضَلَ عنه الباب ، وفعل ذلك سبع مرات ، فكلما أخذ الملابس ضلّ الباب ، فإذا أعادها وجده ، وسمع من يقول له : أيها اللص ! لا فائدة من محاولة الخروج بالملابس ، فرابعة قد أوكلت أمرها إلى الله فلا نسمح لأحد بالدخول إليها حتى إبليس نفسه ! وأنت تريد سرقتها ونحن موكلون بالسهر عليها فى نومها !

ويروى عنها أيضًا أن خادمتها كانت تطبخ طعامها بالزيت ولم يكن لديها بصل ، فاستأذنتها أن تسأل جارتهم بعض البصل ، ولكن رابعة قالت لها أنها قد عاهدت الله أن لا تسأل أحداً شيئًا غيره منذ اربعين سنة ، فإذا لم يكن هناك بصل فلا لزوم له . وما كادت تنتهى من كلامها إلا وطائر يحمل بصلاً فى منقاره ، عبارة عن قطع صغيرة يلقيها تباعًا فى المقلاة ، ولم تغتر رابعة بما رأت ، ولم تتناول من هذا الطعام واكتفت بالخبز ، وقالت : ربما كان ما رأيته من خداع الشيطان .

ويروى عنها أيضًا أنها صعدت جبلاً فأقبلت الغزلان تطوف بها ولا تستشعر الخوف منها ، وجاء **الحسن البصرى** فما أن رأته الغزلان حتى فرت هاربة ، فقال لها : يا رابعة ! أرى أن الغزلان فرّت لما رأتنى ولم تفر منك أنت . فسألته رابعة عما تناول من طعام قبل حضوره فقال : إنه تناول طعام بالزيت ، فقالت رابعة : وكيف تريد منها إذن أن لا تفر منك وأنت تأكل من دهنها !

وفى رواية أخرى **لفريد الدين العطار** أن **الحسن البصرى** خرج إلى رابعة فى الصحراء وقد أحاط بها سرب من الحيوان من الغزلان وغيرها ، فما كادت ترى الحسن مقبلاً حتى فرّت من حولها ،فلما شاهد الحسن ذلك وفهمه استشعر الغيرة مما بلغته رابعة فسألها عن سبب فرارها وعما إذا كانت لم تره أهلاً لها مثلها . واستفسرت رابعة منه عما أكل قبل قدومه فقال كان عندى بصل قديم وقليل من الدهن ، فأردت أن أتقوى ببعض ذلك وهو ما

أكلتـه قبل قـدومى . وعنـدئذ صـاحت رابعـة أكلت من دهن هـذا القطيع المسكين فكيف لا تريدها أن تفـر منك ؟ ! لو كنت إنسانًا خفيف الزاد كالنملـة لما نال منك الدود فى قبرك . ولو كنت لا تأكل فى اليـوم إلا ثمرة واحدة لسلم جسمك فى القبر من الـدود فهل تريـد أن تكون طعـام الدود ؟ إن الثمـرة الواحـدة أفضل لك من أن تجعل نفسك هدف الـدود ليسمن على حسابك . ولكنك صاحب مطبخ ومرحاض ، وتـريد أن تملأ معدتك ، وما أرى إلا أنك تنوى أن تعين الدود فى طعـامه وشرابه ! وإن لم تتخلص من ذلك فلن يكون مـآلك إلا الجحيم بعد الجحيم ، بذهـابك من المطبخ إلى المرحاض . أنت لا تصبر على الطعام وتتصـور أنك بالأكل ربحـان ! ورغم مـا قيل لك من أن تطهـر روحك فأنـت مُصر على تسمين جسـدك ! فلتكن لباطنك عليك حـرمة ، فما أرى إلا أن تعبدك فى الظاهـر فقط . لقد قال رجل أضـاء الروح فى نفسه إذا أكلت لقمة فاجلس واضرب جسدك !

ويروى ايضًا أن **الحسن البصرى** رآهـا يومًـا جالسـة على شاطىء الفـرات ، فنشر سجادته على الماء وطلب إليها أن تعبر إليه ليصليا . وتعجبت منه رابعة وقالت : شطارة أهل الدنيا تـريد أن تظهرها لأهل الآخـرة ! لو كنت تريد أن تظهر بشـىء فأظهر ما لا يستطيع النـاس فعله ! ثم ألقـت سجادتها فى الهواء وطلبت إليـه الصعـود إليها حيـث الأمان أكثـر والعيون لا ترى عجيب فعلها ! وأردفت تريد التخفيف عليه : يا سيدى ! ما فعلته أنت يفعله السمك ! وما فعلتـه أنا يفعله الـذباب ! والمهم أن نبلغ درجة أعلى من هـاتين الدرجتين اللتين بلغناهما أنا وأنت !

ويروى عن **الحسن البصرى** أنه قال أنـه بقى ليلة ويوماً فى ضيافة رابعـة يتناقشان وقـد أنستهما حرارة النقـاش أنهما رجل وامـرأة ، ولما انتهيا شَعُـر الحسن أنـه لم يكن فى نقاشه إلا فقيرًا بينما كانت هى غنية بإخلاصـها .

وفى مرة أخرى توجه **الحسن البصرى** وبعض أصحابه إلى رابعة وكـان الوقت ليلاً ، فاحتاجـوا إلى مصباح وعندئذ وضعت رابعة إصبعها فى فمهـا ثم أخرجته فظل يضىء لهم مثل النور حتى مطلـع الفجر . وإن تشكك أحد فى هـذه الكرامـة فليعلم أن يد **موسى** عليه السلام كـانت تضىء بالنـور . وإن قيل إن **موسى** عليه السلام كـان نبيًا ورابعـة ليست

كذلك ، فالجواب أن من يقوم بأوامر الله على لسان أنبيائه إنما يشارك فى قدرتهم على تحقيق المعجزات وإذا كانت للأنبياء معجزات فللأولياء كرامات ، وهى حقيقة أكدها رسول الله ﷺ حين قال : « من رد دانقًا من الحرام فقد نال درجة النبوة » .

ويروى أن رابعة أرسلت يوماً إلى الحسن البصرى ثلاثة أشياء : قطعة شمع ، وإبرة ، وشعرة ، وطلبت إليه أن يشتعل كالشمعة فيضىء للناس ، وأن يبدأ بالتجرد ثم يعمل كالإبرة ، فإن فعل ذلك فإن مآله أن يصير نحيلاً كالشعرة . وتلك نصيحتها له إن أراد ألا يذهب جهده سدى .

ولما سألها الحسن البصرى أن تتزوجه ردّت عليه بأن الزواج ضرورى لمن يكون له الخيار فى أمر نفسه ، وهى لا خيار لها فى نفسها ، فهى لربها ، وفى ظل أوامره ، ولا قيمة لشخصها . وسألها الحسن كيف بلغت هذه الدرجة فأجابت بفنائى بالكلية . وطلب إليها أن تخبره بشىء مما الهمته ، فحكت أنها ذهبت إلى السوق تبيع الحبال فباعتها بمثقالين من ذهب لتحصل على الطعام ، فجعلت قطعة فى كل يد لأنها لو أمسكت بهما معًا فى يد واحدة فربما تطمع وتضل الطريق القويم . وقال لها الحسن أيضاً . لو أنى كنت فى الجنة بعيدًا من وجه الله مقدار نَفَس لبكيت إلى درجة تُشفق علىّ الآخرين . وردت رابعة بأن من يهمل فى الدنيا أو يسبح بحمد الله وهو يبكى ، فذلك هو نفسه ما سيكون عليه حاله فى الآخرة .

وسُئلت رابعة لماذا لا تتزوجين ؟ فقالت . إنها مهمومة بثلاثة أشياء ، وأن من يخلصها من همومها تتزوجه . أولها . هل إذا مت أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهرًا ؟ والثانى . هل سأُعطَى كتابى بيمينى يوم القيامة ؟ والثالث : إذا كنت يوم البعث وسيق أصحاب الميمنة إلى الجنة ، وأصحاب المشأمة إلى النار ، فمن أى الفريقين سأكون ؟ ورد عليها الجميع لا نعرف جوابًا لما تسألين عنه . فقالت : والأمر كذلك ، وأنا مهمومة بما ذكرت، فكيف تريدونى أن أتزوج وأتفرغ للزوج ؟

وسُئلت رابعة من أين أنت ؟ فقالت من العالم الآخر ! وإلى أين تذهبين ؟ فقالت : إلى العالم الآخر ! وماذا تفعلين فى هذه الدنيا ؟ فقالت : أعيث بها .!وكيف تعيشين بها ؟ فقالت : آكل خبزها وأعمل عمل الآخرة !

وقيل لها كذلك أنها بارعة فى الكلام فهلاّ عملتْ حارسة لرباط ؟ فأجابت : إنها فعلاً حارسة رباط ، فهى لا تترك شيئًا من خارجها يدخل إلى داخلها ، ولا شيئًا من داخلها يخرج إلى خارجها . ويسألونها فهل تحبين الله ؟ فقالت : نعم أحبه حقًا وصدقًا . فقالوا : والشيطان هل تكرهينه ؟ فردّت أن حبها لله قد منعها عن أن يشتغل قلبها بكراهية الشيطان .

ويروون أن رابعة رأت الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنام يسلّم عليها ، وسألها يا رابعة هل تحبيننى ؟ فأجابته مستفهمة وهل هناك من لا يحبك ؟ وقالت إنما حبى لله قد ملأ قلبى فليس منه مكان لأن أحب غيره أو أكرهه !

وقالوا لها : هل ترين من تتعبدين له ؟ فأجابت : لو لم أكن أراه لما عبدته . ويروون عنها أنها كانت تبكى باستمرار وفّسرت ذلك بخوفها من أن يقال لها فى آخر الأمر أنها لا تستحق أن تمَثُلَ فى الحَضْرة الإلهية . وسألوها : فهل تقبل توبة التائب ؟ قالت : إن الله إن لم يَمُنّ عليه بالتوبة فلن يتوب ، فإذا تاب عليه فمعنى ذلك أن توبته مقبولة . ومن أقوالها أن المقامات فى الطريق إلى الله يعسر التمييز بينها بيقظة القلب ، فإذا استيقظ القلب رأيت بعيونه الطريق ، واستطعت أن تصل إلى ما تنشد من مقامات . وقالت : من فوائد العلم الروحانى أنه يصرف قلبك عن المخلوق إلى الخالق ، لأن المعرفة هى المعرفة بالله .

ويروى عنها أنها رأت رجلاً قد عصب رأسه فسألته عن ذلك ، فردّ عليها بأنها توجعه . فسألته عن عمره فقال : عمرى ثلاثون سنة ، فسألته : وخلال ذلك هل كنت غالبًا مريض أو مُعاف ؟ فقال مُعاف . فقالت : فهل كنت تعصب رأسك وأنت معاف علامة نعمة العافية عليك حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب وجع يوم وتعصب رأسك هكذا ؟!

وقيل إن رابعة كانت تعتزل الناس فى الصيف وتلزم بيتها لا تفارقه ، وعاتبتها خادمتها وطلبت إليها أن تخرج لتشهد قدرة الله فى خلقه ، فأجابتها بلا أدخلى أنت واشهدى القدرة نفسها . إن عملى أن أشاهد هذه القدرة .

وقيل إن رابعة صامت فى إحدى المرات سبع ليالى وسبعة أيام على التوالى ، فلم تكن تاكل شيئاً ولا تنام فى الليل ، وانقطعت للعبادة وفى الليلة الثامنة وقد شق عليها قالت فى نفسها إلى متى هذا العذاب ! فسمعت لتوها صوت الباب ، فلما فتحت ناولها أحدهم طعاماً فى صحن فاخذته ووضعته لتوقد المصباح ، فجاء قط وأكل ما فى الصحن ، وتبينت رابعة ما حدث ، فقالت أفطر على حبة ماء ، وذهبت لتحصيل الماء ، فانطفأ المصباح وسقطت جرة الماء من يدها ، فصرخت يا رب ! ماذا تريد بهذه المسكينة ! فسمعت هاتفاً يقول لها : يا رابعة ! لو شئت أعطيناك الدنيا ، ولكن فى المقابل ينبغى أن تنزعى من قلبك حبك لله ، لأن الحب لله وللدنيا لا يجتمعان ! وتقول رابعة : فعندما سمعت ذلك نزعت عن قلبى كل حب للدنيا وللدنيويات ، ومضت لى الآن ثلاثون سنة لم أصل فيها لله دون أن أردد على نفسى أن صلاتى هذه هى آخر صلاة لى ، ولم اتوقف للحظة طوال ذلك ان أدعو الله أن يغرقنى فى حبه ، فلا يشتغل قلبى بحب آخر خلاف حبه .

وفى رواية ثانية **لفريد الدين العطار** : أن رابعة رغم أنها كانت صاحبة مقام وواصلة ، فقد كانت طوال الأسبوع لا تنقطع عن الصيام والصلاة ، حتى إذا اشتد بها الضعف وخذلتها ساقها واشتدت بها أوجاع جسدها ، اضطرت إلى تناول شىء من الطعام والشراب وفى إحدى المرات وكانت آلامها مضاعفة وفى قلبها حسرات ، أوقدت المصباح فجاءت قطة وقلبت الطعام ، فذهبت رابعة تشرب من الكوز فوقع من يدها ، فناحت من قلبها واشتعل كبدها الظمآن ، واحتّرت واستشعرت كأن الدنيا مشبوبة بالنار ، ومادت بها الأرض ودارت رأسها وصاحت. يا رب ! ما هذا ! وماذا يُراد بى ؟ وجاءها الجواب لو شئت يا رابعة أن يأتيك الرزق معلومًا لكان لك ذلك ، إلا أنه فى المقابل لن تستشعرى الحزن الذى اختزنتيه فى قلبك كل هذه السنين ، ففكرى لأن الاشتغال بى وبالدنيا لا يجتمعان فى صدر واحد ، فإن تعلقت بى فاتركى التعلق بالدنيا بالكلية ، ولن يكون عشقك لى خالصاً حتى تتخلصى من إقبالك على الدنيا، ولن تأتيك محبتى دون مقابل!

وكانت رابعة كثيرة البكاء والنواح وما من سبب لذلك من ألم أو وجع . وسألوها عن ذلك فقالت : إن علّتها التى تتوجع منها ما من دواء لها سوى مشاهدة الله تعالى . وأن ما يعينها على احتمال علّتها إنما هو رجاؤها فى أن يتحقق لها ذلك فى الآخرة .

وكان زوارها من الصالحين كثيرين ، وسألت مرة بعضهم عن سبب عبادته الله فقال أحدهم : إننا نعبده خوفًا من النار . وقال آخر : بل نعبده خوفًا من النار وطمعًا فى الجنة . وقالت رابعة : ما أسوأ أن يعبد العابد الله رجاء الجنة أو مخافة النار ! وتساءلت: إذا لم تكن هناك جنة ولا نار ، أفما كان الله يستحق العبادة ؟ وسألوها : فلماذا تعبدين أنت الله ؟ فقالت . إنما أعبده لذاته. أفلا يكفينى إنعامه علىّ بأنه أمرنى أن أعبده ؟

وذهب بعض الصالحين لزيارتها ، وشقّ عليهم أن يروها فى ثياب بالية ، فعاتبوها بدعوى أن ما عليها إلا أن تطلب العون وسيقدمون لها ما تريد ، فقالت . إنها لتخجل أن تسأل الناس من متاع الدنيا لأنهم لا يملكونها ، وإنما هى عارية فى أيديهم ! واستحسنوا ما هداها الله إليه من جواب وسألوها : كيف تحققت لك هذه المرتبة الرفيعة وهى المرأة ولم يسبق أن بلغت امرأة مثل ذلك من قبلها ؟ فكان جوابها أنها لم تغتر لذلك ، ولم تتكبر ، ولم تدع الألوهية ، وذلك شأن النساء العابدات عمومًا .

ومرضت رابعة يومًا فسألوها عن ذلك فقالت كنت فى الفجر ، فاشتقت أن أرى الجنة ، فأصابنى الله المحنة لأتبين من أنا فلا تشتط بى الأشواق . ويروى الحسن البصرى عنها أنه ذهب يعودها يومًا فرأى قبل أن يدخل إليها تاجرًا وقد جلس يبكى ، فلما سأله عما يبكيه قال إنه جاء ليعطى رابعة هذا الكيس من الذهب ولكنه يخشى أن ترده عليه ، ورجاه أن يتوسط له عندها فى ذلك . ودخل الحسن عليها وقال لها مقالته ، فما كاد ينتهى منها إلا ونظرت إليه بجنب عينيها وذكّرته بأن الله الذى يرزق من يسبّه ، ألا يرزق من يحبه ؟ وقالت له إنه منذ أن عرفت الله لم تتوجه إلا له ، فكيف لها أن تقبل مالاً من رجل لا تعلم إن كان هو حصّله من طريق الحلال أم الحرام ؟ وروت له أنها فى يوم من الأيام وضعت فى مصباحها بعضاً من الزيت من بيت السلطان ، ورَفَت على ضوئه أمزاق ثيابها ، فاغتمّت وأظلمت أيامها ، ولم ينّور الله عليها إلا عندما أعادت الأمزاق إلى ثيابها التى رَفَتْها فى نورٍ غير نور الله . وطلبت من الحسن أن يذهب إلى التاجر ويعتذر له عن قبول المال .

وانهار بيتها واشتراه منها أحد التجار بألف درهم ذهب ، وبيت كانت حوائطه تزينها التصاوير ، فظلت تتأملها لفترة وقد استغرقتها أعاجيبها ، فلم تتمالك إلا أن هتفت بالتاجر

تعيد له دراهمه والبيت ، معتذرة بأن قلبها قد يتعلق بما فيه فلا تستطيع من بعد أن تشغل نفسها بعمل الآخرة فهي قد نذرت نفسها لعبادة الله ، وكل ما ترجوه هو أن تتفرغ تماماً لذلك .

وزارها **عبد الواحد بن زيد وسفيان الثورى** يومًا ، فأصابهما الحزن لما وجداها فيه من أوجاع ، وطلب إليها سفيان أن تدعو ربها يخفف عنها ، فسألته يا سفيان : فمن رزقنى بهذه الأوجاع ؟ فأجاب بأنه الله . فقالت : فإذا كانت هذه هى مشيئته فكيف أتوجع إليه وأشكو ضد إرادته ! وسألها سفيان مرة عما يتمناه قلبها ، فأجابته متسائلة : كيف تسنى لك وأنت عارف أن تسأل عن ذلك ! يعلم الله عنى أنى أتمنى البلح منذ اثنتى عشرة سنة ، وهو فاكهة ليست نادرة بالبصرة ، ومع ذلك لم أطعمه حتى اليوم ، لأنى لست إلا واحدة من عباد الله ، ولا أتصرف كما يتمنى قلبى لأنى لو أردت ولم يرد الله فما جدوى ذلك ؟ وسألها سفيان أن تحدثه عما تراه فيه ما دام هو لا يستطيع أن يحدثها عن نفسها ، فقالت له . أنت على ما يرام لولا أنك تميل لهذه الدنيا . وعندئذ بكى سفيان وتمنّى لو يرضى عنه ربه ، فأنّبته رابعة لتمنّيه أن يَرضَى عنه الله دون أن يفعل ما يرضى عنه به .

ويُروىَ أن **مالك بن دينار** ذهب إلى رابعة زائرًا ، فشاهدها تشرب من جرة مكسورة ، وفراشها مبسوط على الأرض ، وقد اتخذت لها وسادة من اللَبِن ، فقال لها محسورًا أن له معارف أغنياء، ويمكنه أن يسألهم شيئًا لها ، فعاتبته لما قال ، وذكّرته بأن الله هو الذى يرزقها ويرزقهم . أمّن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ وإذا كانت هذه إرادته فَ فليس بوسعى إلا أن أرضى بما حكم .

وقيل إن **مالك بن دينار والحسن البصرى وشقيق البلخي** ذهبوا لزيارة رابعة ، فكان حديثهم حول الإخلاص ، فقال الحسن إن من لم يصبر على ضرب مولاه ليس بصادق فى دعواه ، فاستدركت رابعة عليه وقالت· هذا غرور . وقال شقيق البلخى. إن مَن لم يشكر على ضرب مولاه هو الذى ليس صادقًا . واستدركته رابعة وقالت . هناك من هو أفضل من ذلك . فقال مالك : إن من لم يتلذذ بضرب مولاه هو غير صادق . وهتفت رابعة : هناك أيضًا من هو أفضل من ذلك . فسألوها عن ذلك فقالت : ليس بصادق فى دعواه من لم ينس

الضرب فى مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائى لم يلحظن أيديهن تقطع عندما رأين وجه يوسف !

وزارها أحد العلماء وأخذ يتحدث عن شرور الدنيا ، فقالت له رابعة إنه لابد يحبها لأن من يحب شيئًا يكثر من ذكره ، ومن يريد لمن يشترى ثيابًا فإنه لابد أن يكثر من الحديث فى الثياب ، وأنهلو تجرد حقًا من كل ما يتصل بالدنيا لم يكن ليهتم منها لخيراتها أو شرورها .

وقيل إن الحسن البصرى ذهب إليها يومًا عند صلاة الظهر ، فتحدثا عن المعرفة بالله ، وكانت قد وضعت على النار قِدرًا فيه شيء من اللحم ، واستحسنت رابعة الحديث على أن تلتفت لطهو اللحم ، ولم تزل النفخ فى النار ، وجاءت صلاة المغرب ثم صلاة العشاء ، ولما فرغا منها ذهبت رابعة تحضر ماء وخبزًا جافًا ، وأفرغت ما فى القدر فكان اللحم قد طهى بقدرة الله . ويقول الحسن : فأكلت وكان للأكل طعم لم أتذوق مثله .

ويحكى سفيان الثورى أنه كان عند رابعة ذات ليلة فصلت حتى انبلج الفجر ، وصلى هو كذلك ، وفى الصباح وجدها تدعوه لصيام اليوم شكرًا لله على ما هيأ لهما من الصلوات تلك الليلة . ويحكى سفيان أنها كانت تنادى ربها ملهوفة أنه لو بعث بها إلى النار لأذاعت سرًا يباعد بينها وبين النار بألف عام . وكانت تقول يا رب ! كل ما كتبته لى من خير فى الدنيا فأعطه لأعدائك ، وكل ما كتبته لى فى الجنة فامنحه لأصدقائك ! إنى لم أطلب إلا وجهك ! وكانت تقول : يا رب ! لو كنت أعبدك مخافة النار فاحرقنى بها ! ولو كنت أطمع فى الجنة فلتحرمنى منها ! وإن كنت لا أعبدك إلا لوجهك فلا تحرمنى مشاهدته !

ويروى أنها قالت يا رب لو أرسلتنى إلى النار يوم القيامة فسأصرخ مولولة يا رب ! يا من أحببته كل هذا الحب ! هل ذلك ما تعامل به أحباءك ؟ ! ويروى أن هاتفًا هتف بها لاتظنى هذا الظن السوء بالله يا رابعة ، لأنه أعدّ لك بين المؤمنين مقاماً تستطيعين فيه أن تبوحى بأسراره . وكانت رابعة إذا صلّت سألت الله أن يصرف عنها الوساوس ، وأن يتقبل صلاتها مع ذلك إن خالطتها الوساوس .

وعندما قاربت الموت جلس حولها بعض الصالحين ، فطلبت منهم أن يتركوها لحالها ليفسحوا المكان لرسل الله . فلما خرجوا سمعوها تتلو الشهادة ، فلما لفظت أنفاسها تجمعوا حولها وغسّلوها وصلّوا عليها ودفنوها . ورؤيت في المنام فسئلت عن جوابها لمنكر ونكير ، فقالت إنهم أتياها وسألاها مَنْ ربك ، فطلبت إليهما أنَ يعودا أدراجهما إلى حضرة الله تعالى وينقلا عنها أنها لم تنس الله مرة حتى يبعث إليها بمنكر ونكير ويسألانها عن ذلك .

وزار **محمد بن أسلم الطوسي** ، **ونعمي الطرطوسي** قبر رابعة ، فسألاها عنده أين هي الآن وهي التي تباهي بأنها لم تنحن للدنيا ولا للآخرة ، وهتف هاتف من قبرها بأن ما هي فيه خير ، وأنها لم تفعل إلا ما كان ينبغي أن تفعله ، وأن الطريق الذي اتخذته هو الطريق الصحيح ، والله وحده أعلم .

★★★

وفي **دائرة المعارف للبستاني** أن رابعة هي **أم الخير بنت اسماعيل العدوية** ، البصرية مولاة آل عتيك ، الصالحة المشهورة بالعبادة والتقوى وكثرة الصلاة والصوم ، وكانت من أعيان أهل عصرها في ذلك ، قيل كانت تصلي الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فتنهض فزعة وتقول : يا نفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين ، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور ! وكان هذا دأبها حتى ماتت وكانت تقول في مناجاتها : إلهي ! أتحرق بالنار قلبًا يحبك ! قيل فسمعت مرة هاتفًا يقول : ما كنا لنفعل ذلك ! وكانت كثيرة البكاء والحزن ، وإذا سمعت ذكر النار غشي عليها زماناً . وكانت ترد كل ما يعطيها الناس وتقول : مالي بالدنيا حاجة ! وكان كفنها لم يزل موضوعًا أمامها ، وموضع سجودها كهيئة مستنقع لما يجري من دموعها ، وكانت تقول . ما ظهر من أعمالي فلا أعده شيئًا . وتقول : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم ! وكانت وفاتها سنة ١٨٥ هـ ، وقيل غير ذلك ، وعمرها فوق الثمانين ، وقبرها في رأس جبل طور شرقيّ القدس ويزار . ذكرها **ابن خلكان والشعراني** وغيرهما من الأئمة وأوردوا لها عدة مناقب ، وفي بعض الروايات أنها تابت على يد **ذي النون المصري** وذلك أنها كانت في

سفينة مع جماعة يشربون الخمر ، فاتفق ركوب ذى النون تلك السفينة لغرض له فى بحر النيل ، فطلبت إليه رابعة على سبيل التهكم أن يسمعهم شيئاً من غنائه كما أسمعوه ، فأنشد :

أحسن من قينةٍ ومزمار ... فى عشق نغمه القارى

يا حسنه والجليد سمعُه ... بطيب صوتٍ ودمعه جارى

وخده فى التراب منعفرٌ ... وقلبه فى محبسة البارى

يقول ياسيدى وياسندى ... اشغلنى عنك ثقل أوزارى

وكانت بذلك توبة رابعة على يده . ولكن يظهر أن هذه القصة موضوعة لبعد العهد بين ذى النون ورابعة كما يُعرَف مِنْ تاريخ وفاتها .

★★★

وفى دائرة معارف القرن العشرين أن رابعة هى أم الخير بنت اسماعيل العدوية البصرية التقية المشهورة ، كانت من أكابر أهل عصرها . قال عندها سفيان الثورى : واحزناه ! فقالت : لا تكذب بل واقلة حزناه ، ولو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس ، وأورد لها السهروردى فى كتاب عوارف المعارف قولها :

وقد جعلتُ فى الفؤاد محدّثى ... وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وتوفيت سنة ١٣٥ هـ وقيل سنة ١٨٥ هـ .

★★★

وفى دائرة المعارف الحديثة : أن رابعة صوفية من القرن الثانى الهجرى ، وهى أم الخير بنت اسماعيل العدوية ، نسبة إلى قبيلة بنى عدى ، ولدت بالبصرة حوالى عام ٩٥

هـ ـ ٧١٣ م ، وكانت جارية وأُعتقت ثم انقطعت إلى العبادة بعد مرض بَرَأت منه ، فكانت تلبس الصوف الخشن وتصلى وتبتهل الليل كله ، ومن معاصريها بالبصرة **سفيان الثورى ، ومالك بن دينار** ، وتوفيت فى سن **الأربعين**.

★★★

وفى **دائرة المعارف الإسلامية** أنها : ولية متصوفة بصرية مشهورة ، وهى مولاة آل عتيك وهم قبيلة من قيس بن عدى تعرف أيضًا **بالقيسية** ، ولدت عام ٩٥ هـ (٧١٣/٧١٤ م) ، أو عام ٩٩ هـ ، وتوفيت بالبصرةودفنت فيها عام ١٨٥ هـ (٨٠١ م) . وقد سُجّلت لها أبيات من الشعر قليلة ، وذكرها معظم كتّاب الصوفية وأصحاب طبقات الأولياء . ولقد ولدت فى بيت فقير وأُسرت وهى بعد طفلة ، ثم بيعت ، بيد أن صلاحها أكسبها حريتها ، وانصرفت إلى الإنقطاع عن الدنيا وصدفت عن الزواج ، وأقامت أول أمرها فى البادية ، ثم انتقلت إلى البصرة حيث جمعت حولها كثيراً من المريدين والأصحاب الذين وفدوا عليها لحضور مجلسها وذكرها لله والاستماع إلى أقوالها ، وكان من بينهم **مالك بن دينار** ، والزاهد **رياح القيسى** والمحدّث **سفيان الثورى** ، والمتصوف **شقيق البلخى** . وكانت حياتها عكوفًا على الزهد وانقطاعاً عن أسباب الحياة الدنيا . وروى أنها لما سئلت لماذا لا تطلب من أصدقائها العون أجابت : إنى لأستحى الدنيا من يملكها فكيف اسألها من لا يملكها ؟ وقالت لصديق آخر : إن الله تعالى هو الذى يرزقنى ويرزقهم (أى الأغنياء) . أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا ! ونُسبت إلى رابعة كرامات شأنها فى ذلك شأن غيرها من أولياء المسلمين ، فقد كان الطعام يأتيها بوسائل خارقة فتُقرى به ضيوفها وتسد رمقها ، ونفق بعير لها وهى تقوم بفريضة الحج فرُدتْ له الحياة ليقوم بخدمتها ، ولم تكن فى حاجة إلى مصباح لأن النور كان يشع من حولها ، وقد روى أنه لمّا حضرتها الوفاة قالت لأصحابها . انهضوا واخرجوا ودعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى ! ـ فنهضوا جميعًا وخرجوا فلما أغلقوا الباب سمعوا رابعة وهى تقول الشهادة فأجابها صوت : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى ادخلى جنتى** ﴾ (سورة الفجر الآيات ٢٧ ـ ٣٠) . ورؤيت رابعة فى المنام فسئلت بماذا أجابت منكرًا ونكيرًا ، فقالت . أتانى منكر

ونكير فسألاني من ربك فأجبت . أيها الملكان ! إذهبا وقولا لحضرة الله تعالى أنت تأمر بسؤالي أنا المرأة العجوز بين هذا العدد من عبيدك ، أنا التي لم أعرف غيرك ؟ أفنسيتك مرة حتى تبعث إليّ بمنكر ونكير يسألانني ؟

ومن بين دعواتها دعاء اعتادت أن ترددده بالليل من فوق سقف لها . إلهي ! أنارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلّقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ،وهذا مقامي بين يديك ! ـ ومن دعواتها أيضًا . إلهي ! إذا كنت أعبدك خوفًا من نارك فاحرقني بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك ! ـ وقالت في التوبة ـ وهي أول مقامات الصوفية ـ مجيبةً من سألها : هل لو تبتُ يتوبُ عليّ ؟ فقالت لا ! بل لو تاب عليك لتبت ! ـ وكان من رأيها أن الشكر يكون على رؤية المنّان لا عن منته . ولما طُلب إليها في يوم من أيام الربيع أن تخرج لتتأمل آثار قدرة الله قالت لخادمتها : بل ادخلي أنت وتعالي تأملي القدرة في نفسها ، وأضافت « إن مهمتي أنا أن أتأمل القدرة ! ـ ولما قيل لرابعة ما تقولين في الجنة قالت الجار ثم الدار ! ـ وقد علّق الغزالي على ذلك بقوله : كل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة ،إذ ليس يُستَأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع (الإحياء الجزء الرابع ص ٢٦٩) ، ويظهرنا على انقطاعها عن الدنيا قولها لمن سألها من أين أتيت ؟ قالت : من العالم الاخر . وإلى أين تذهبين ؟ قالت : إلى العالم الآخر ! وماذا تفعلين في هذه الدنيا ؟ قالت : أعبث بها ! وكيف تعبثين بها ؟ قالت : آكل خبزها وأعمل عمل الآخرة ! ـ وقال أحدهم ساخرًا : إنك بارعة في الكلام أفلا تصلحين لحراسة رباط ؟ فقالت : إني حارسة رباط فعلاً ، لأني لم أدَعَ شيئًا يخرج مما في داخلي ، ولا أدع شيئًا يدخل مما هو خارج ، وأنا لا أحفل بما يدخل أو يخرج ، فأنا مشغولة بقلبي لا بمجرد الطين ! ـ ولما سئلت : وكيف بلغت هذا المقام من الولاية ؟ أجابت : بقولي ـ اللهّم إني أعوذ بك من كل ما يشغلني عنك ، ومن كل حائل يحول بيني وبينك !

واشتهرت رابعة بأقوالها في المحبة والأنس بالله ، وهو شُغل محبة الشاغل ، وكل محب صادق يبحث عن القرب من محبوبه . ومما أنشدت في ذلك هذين البيتين :

وإنـي جعلتك فى الفـــــؤاد محدّثـى وابحت جسمـى من أراد جلســـوسـى
فـــالجسم منى للجليس مـــؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفـــــؤاد أنيسـى

وأظهرت رابعة الحاجة إلى هذا الحب الشامل والعبادة العاكفة بوضعها النار فى يد والماء فى اليد الأخرى ، ثم أنشأت تقول : سأشعل النار فى الجنة ،وأسكب الماء فى النار ، حتى ينجاب الغشاء عن طريق السالكين إلى الله ، ويتبين مقصودهم ،ويشاهدون الله لا يحدوهم أمل ولا يفزعهم خوف. أفئن لم يكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحـد ولم يطيعـه أحـد ! (**الافلاكى : مناقب العارفين**) . ولما سئلت : كيف حبك للرسول ؟ قالت إني والله أحبه حبًا شديدًا ، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين ! ـ وقالت أيضًا : إن حبى لله لم يترك فى قلبى مكانًا لمحبة ما سوى الله ! ـ وقالت عن عبادتها لله والباعث عليها : ما عبدته خوفًا من النار ، ولا حبًا فى الجنة فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حباً لـه وشوقاً إليه ! ـ وأبياتها عن الحبيْن يبحث ـ أولهما عن هواه فحسب ، ويبحث ثانيهما عن ذات الله وجلاله ـ مشهورة يتردد ذكرها :

أحبـــك حبين : حـــب الهوى وحبـــاً لأنك أهـل لـــذاكـــا
فامّـــا الـــذى هـــو حب الهوى فـذِكـرٌ شُغِلتُ بـــه عن ســواكـا
وامّـــا الـــذى انت أهلٌ لـــه فكشفُك الحُجب حتـى اراكـــا
فما الحمـــــــد فى ذا ولاذاك لى ولكن لك الحمـــــد فى ذا وذاكـــا

ويعلق **الغزالى** على ذلك مرة أخرى بقوله : ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله ، لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب ، لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما (**الإحياء** الجزء الرابع ص ٢٦٧) . وكانت رابعة ـ كالصوفية جميعًا ـ تنشد الوصل ، وقالت فى بعض أبياتها إن أملها هو الوصل ، وهو غاية منيتها . وقالت أيضًا إنها انقطعت عن الوجود وانسلخت من نفسها واتصلت بالله وأصبحت كلها له !

ونخلص من هذا إلى أن رابعة تختلف عن متقدمي الصوفية الذين كانوا مجرد زهّاد ونسّاك ، وذلك أنها كانت صوفية بحق ، يدفعها حب قوى دفّاق ، وكانت واعية أن حياتها اتصلت بالله ، كما كانت من أوائل الصوفية الذين قالوا **بالحب الخالص** الذى لا تقيده رغبة سوى حب ذات الله وحده ، وكانت من أوائلهم أيضًا فى الجمع بين **الحب والكشف** (**المصادر** . أهمها **العطار** تذكرة الأولياء ، **وتاج الدين الحصنى** سير الصالحات ، **وذهنى** مشاهير النساء ، **وابن خلكان** وفيات الأعيان ، **والمناوى** الكواكب الدرية ، **والشعرانى** الطبقات الكبرى ، ونفحات الأنس . وأهم المراجع فى أقوالها **الغزالى** الإحياء الجزء الرابع ، **والكلاباذى** كتاب التعّرف ، **والقشيرى** الرسالة ، **والمكى** قوت القلوب ، والكتاب الوافى فى حياتها وبيان مصادرها **لمرجريت سميث** « رابعة الصوفية وأصحابها من الصالحين فى الإسلام Margaret Smith : Rabbia the Mystic and Her Fellow - Saints in Islam » .

★★★

وفى **وفيات الأعيان لابن خلكان** أنها : **أم الخير بنت اسماعيل العدوية البصرية** ، مولاة آل عتيك ، الصالحة المشهورة ، وكانت من أعيان عصرها وأخبارها فى الصلاح والعبادة مشهورة . وذكر **أبو القاسم القشيرى فى الرسالة** أنها كانت تقول فى مناجاتها : إلهى ! أتحرق بالنار قلبًا يحبك ؟ ـ فهتف بها مرة هاتف : ما كنا نفعل هذا فلا تظنى بنا ظن السوء ! ـ وقال عندها يومًا **سفيان الثورى** : واحزناه ! فقالت . لا تكذب ! بل قل واقلة حزناه لو كنت محزونًا لم يتهيأ لك أن تتنفس ! ـ وقال بعضهم : كنت أدعو لرابعة العدوية فرأيتها فى المنام تقول : هدايا ك تأتينا على أطباق من نور ، مخمرة بمناديل من نور ! ـ وكانت تقول : ما ظهر من أعمالى فلا أعده شيئًا ! ـ ومن وصاياها . اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم ! ـ وقالت لأبيها : يا أبتِ ! لست أجعلك فى حلّ من حرام تطعمنيه ! فقال لها : أرأيت إن لم أجد إلا حرامًا ؟ قالت : نصبر فى الدنيا على الجوع خيرٌ من أن نصبر فى الآخرة على النار ! ـ وكانت إذا جن عليها الليل قامت إلى سطح لها ثم نادت . إلهى ! هدأت الأصوات وسكنت الحركات وخلا كل حبيب بحبيبه ، وقد خلوت بك أيها المحبوب ، فاجعل خلوتى منك فى هذه الليلة عتقى من النار !

ولقى سفيان الثورى رابعة ـ وكانت زرية الحال ـ فقال لها : يا أم عمرو! ـ أرى حالا رثة فلو أتيت جارك فلاناً لغيرّ ما أرى . فقالت له : يا سفيان ! وما ترى من سوء حالى ؟ ألستُ على الإسلام ، وهو العز الذى لاذل معه ، والغنى الذى لا فقر معه ، والأنس الذى لا وحشة معه ! والله إنى لأستحي أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ فقام سفيان وهو يقول . ما سمعت مثل هذا الكلام . وقالت رابعة لسفيان : إنما أنت أيامٌ معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذَهَب بعضُك ، ويوشك إذا ذَهَب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل !

وكان أبو سفيان الهاشمي له بالبصرة كل يوم غلة ثمانين ألف درهم ، فبعث إلى علماء البصرة يستشيرهم فى امرأة يتزوجها ، فأجمعوا على رابعة العدوية ، فكتب إليها . أما بعد ... فإنّ ملكى من غلة الدنيا في كل يوم ثمانون ألف درهم ، وليس يمضى إلا قليل حتى أتمها مائة ألف إن شاء الله ، وأنا أخطبك لنفسى ، وقد بذلت لك من الصداق مائة ألف، وأنا مصيّر إليك من بعد أمثالها فأجيبينى . فكتبت إليه : أما بعد ... فإن الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحَزَن ، فإذا أتاك كتابى فهيء زادك وقدّم لمعادك ، وكن وصى نفسك ولا تجعل وصيتك إلى غيرك ، وصم دهرك واجعل الموت فطرك ، فما يسرنى أن الله خوّلنى أضعاف ما خوّلك ، فيشغلنى بك عنه طَرفة عين والسلام !

وقالت امرأة لرابعة إنى أحبك فى الله ، فقالت لها : أطيعى من أحببتنى له ! ، وكانت رابعة تقول : اللهم قد وهبت لك من ظلمنى فاستوهبني ممن ظلمته ! ـ وقال رجل لرابعة : إنى أحبك فى الله ، فقالت : فلا تعص الذى أحببتنى له ! ـ وأورد لها الشيخ شهاب الدين السهروردى فى كتابه عوارف المعارف :

وقد جعلتُك فى الفؤاد محدّثى ... وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وكانت وفاتها فى سنة خمس وثلاثين ومائة ، ذكره ابن الجوزى فى شذور العقود ،

وقال غيره سنة خمس وثمانين ومائة ، رحمها الله تعالى ، وقبرهـا يزار ، وهو بظاهر القدس من شرقيّه على رأس جبل يسمى الطور .

وذكر **ابن الجوزى** فى كتاب **صفة الصفوة** فى تـرجمة رابعة المذكـورة ، بإسناد لـه متصل إلى **عبدة بنت أبى شوال** ـ قال **ابن الجوزى** : وكانت من خيـار إماء اللـه تعالى يقصد عبدة بنت أبى شوال ، وكانت تخدم رابعة ، قالت : كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصـلاها هجعة خفيفـة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعهـا تقول إذا وثبت من مرقدها ذاك وهى فزعة : يـا نفس ! كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومـة لا تقومين منها إلا لصرخـة يوم النشور ! ـ وكـان هذا دأبها دهرهـا حتى ماتت ! ولما حضرتها الوفـاة دعتنى وقالت : يا عبـدة ! لا تؤذنى بموتى أحـدًا ، وكفنينى فى جُبتى هذه ـ وهى جبة من شعـر كانت تقوم فيها إذا هـدأت العيون ـ قالت : فكفنتهـا فى تلك الجبة ، وفى خمارٍ صـوفٍ كانت تلبسـه . ثم رأيتها بعـد ذلك بسنة أو نحـوها فى منـامى ، وعليها حُلـة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئًا قط أحسن منـه ، فقلت : يا رابعة ! ما فعلت بالجبة التى كَفنتك فيها والخمار الصوف ؟ قالت : إنهما والله نزعا عنى ، وأُبدلت بهما مـا ترينـه علىّ ، فطويتُ أكفـانى وخُتم عليهـا ، ورفُعت فى علّيين ليُكمل لى بها ثوابهـا يـوم القيامة ! فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ! فقالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله عـز وجل لأوليـائه ! فقلت لها : فما فعلت عبـدة بنت أبى كـلاب ؟ فقالت هيهـات هيهـات ! سبقتنا والله إلى الدرجات العلا ! فقلت : وبم ؟ قد كنت عند الناس أكبر منها ؟ قالت : إنها لم تكن تبالى على أى حـال أصبحت من الدنيـا وأمست . فقلت لها : فما فعل **أبو مالك** (أعنى ضيغماً) ، قالت : يزور اللـه عز وجل متى يشاء . قلت : فما فعل **بشر بن منصور** : قالت : بخٍ بخٍ ! أعطَى والله فـوق ما كان يؤمل . قلت : فمرينى بأمـر أتقرب به إلى اللـه عز وجل . قالت : عليك بكثرة ذكره ، يوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك ! رحمها الله !

★★★★★

وفى البداية والنهاية لابن كثير : هى رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك ، العدوية البصرية ، العابدة المشهورة ذكرها أبو نعيم فى الحلية ، وابن الجوزى فى صفة الصفوة ، والشيخ شهاب الدين السهروردى فى المعارف ، والقشيرى فى الرسالة ، وأثنى عليها أكثر الناس ، وتكلم فيها أبو داود السجستانى ، واتهمها بالزندقة ، فلعله بلغه عنها أمر . وأنشد لها السهروردى فى المعارف :

وقد جعلتُ فى الفؤاد محدّثى ... وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحة ، وصيامَ نهار وقيامَ ليل ، ورؤيت لها منامات صالحة ، فالله أعلم ، وتوفيت بالقدس الشريف ، وقبرها شرقّيه بالطور ، والله أعلم .

★★★

وفى الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى : أن المتأمل فيما أثر عن ذى النون من أقوال منثورة وأبيات منظومة ، يلاحظ أنه يصطنع لفظتى الحب والمحبة اصطناعاً صريحًا ، سواء فى التعبير عن حب الله للإنسان ، أو حب الإنسان لله ، وذلك على نحو ما فعلت رابعة العدوية . ولا يقف التشابه بينهما عند هذا الحد من المشاركة اللفظية فحسب ، وإنما تجاوز اللفظ إلى الفكرة الكبرى والغاية العليا التى وجهت الحب الإلهى عند كل منهما ، فكما كانت غاية رابعة العدوية القصوى هى أن ينكشف عن عين قلبها كل غين ، وأن لا يكون بينها وبين الله أى بين ، وبحيث يتهيأ لها من مطالعة جمال الربوبية ما يصرفها عن كل ما سوى الله ، فكذلك كانت غاية ذى النون إذ اتخذ من الله معقد رغبته ومنتهى مراده ومنيته ، كما يدل على ذلك مناجاته ربه فى هذه الأبيات :

أموت وما ماتت إليك صبابتى ... ولا رويت من صدق حبك أوطارى

منـاى المنى كل المنى أنت لى منى ... وأنت الغنى كل الغنى عند إقصارى

وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى ... وموضع شكوى ومكنون إضمارى

وفى الحياة الروحية فى الإسلام لطه عبد الباقى سرور : أن الزهد كان هو السمة الأولى التى تميزت بها القلة المستمسكة بالعروة الوثقى ، وكان رأس هؤلاء الرجال فى القرن الأول هو الحسن البصرى ، ولكن الزهد بذاته مجردًا هو انطواء على النفس وانكماش فى ساحات الحياة ، وأما الحياة الروحية الكاملة فانطلاق وانفساح وقوة وإشراق . إنطلاق فى آفاق المعرفة ، وانفساح فى حياة القلب ، وقوة تدفع إلى خالد العمل ، وإشراقة إيمانية عامرة بالفيض والإلهام ، وفناء فى المثل الأعلى . ولمْ تحدث كلمة بعد كلمة التوحيد دويًا كالذى أحدثته كلمة محبة الله التى هتفت بها رابعة ففتحت آفاق المعارف الصوفية ، وفجّرت ينابيعها ، ورابعة أبرزتها وأجلّتها وأدارت حولها حياتها ، وأقامت رسالتها ، والمحبة هى رسالة التصوف وقامت عليها أكبر رسالة روحية عرفها العالم وجعلتها رابعة سر الحياة وطابعها وهدفها الأعلى ، ومن محبة الله تنبثق محبة كل ما فى الوجود ، وعلّمت رابعة الناس أن الحياة محبة للناس جميعًا ولكون بكل ما فيه لأنه من صنع الله ، وعلمتهم أن عبادة الله أساسها الحب وبذلك أقامت صلة العبد بربه على أقوم نهج تعبدى : نهج الشوق والأنس والرضا فالحب الإلهى هو المصدر الحقيقى الذى استمدت منه الموجودات وجودها وهو بذلك حقيقة كونية روحية ، ورابعة هى صاحبة مدرسة الحب الإلهى ومؤسستها فى الإسلام وكل مَنْ قفا اثارها على نهجها لم يأت بجديد حتى بن الفارض شيخ العشاق وإمام المحبين فى عالم الأشواق والمواجيد لم يزد مع سموه فى الحب الإلهى شيئًا عما قالته رابعة .

★★★

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق عن رابعة : إنها السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن فى هيكل التصوف ، وهى التى تركت فى اثاره كثيرًا من نفثات صادقة بالتعبير عن محبتها وعن حزنها ، وإن الذى فاض به بعد ذلك الأدب الصوفى من شعر ونثر لهو نفحة من نفحات السيدة رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين فى الإسلام .

★★★

وفى كتاب رابعة العدوية لمحمد زكى عبد الرحمن أن رابعة كانت لها سميات ، فرابعة القيسية كانت معاصرة لها فى البصرة ، ورابعة بنت اسماعيل عابدة من العابدات

الصالحات (١٤٥ هـ) ، اقامت بمصر سبع سنوات ، وكان يتردد عليها الإمام الشافعى ، وكان يصلى التراويح فى رمضان فى مسجدها ؛ **ورابعة البغدادية** (٥١٨ هـ) عابدة من عابدات الشام ، وتوفيت ودفنت بدمشق ، ويسميها نساء دمشق السيدة رابعة ؛ **ورابعة البدوية** ، وقبرها فى ضواحى القدس الشريف ، وقيل اسمها رابعة بالياء . ويقول بعض كتاب السير من خصومها أن رابعة بعد تحررها من الرق احترفت مهنة العزف على الناى مدة ، ثم رجعت واعتزلت عن الناى فى خلوتها للتفرغ للعبادة . وحاشا أن يكون العزف على الناى اندفع برابعة فى طريق الغناء والشهوات مع ما كانت عليه من جمال باهر ، ويعلم كل من اتصل بحلقات الذكر فى ساحات التصوف أن العزف على الناى وسيلة من وسائل الترنم بذكر الله وتسبيحه ، ولأن الطبل والدف والناى لها تأثير كبير فى حلقات الذكر فى كل مكان . وكانت رابعة شاعرةً مجيدة ، ومما نسب لها فى حبها الإلهى من البحر الكامل :

كاسى وخمرى والنديم ثلاثة ... وأنسا المشوقة فى المحبة : رابعه

كاس المسرة والنعيم يديرها ... ساقى المدام على المدى متتابعه

فإذا نظرت فلا أرَى إلاّ له ... وإذا حضرت فلا أرَنى كلا معه

يا عاذلى إنى أحب جماله ... تالله ما أُذْنى لعذلك سامعه

كم بت فى حرقى وفرط تعلقى ... أجرى عيوناً من عيونى الدامعه

لا عبرتى تُرقا ولا وصلى له ... يبقى ولاعينى القريحة هاجعه

★★★

وفى كتاب **رابعة العدوية** لسميح عاطف الزين : أنه قد برز من أوائل الصوفية الذين اعتنقوا مذهب العشق الإلهى ثلاثة لهم صيت ذائع فى عالم التصوف ، وهم رابعة العدوية ، **وأبو يزيد البسطامى** ، **وأبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج** . على أن رابعة العدوية اعتُبرت من بين هؤلاء رائدة العشق الإلهى ، ووُصفت بأنها شهيدة العشق الإلهى . وإذا

كان قد نشأ للصوفيين من بعد رابعة فِرَق عديدة متنوعة فى الأفكار والطرق ، فإن أيًا من المتقدمين أو المتأخرين منهم لم يبلغ ما بلغته رابعة فى العشق الإلهى ، حتى أن ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، الملقب بشيخ العشاق وإمام المحبين فى عالم الأشواق والمواجيد ، لم يزد فى الحب الإلهى شيئًا عما قالته رابعة العدوية . ومن قبله ببضعة قرون ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، أستاذ من تحدّث عن الحب والمعرفة فى التصوف ، إنما كان يردد ما ادعته رابعة فى مواجيدها ، ولهذا تقول عنه دائرة المعارف الإسلامية: والمتأمل فى كلمة بروحها أُثِر عن ذى النون من أقوال منثورة وقصائد منظومة ، يلاحظ أنه يصطنع لفظتى الحب والمحبة اصطناعًا صريحًا ، سواء فى تعبيره عن إقبال الله على العبد أو إقبال العبد على الله ، وأنه باستعماله لفظة الحب بنوع خاص إنما يشارك رابعة العدوية التى تعد أول من استعمل هذه اللفظة استعمالاً صريحًا فيما كانت تناجى به ربها ، أو كانت تتحدث به عن علاقتها به وإقبالها عليه وإيثارها له . ومن هنا يتبين أن رابعة العدوية هى رائدة العشق الإلهى عند صوفية المسلمين بالحقيقة والأساس .

وأياً كان الاتجاه الذى اعتمده الرواة أو الباحثون ، وأياً كانت دوافعهم فيما رووا أو كتبوا عن رابعة ، فإن التاريخ يحفظ لنا ولاشك ذكرى امرأة صوفية أوجدت فى تصوفها مذهبًا خاصًا كانت له آثاره التى راحت تتفاعل مع الزمن حتى بقى إلى وقتنا الحاضر ، وهو المذهب القائم على العشق الإلهى ، الذى يتنافى مع عقيدتنا الإسلامية ، ويخالف مخالفة صريحة الكتاب والسنّة . وما يمكن اعتباره تطرفاً عند رابعة هو ما ادّعت من عشق لله تعالى ، ثم مخاطبتها للعزة الإلهية كأنه جلّ وعلا إنسانٌ يجوز لنا أن نتعامل معه وفقًا لتصوراتنا ومشاعرنا ، فهنا خطأ رابعة الذى أوقعت فيه نفسها ، وقادها لأن ترى فى الله سبحانه وتعالى معشوقها وفق المفهوم البشرى ، تناجيه بغرام العشاق المشبوب .

وينتقد سميح الزين فى رابعة بخلاف ذلك موقفها من الحج ، والكرامات المنسوبة إليها فيه ، وتجرأها على مخاطبة الله تعالى ، معاتبةً بكلمات مثل أكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء ، وقولها وما أريده هو أن أشاهد وجهك الكريم ، وذهاب الكعبة للقاء رابعة . وقولها عن الكعبة أنها ليست سوى صنم معبود فى الأرض إنكارٌ لكعبة المسلمين التى جعلها

الله تعالى قياماً لهم . وتفسير البعض ذلك بأنه تحقيق للخُلة بينها وبين الله سبحانه ، والخُلة هي المودة ، وكذا المحبة ، فأما أن يراد بالحب حبة القلب ، وبالخلة التخلل ، فحاشا لله ، ورابعة تعاملت مع الله تعالى باعتبار التصوف تَخَلل نفسها ، والصوفي إذا بلغ مرتبة الخلة بينه وبين الله سبحانه سقطت عنه التكاليف ، واستباح لنفسه ما لا يبيحه الله تعالى لغيره من الناس . وفي حالة الخلة يكون العبد الخليل بنظر الصوفيين بمثابة الله ، أو على الأقل يستحل لنفسه من أموره ما لا يمكن لغيره أن يستحله ، فإذا كان كل شيء في الدنيا ملكاً لله ، فلخليله الصوفي أن يستحل ما يشاء من هذا المُلك ... وإن رابعة لتستخدم الخلة بمعنى استهلاك وجودها في وجود الله سبحانه ، وفي ذلك تقول . « قد تخللتَ مسلك الروح مني » ، وتقول عن الله تعالى « إني جعلتك في الفؤاد » ، وهو الذي لا يحتويه سبحانه مكان ولا يحده حدّ . وإن قولها أنا ذاهبة إلى السماء كي أُلقي بالنار في الجنة وأصب الماء في الجحيم ، فلا تبقى هذه ولا تلك ، ويظهر المقصود فينظر العباد إلى الله دون رجاء ومن غير خوف ،ويعبدونه على هذا النحو بلا طمع في جزاء أو خوف من عقاب ، ذلك أنه لو لم يكن ثمة رجاء في الجنة وخوف من الجحيم أفكانوا يعبدونه ويطيعونه ـــ هذه الرواية تعبر عن التخيلات والأوهام التي ملأت عقل رابعة وقلبها حتى تمثّلت في نفسها القدرة على التصرف في الجنة والنار كما تريد . وإيمان رابعة كما تصوره هذه الرواية واعتقادها في البعث والحساب يخالفان الشريعة والسنة . وإن عبادة لا تقوم على الخوف من نار الله والطمع في الجنة ، لهي عبادة جوفاء ، لأنه ينتهي معها الثواب والعقاب ، ويتساوى الناس في مصير واحد في دار الآخرة . والمتتبع لسيرة رابعة يجد أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير عندما اعتبرت شوقها إلى الجنة إنما يشكّل خطيئة تقترفها في قولها « عُرِضت علَى الجنة فملت بقلبي فأحسست أن مولاي غار عليّ فعاتبني ، وهذا يعني أنها صارت تعد الميل بقلبها إلى الجنة بمثابة إثم اقترفته . وإن تجرأها على الله تعالى ومعاتبته على خلقه النار لتأديب العاصين منتهى الشطط والزلل حيث تقول يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ! ؟

★★★

وفى كتاب **رابعة العدوية بين الفناء والبكاء للدكتورة سعاد على عبد الرازق** : أن رابعة تعد بحق علماً من أعلام الحياة الروحية فى الإسلام ، ويرتبط اسمها بالنظرية الروحانية ، ونظرية الحب الإلهى ، ونظرية الخُلّة ، ونظرية الحَجّ بالهِمّة . وقد تكلم كبار الصوفية عن مذاهبها وأيدوا عباراتها ، ومن **هؤلاء أبو طالب المكى ، والقشيرى، والغزالى ، والسهروردى** ، وصورها لنا مؤرخو التصوف تقف موقف المعلّم الروحى لمجموعة من أشهر عُبّاد الإسلام وفقهائهم ومحدّثيهم ، من أمثال عبد الواحد بن زيد ، وعُتبة بن أبّان بن صمعة ، ورياح القيسى ، وسفيان الثورى . وعلى هذا النحو وتلك الصورة كان تأثير رابعة فى مدارس التصوف من بعد .

ورغم كل التساؤلات حول الأصل الجنسى لرابعة العدوية فإن الذى أجزم به مستندة إلى النصوص أن رابعة كانت مغنية قبل أن تسلك طريق الهجرة إلى الله ، وأنها كانت تغنى على أنغام الناى وقرع الدفوف والطبول ، وسنرى لسان الدين الخطيب عالم الأندلس الكبير ، وصاحب كتاب **روضة التعريف بالحب الشريف** ، الذى أرّخ فيه لنظريات الحب الإلهى ، يقول : يا رابعة من أنت ؟ قالت : كنت أضرب الدف بالطبل فما سمع غيرى :

بـــاللـــــه يـــا ريـح الصبـــا ... مُـــرّى على تلـك الـــربـــا

وبلّغـــى رســـــــالتـــى ... بنصّهـــــــا أهـــلَ قبـــــا

واحـــــربـــــا وهل يـــــرد ... فـــائتـــا واحـــــربـــا

★★★

ورابعة كما وصفها **الهجويرى** بداية التصوف ونهايته لأن مقامات التصوف وأحواله وألحانه ومواجيده وكشوفه وإلهاماته لا تزال على ما رسمته وكما عبرت عنه وتذوقته .

★★★

رابعة فى كتابات الشرق والغرب

ـ ٢ ـ

فى الغرب

★★★

رابعة فى الموسوعة الصوفية لجون فيرجسون : هى شاعرة ومتصوفة توفيت عام ٨٠١ م ، ولم يعرف شيء عن ميلادها وعائلتها ، إلا أنها كانت تسكن البصرة ، وكانت لا ترى سوى الله فكل ما عداه باطل ، وشكت مرضًا فسرته تفسيرًا غريبًا ، فزعمت أنها لم تجد له سببًا سوى أنها عُرِضت عليها الجنة ، فمالت بقلبها إليها ، فأحسب أن مولاى غار علىّ فعاتبنى ، فله العتبى . واعتذرت عن الزواج لأنه إذا كان الزواج ضروريًا لمن له الخيار فإنها فى نفسها لا خيار لها ،لأنها لربها وفى ظل أوامره . وبالنسبة لرابعة فإن طريق الوصول إلى الله بطُهر المحبة . وكانت هى التى أدخلت فكرة الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، وتعبر عن ذلك فى أبيات قوية تقول فيها :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحبًا لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حبّ الهوى ... فذِكْرٌ شُغِلتُ به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

There are two ways of love
My selfish way , and yours above
My selfish love is when I find
I yearn to grasp you in my mind .
Pure love is when you took
The veil from my devoted look .
I can not glory in either phase
Two ways of love - in both be yours the praise !

وكانت رابعة تقول إن حبها لله لم يترك فى قلبها مكـانًا لتكره ، حتى ولو كان هذا الذى ستكرهه هو إبليس . ومن الرؤى التى رأتها شجرة هائلة عليها ثمار ذهبية رائعة ، وقيل لها إن الشجرة شجـرتها ، وإن الثمار هى تسابيحهـا لله ، ولكن بعض الثمار كـانت ملقاه على الأرض ، وسألت أفما كان الأولى أن تكون بالشجـرة ؟ فقيل لها بلى ! كانت بالشـجرة ولكنك أثناء تسبيحك فى إحدى المرات ، وكنت قد عجنت عجينً للخبـز ، توقفت لتسألى نفسك ما إذا كان العجين قد خمر ، فسقطـت هذه الثمار ، لأن العبد الذى يتمنى أن ينال القُـرب من الله ينبغى أن لا يفكر ، ولا أن يسأل عن شىء فى الـدنيا ولا فى الآخرة سوى اللـه . وكانت رابعة فى دعائها تشبـه إبراهيم بن أدهم . ومن مأثورات هذا الدعـاء قولها : إلهى ! إذا كنت أعبدك مخافة النـار فأحرقنى بنارها ، أو طمعًـا فى الجنة فحرّمهـا علىّ ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك !

★★★

وفى **دائرة المعارف البريطانية** . أن رابعة العدوية يرجع لها فضل إدخال عنصر الحب فى التصوف الإسلامى ، فلم يعد مجرد زهـد . وهى امرأة من البصرة ، وكانت أول من صاغ فكرة الحب لله حبًـا لا مصلحة فيه للمحب ، ولا يصدر عن خـوف من النار ولا عن طمع فى الجنة . وبعـد رابعة تعـددت المدارس الصوفيـة وكثرت فى العـالم الإسلامى ، ويـرجع ذلك نسبيًا إلى تأثير الاتصال بالرهبان المسيحيين وتبادل الأفكار معهم .

★★★

وفى كتاب **رابعة العدوية الصوفيـة وصحابها من الصوفية لمرجريت سميث** تذكر « **أنى مارى شميل** » فى مقدمة طبعة ١٩٨٤ : أن رابعة العدوية كانت فيما يبدو أول من أكد على مفهـوم الحب الإلهى ، بمعنى الحب من أجل الحب ، وليس خوفًـا من النار أو طمعًـا فى الجنة ، وذلك هو إسـهام رابعة التاريخى ، وصار حبها المتأجج الذى استشعرته لله ، والذى صرفها عن كل شىء مخلوق ، وهو حجر الزاويـة فى التصوف الإسلامى ولذلك صار اسم رابعة مـن الأهمية بمكان فى هـذا التصوف . وقـد أورد العطار سيرتها بشكل رومـانسى ، بينما ذهب غيره من كتّاب السيرة إلى إيراد فصول من حياتها جعلت اسمها مرادفًا للمحبة

ذاتها . ونُسِجت القصص حول حياة رابعة ، وعيد فيها وزيد ، وكتب عنها الفيلسوف المصرى **الدكتور عبد الرحمن بدوى** ، وأطلق عليها اسم **شهيدة العشق الإلهى** ، وأخرجت عنها السينما المصرية فيلما كان ناجحًا واستمر عرضه لفترة . وكان اسم رابعة العدوية قد بدأ يتردد فى أوروبا بعد أن نَبه إليها أحد المفكرين الفرنسيين ويدعى جوانفيل ، وكان من مستشارى الملك لويس الرابع عشر ، وقد ذكرها من كتّاب فرنسا منْ يدعى **كامى** سنة ١٦٤٤ م ، وأشاد بذكرها الكاتب النمسوى **ماكس ميل** ، وكان اسمها معروفاً فى بريطانيا كما يبدو من قصائد **ريتشارد مونكتون** التى اعطاها عنوان « اقوال من رابعة » ، وأراد أن يعظمها فاعطاها اسم **ابنة السماء Daughter of God** .

وتقول **مرجريت سميث** فى الكتاب: إن رابعة بلاشك أعظم متصوفات الإسلام ، وكان لها أكبر إسهام يمكن أن تشارك به امرأة متصوفة فى التصوف . ـ وترجع **مرجريت سميث** مولدها احتمالاً إلى سنة ٩٥ أو سنة ٩٩ هـ ، وتقول إنها رغم كونها من أشرف بيوتات البصرة إلا أنها ولدت فقيرة فقرًا مدقعًا وأنها تشبه المتصوفات المسيحيات فى نبذها للزواج ، وتفضيلها أن تكون عروس السماء ، وقد فعلت ذلك مع الأمراء الذين تقدموا لخطبتها ، كما فعلته مع اخوانها من الصوفية ، فالأمر لديها سواء . وماتت رابعة يقينًا سنة ١٨٥ هـ ، وكان دفنها بالبصرة .

★★★

الفصل الثانى

رابعة بين الأسطورة والحقيقة

ما قدمناه من كتابات عن رابعة يرسم صورة لها يختلط فيها الخيال بالواقع أو أنه يبدو كذلك ، فالروايات عنها كثيرة ، وأغلبها روايات متوافقة ، وأقلها روايات متعارضة .

والخلاف حول رابعة بين المؤرخين حول وفاتها ونسبها والكرامات التى أُلصقت بها ، ولم يكن هناك خلاف بالمرة حول مذهبها فى التصوف وأقوالها فيه . ونخلص من كل ما قيل فيها أن رابعة **عربية** صميمة ، وكانت تتحدث **العربية** وتفكر بها ، ولها أسلوبها الخاص والمتميز ، ولها ألفاظها التى تتكرر معها ، ومعراجها الفكرى متسق وفى صعود يتدرج معها ، وليس فى أفكارها طفرات أو مراوحات بين أقصى اليمين وأقصى اليسار ، ونستطيع فى سهولة ويسر أن نؤكد عن يقين أن هذه الأقوال جاءت على لسان رابعة وأن نستبعد أقوالاً أخرى نُسِبت لها .

وكانت رابعة العدوية بصرية تأثرت بالثقافة الواسعة التى كانت للبصرة فى زمانها ، والبصرة مدينة عربية إسلامية دماً وروحاً ، أسسها **عتبة بن غزوان** عام ١٦ هـ ، أو عام ١٧ هـ ، بأمر من الخليفة عمر ، وتقول **دائرة المعارف الإسلامية** أنه كان فى المكان الذى شيدت فيه المدينة معسكر ضُرِب هناك منذ سنة ١٤ هـ ، وقصدوا من بناء هذه المدينة أن تكون مركزاً للجيش العربى ، ـ ولذلك اختير مكانها فى بقعة بالقرب من النهر عند أطراف السهل والوادى الخصب القريب من المشارب والمراعى ، وسميت المدينة بالبصرة **أى الحجر الأبيض** ، لأن الأرض التى شيدت عليها من الحجر الأبيض .

وكانت البصرة مهد الخلافات القبلية بين العرب ، وفى أواخر عهد معاوية هاجر الأزد إليها وتحالفوا فيها مع ربيعة على تميم وقيس ، وكان على الولاة دائماً أن يحافظوا على

النظام فيها . وقد ازدحمت البصرة بالسكان واختلط بالعرب فيها عدد كبير من الموالى ، حتى لقد قدّروا عدد سكانها سنة ٥٠ هـ بنحو ثلثمائة ألف نسمة .

وكانت دسائس الخوارج من الأسباب التى زادت من المنازعات القبلية ، وكانت من عوامل الإخلال بالأمن بها وكانت ـــ مثلها فى ذلك مثل الكوفة ـ مرتعاً للحروب الأهلية ، وميداناً للفتن ، وربما لذلك عانت كثيراً من المجاعات ، وتفاوتت أقدار الناس فيها بين الفقر المدقع والغنى الفاحش . ولم يكن غريباً أن نجد بين سكانها مثل والد رابعة الذى لم يكن في بيته قطرة من زيت يوقد بها السراج ، أو يمسح بها على ابنته رابعة عند ميلادها ، ولا قطعة القماش التى يدثرها بها ، أو مثل **محمد بن سليمان الهاشمي** الذى تقدم لخطبة رابعة ، وكان قد ولى البصرة منذ سنة ١٤٥ هـ حتى سنة ١٧٢ هـ ، وكان من أوسع الناس ثراء ، حتى بلغت غَلّة ملكه ثمانين ألف درهم فى اليوم ، وقال إنها عما قريب تبلغ مائتى ألف درهم .

وبلغت مدينة البصرة أوج ازدهارها زمن رابعة فقد كانت هى وضاحيتها الأُبُلّة مركز تجارة العرب البحرية التى انتشرت حتى بلغت بلاد الصين ، وتفرعت القناتان الكبيرتان اللتان تربطان المدينة بالنهر ـ وهما نهر الأبلة ونهر المعقل ـ إلى جملة مجارٍ مائية تجرى فى شوارع البصرة وحدائقها ، وذلك حقاً هو ما جعل **الدكتور بدوى** يقول عنها ڤينسيا العربية .

وتطور حى المدينة القائم عند الباب الغربى حيث تنيخ القوافل على المربد حتى حى الأعمال بالمدينة ، ولكم يتشابه وصف **الدكتور بدوى** ووصف مؤلف **دائرة المعارف الإسلامية** ، والأخير يقول إن قصص ألف ليلة وليلة تعطينا صورة عن الحياة المرحة التى كانت عليها الأسواق فى المدينة وقنواتها ، وقد ازدهرت الحياة العقلية فيها نتيجة لتقدمها الاقتصادى ، فكانت المكتبات العامة والمساجد أسمى ما يتوق إليه الأهالى فى حياتهم ، وظهر فيها وفى الكوفة النحو العربى ، وكان أحرار الفكر يعقدون اجتماعاتهم فيها وذلك ما جعل **ماسينيون** يقول عنها إن البصرة هى البوتقة الحقيقية التى اتخذت فيها . الثقافة الإسلامية شكلها ، وبين القرنين الأول والرابع تبلورت الثقافة وأخذت شكلها العربى

الإسلامى ، وظهر النحويون والشعراء والمؤرخون ، وأشرق سنا علوم الدين ، ووطد الحسن البصرى ومريدوه دعائم التصوف .

ولو كانت رابعة قد عاشت فى مدينة أخرى غير البصرة فربما ما كانت تبرز كداعية صوفية وصاحبة مذهب فى التصوف ، فرابعة والبصرة مرتبطان ، وثقافة رابعة عربية إسلامية قح ، وهى وريثة الثقافة العربية الإسلامية المزدهرة فى البصرة ، وفى مساجدها ووسط حلقات الدرس فيها كان تلقيها للغة والدين وأصول التصوف . ولقد كان محيط رابعة الثقافى مثاليا فقد اجتمع فيه الكبار من أمثال **سفيان الثورى** ـ وهو كما قيل فيه عالم الأمة وعابدها ، وعبد الواحد بن زيد الذى يعتبره الإمام ابن تيمية أول الصوفية على الحقيقة ، **ورياح القيسى** وهو المتألّه وصاحب المجد والفخر ، القانت معه فى السر والجهر كما يقول العطار .

وتلعب **الوراثة والبيئة** بالإضافة إلى **الاستعداد الشخصى** دوراً حاسماً فى تشكيل شخصية رابعة وفكرها ، ويحكى **ابن خلكان** عن رابعة وكانت بعد طفلة لم تجرّب اليتم ولا التشرد والأسْر ، أنها قالت لأبيها : يا أبى ! لست أجعلك فى حلٍّ من حرام تطعمينه ! فقال لها الأب والذى كان جيرانه يطلقون عليه اسم العابد : أرأيت إن لم أجد إلا حراماً ؟ فأجابت رابعة : نصبر فى الدنيا على الجوع خير من أن نصبر فى الآخرة على النار ! ـ فأى منطق لهذه الطفلة فى سنها ! وأية ثقافة يمكن أن تكون لها ! وأية تربية تلقتها منذ نعومة أظفارها ! وما هى تلك القيم التى نُشّأت عليها لتقول مثل مقالهتا ! وكما يقال فالأطراف فى تماس ، وهذه البنت الصغيرة التى كانت متعبدة منذ طفولتها الباكرة هى نفسها المرأة الناضجة التى حكت عنها خادمتها **عبدة** أنها كانت تصلى الليل ، فإذا طلع الفجر وثبت فزعة من مرقدها تقول : يا نفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين وقد أوشكت أن تنامى نومة لا تقومى منها إلا بصرخة يوم النشور !! ـ وكان ذلك دأبها حتى ماتت ، وكانت تقول **لسفيان الثورى** : يا سفيان ! أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها ؟ ـ وقالوا لها من أين أتيت ؟ فكان جوابها من العالم الآخر . وإلى أين تذهبين ؟ قالت : إلى العالم الآخر ! وماذا تفعلين فى هذه الدنيا ؟ قالت : آكل خبزها وأعمل عمل الآخرة ! ـ وكانى بها التصوف وقد تجسّد !

وما كان من الممكن أن يحكي أحد عن أبيها أو عن حياتها الأولى معه إلا أن يكون على صلة وثيقة بها وبأسرتها في طفولتها ، فإذا كان المؤرخون قد أجمعوا على أنها مولاة آل عتيك **فما كانت رابعة في صغرها مولاة أحد** ، وما كان أبوها كذلك وهو على هذه الدرجة من الفقر والتوكل والتبطّل ، وإنما **رابعة كانت حرة** حتى قيض لها أن تؤسر وتباع كما يقول **العطار** بستة دراهم ، ومن المؤكد يقينًا أنها بيعت لآل عتيك وأُطلق عليها من ثم **العدوية والقيسية** ، حيث كان بنو عدوة من البطون القيسية التي سكنت البصرة وأسستها ، وما كانت صحبتها **لرياح القيسي** إلا لأنه من هذه القبيلة ، فهو بمثابة الأهل والسكن لها .

وما كان من الممكن أن تكون رابعة من أصول فارسية أو مسيحية كما يقول الدكتور بدوي ، لأنها لم يحدث أن أشارت ولو مجرد إشارة بكلمة فارسية ، وكان الأولى بالعطار أن يذكر أنها فارسية لو كانت حقًا كذلك ، فمؤرخو التصوف من الفرس كانوا يتيهون بانتساب الصوفية لجنسهم . وقد تحدث **الدكتور بدوي** عن **اللاشعور** عند رابعة ، وأغلب الظن أنه يقصد به **اللاشعور الجمعي** الذي من رأيه أنه يحيلها إلى مقولات المسيحية عند حديثها عن المحبة الإلهية ، وأقول إن هذا اللاشعور الجمعي أو الأجناسي الذي يمكن أن تستقي منه ثقافة رابعة وتختلف به عن أقرانها القائلين بالمحبة الإلهية كعبد الواحد بن زيد ، لم يحدث أن ظهر من كلماتها المشبوبة بالعاطفة والمتقدة بالانفعالات أنها مسيحية الأصل أو تربّت على مسيحيين أو أصدرت في أفكارها عن تعليم مسيحي ، وما كان من الممكن وهذه تنشئة رابعة أن يفلت زمامها بعد عتقها فتغرق في بحر الشهوات كدعوى الدكتور بدوي فيها !!

ويقول **الدكتور بدوي** : فنحن نفترض أن رابعة لما أُعتقت ، اندفعت بفضل الحرية التي وُهبتها إلى المشاركة في حياة الدنيا ، ومثل هذه الفترة من حياتها مثل تلك الفترة التي أمضتها القديسة تريزا الآبلية منذ أن غادرت دير التجسّد من آبلة إلى سنة ١٥٥٥ م حيث بدأت حياتها الثانية ، فانطلقت رابعة تسعى لرزقها فلم تجد غير حرفة العزف على الناي والإطراب ، وهذا يجعلنا أن نفترض أنها كانت على حظ من الجمال ولعل هذا ما يفسر لنا ما روى من أخبار لعلها أسطورية عن تقدم الكثيرين للاقتران بها ، ودعاها إلى اتخاذ هذه المهنة خاصة أنها كانت ذات مزاج فني يمتاز بحكم طبيعتها الروحية العالية ، فلم تجد في

غير الفن للظهور فى الدنيا والمشاركة فى الحياة . والمشاهد عامة فى حياة النسوة اللائى وهبن قدراً من سمو الروح أنهن يحترفن الفن إذا ما قُضى عليهن بتلمس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة ، ويحتمل كذلك أنها إبّان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد ، فهذه المهنة فى ذلك العصر كان من غير الممكن أن تستقل بنفسها ولا أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء بأنواع الأحابيل التى تُنْصَب لمثيلاتها فى هذا المضمار، ويخيل إلينا أنها قطعت شوطًا طويلاً فى طريق الإثم ، وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها تابت من بعد ذلك . فهذه التوبة نفسها هى أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد فى طريق الشهوة ، والأطراف فى تماس كما يقولون ، والاعتدال لا يمكن مطلقًا أن يؤدى إلى التحول الحاسم ، فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائماً نتيجةً لعنف وإفراط ومبالغة فى الطرف الأول المنقلب عنه ، فعنف إيمان **القديس بولس** كان نتيجة لعنف إنكاره للمسيحية ، وعنف الحياة التقية لدى **القديس أوغسطين** كان لازماً طبيعياً لعنف الحياة الشهوانية الحسّية التى حَيَّها قبل تحوله إلى الإيمان ، والاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين ، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلقون التاريخ ، وما كان يمكن لرابعة أن تتطرف فى إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرّفت من قبل فى فجورها وحبها للدنيا ، ومن أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الإنكار والتجديف تنطلق الموجة التى تنشر الإيمان فى الدنيا بأسرها ، ولهذا فإنى أدعو إلى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقاً للقيم .

هذا هو رأى **الدكتور بدوى** — وهو يصدر عن مذهب فى التاريخ للسيّر يقوم على الفروض والاحتمالات ، وذلك قد يكون صحيحاً إلا أنه بشروطه كما يقول **توينبى** ، فلابد أن تأتى الفروض والاحتمالات من مقدمات صحيحة ، ولابد أن تكون هناك إرهاصات لما سيقْدُمُ من سلوكيات مستقبلة عند الشخصية المؤرخ لها .

ولا أرى إلا أن **الدكتور بدوى** اعتسف الفروض والنتائج ، وكان حاله كما قال **سارتر** عن الشيوعيين فى فرنسا ، أنهم يجبرون الأحداث على الدخول فى فروضهم الفلسفية ، فما لا يتوافق معها ذهبوا إلى إنقاصه من هنا وهناك ، أو الزيادة فيه ، ليناسب قوالب فروضهم ، وتكون النتيجة أن الحدَث يشوّه ، وذلك نفسه ما اعتقد أن **الدكتور بدوى** قد فعله مع رابعة العدوية ومع كثير من الشخصيات الفلسفية التى تناولها بالتأريخ والتحليل .

والدكتور بدوى يصدر فى أحكامه عن أفكار مسبقة ، ويختار من الشخصيات ما يظن أن مذهبه الفلسفى ينسجم عليها عند التطبيق . وكتاب « **رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى** » لم يكن سوى تطبيق من هذه التطبيقات الفلسفية الكثيرة التى يلجأ إليها لإثبات صحة مذهبه الفلسفى ، ولسوف نطرح هذا المذهب وتطبيقه فى حالة رابعة لنرى إلى أى حد قد غالى الدكتور بدوى فيما قصد إليه .

★★★

الفصل الثالث

فلسفة الوجود الفردى متحققة
فى الصوفية
وفى رابعة العدوية بالذات

★★★

إن فهم كتاب رابعة للدكتور بدوى لن يكون إلا بفهم المذهب الوجودى الذى يعتنقه الدكتور ، وهو مذهب يسير فيه كما يقول هو نفسه فى اتجاه الفيلسوف الألمانى الوجودى مارتن هايدجر .

ويميل الدكتور إلى الثقافة الأوروبية بنوع خاص ، واهتماماته الفكرية العربية والإسلامية يطبعها هذا الميل ، وكما يقول عن نفسه فإنه تتلمذ كطالب فى كلية الآداب على أوروبيين من أمثال لالاند ، وباول كرواس . وهو مصرى من مواليد قرية شرباص سنة ١٩١٧ ، وكتاباته يهتم بها كثيراً المستشرقون خاصة ، وكان حصوله على الماچستير عن مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية ، وعلى الدكتوراه برسالة عن الزمان الوجودى ، وله أكثر من مائة وعشرين كتاباً أغلبها فى موضوعات تدخل ضمن دائرة الاستشراق ، وخاصة ما يتصل منها بالتصوف .

ومن رأى الدكتور بدوى : أن الوجود مطلق ومعين ، فالمطلق تصوره أعم وغير قابل لأن يُحدّ ، ومن ثم فهو غير معروف الماهية . وفى الواقع فهو ليس وجوداً على الحقيقة ، لأنه إما قد صرف فيه النظر عن كل تعين ولا سبيل للوصول إليه إلا بالتجريد عن الواقع ، وإما وجود كلى على هيئة الروح المطلقة أو الصورة وهو أيضاً نوع من التجريد .

والوجود الحقيقي الذى لا سبيل إلى إنكاره والذى يفرض نفسه فرضاً هو **الوجود الفردى أو وجود الذات** ، وهو وجود شاعر بوجوده ، والذات تحيل إلى نفسها وتوغل فى الاستبطان الذاتى ، وتحقق فيه إمكانياتها عن طريق الفعل باستخدام الذوات الأخرى كأدوات ، وهى تريد فى حرية ، وتختار ، وكلما زادت حريتها زادت همومها بمسئولية اختياراتها ، وشعورها بالقلق والتضحية نتيجة ما تدخل من مخاطر ، ووجودها لذلك **وجود متوتر** مفتوح على إمكانيات لانهائية ، وتستشعر فيه الذات بمعنى لانهائى لنفسها ، ووجودها الذاتى الممكن ، أو ما يسميه الدكتور بدوى **الوجود الماهوى** ، وهو نمط الوجود الذى للشخصيات الصوفية النبيلة من أمثال رابعة العدوية وشبيهتها تريزا الآبلية التى يذكر لها الدكتور بدوى مقالتها « **أنا وحدى مع الله وحده** » ، فهى معزولة كاملاً مع مسئوليتها الهائلة ، وشاعرة بماهيتها وحريتها المطلقة .

ومثل هذا الوجود هو **الوجود الأصيل** ، لأن الذات فيه تملك نفسها ولا يملكها غيرها ، على عكس **الوجود الموضوعي** الذى تكون فيه الذات مملوكة للغير ، أو مستعبدة لأشياء . **والسقوط** بالنسبة للذات هو هذا الوجود الموضوعى الذى يتحصل للذات بكثرة اتصالها بالذوات الأخرى وبالأشياء ، وكلما قلّ هذا الاتصال وكان استبطان الذات لنفسها كلما ارتقت فى سلم الوجود .

ووجود الذات لابد فيه **من الزمانية** ، والوجود بما هو كذلك لابد أن يكون وجوداً فى الزمان ، أما ما يقال له **الوجود فوق الزمان أو العالم الآخر** ، فإنه طالما ينسبب إلى الوجود فهو زمانى ، **ولا يرى له الدكتور بدوى وجودًا على الحقيقة ، فهو وجود موهوم ، ومصدر القول به محاولة الإنسان القضاء على الجزع من الزمان ، وكل إحالة إلى وجود غير زمانى إحالة إلى اللاشىء** .

وأما الوجود بما هو كذلك فهو هذا الوجود الحى المنشب أظافره فى الحياة المضطربة بالتجارب الحية ، وليست التجربة الوجودية إلا معاناة الذات الوجدانية لما عليه الوجود فى نسيجه الحى من تناقضات .

والتوتر الوجودى عند الدكتور بدوى هو اسم آخر **للديالكتيك** ، ويعنى أن الذات فى

وجودهـا الماهوى تتردد بين متنافـرين ، وينساق وجودهـا فى وحدة تجمع بين النقيضين ، فالذات تتألم إذ تشعر أن هناك ما يحدها فى وجودها العينى ، وهى تريد أن تحقق إمكانياتها فى العالم لأن الأصل هو تحقيق الإمكانيات بقدر التوسع والطاقة . ولكنها تلقى المقاومة من الغير ، وكلما زادت الإمكانيات التى ترى أن تحققها زاد الألم الناتج تبعاً لزيادة المقاومة التى تلقاها .

والتضحية هى أعلى درجات التألم ، وبها يكون أيضاً أعلى تحقق للذات بالسرور ، أى أنه فيها يلتقى أعلى الألم وأعلى السرور وهو سرور بتحقق الإمكانيـات ، ومع زيادة إمكانية هذا التحقق تكـون زيادة السرور ، وأعلى درجات السرور هى التى تتحقق عندمـا تستشعر الذات أنها هى نفسها بكل ما وسعها تحقيقه من إمكانيات .

وفى **التضحية** تكون الذات فى أوج إيثارها المحِقّق لأكثر الإمكانيات الذاتية ، مع إغناء أكبر قدر من الذوات الغيرية فى نفس الآن . **والإيثار** يتضمن معنى الحب للغير ، ولكن الحب بالمعنى الوجودى معناه استغراق الذات للغير فى نفسها ، لتشعر الذات أنها وحدها الموجودة حقًا ، وذلك يعنى أنها ستكره كل ما عداها .

وفى **التصوف** تنتشر الذات لتشمل كل الغيريـة ، والحب من الصوفية هـو الذى يتسع وجوده لينتظم كل الذوات والأشياء ، وفى الحب تكون الغيرة ، **والغيرة** هى اجتماع أعلى حب مع أعلى كراهية ، فيكّن المحب لمحبوبه أشد الحب ويضمر لمن سواه أشد الكراهية .

وأيضـاً فإنه إذا كـان على الذات أن تختار بين الممكنـات فإنها تخاطر فى اختيارهـا ، **والمخاطرة** هى الفعل الأول للذات المريـدة ، وكلما قل اليقين فى الممكنات زاد مقـدار الخطر . وأيضـاً فكلما زادت قيمـة الفعل زادت فيه المخـاطرة ، **والأمان** هو المقابل **للخطر** ، والخطر والأمان الخالصـان مستحيلان ، لأن ذلك مضـاد للوجـود الحى ، ولا يتبقى إذن إلا **وحدة الخطر الآمن** ، كما لم يتبق إلا **وحدة الحب الكاره** ، **والتألم السار** ، وذلك ما يكفل للذات أن توجد وتحقق الإمكانيات فى حرية ومسئولية .

ولما كان **مذهب الدكتور بدوى** يقوم على افتراض أن الذات لكى تكـون نفسها لابد أن تكون معزولة أو منفصلة ، فإن الذات فى سيرها من مخاطرة إلى مخاطرة لا يتم لها ذلك على

التواصل ، ولكن فى وثبات أو **طفرات** ، وتعنى الطفرة **التعالى** ، لأن تحقيق الإمكانيات فيه السمو والارتفاع بالذات وإغناء مضمونها ، وليست عملية الوجود إلا محاولة الذات أن تعلو على نفسها نحو المستقبل .

هذا إذن هو **مذهب الدكتور بدوى** ، وقد سبق أن قدمنا تحليله لحياة رابعة ، وكما ترى فإن التحليل يتفق تماماً مع المذهب ، فرابعة من الشخصيات المبدعة التى تعيش فى قلق ، وحياتها متوترة شديدة التوتر ، وقد شدّتها إليها من أول الأمر حياة المجون ، ثم مالت من بعد إلى حياة الزهد ، والحياتان قمة **التطرف** ، وهو التطرف الخلّاق ، ففى **المجون** هى العازفة والمنشدة المبدعة ، وفى **الزهد** هى الرائدة صاحبة الفكر المُؤصِّل الفريد ، ونصيحة الدكتور بدوى **لكل من يريد الإبداع أن يتطرف** .

ويفسر الدكتور انحراف رابعة الجنسى بأنها ذات **مزاج فنى** ،فلم تجد فى غير الفن مجالاً للظهور والمشاركة فى الحياة ، **والفن والجنس** مرتبطان ، ورابعة كان لها الكأس المُعلّى فى المجالين ، فهى عازفة ممتازة ، وهى أيضاً كما يقول الدكتور قد قطعت شوطاً طويلاً فى طريق الإثم ، وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، ودليله على ذلك أنها تابت من بعد ذلك ، فهذه التوبة هى أصدق دليل على اندفاعها إلى أبعد حد فى طريق الشهوة .

ويبدو أن المذهب الوجودى الذى يعتنقه الدكتور والذى يقال فيه ما يسميه **منطق التوتر** هو الذى حاد به أن يفترض هذه الفروض فى حياة رابعة ، وأن يفسر كلام **العطار** فيها هذا التفسير ، وقد بدأ الدكتور كتابه بأن رسم لمدينة البصرة حيث منبت رابعة ومنشؤها صورة فيها التناقض والتطرف ، فقد جعلها مدينة تجمع بين الحياة اللاهية والأشواق الصاخبة والمساجد والربّط والمكتبات ، وجعل سكانها أحد اثنين ، فهم إما **إبن أبى عيينه** صاحب الشعر الماجن ، وإما **رياح بن عمرو القيسى** الصوفى المولّه البكّاء ، الذى كان يصرخ إلى الله فيفتت صراخه منّ يسمعوه شفقةً عليه ورحمةً به .

وكانت هذه الصورة للبصرة بمثابة التمهيد لما سيكون عليه صورة رابعة نفسها ، فرسمها موغلة فى الفجور ، ودائبة على الاستغفار . وطالما أنها تطلب التوبة فلابد أنها

ارتكبت المعاصى ما وسعها ، وبذلك فقد تكون فى تماس . وواضح من مذهب الدكتور فى الوجودية أن من تكون المواصفات التى وضعها للوجودى هى سمات شخصيته فإنه لابد أن يكون **عصابياً** ، فتلك أعراض **العصابية** التى يذكرها علماء النفس للمرضى بها ، غير أنهم يميزون بين العصابية المُمْرضة السلبية وتلك الإيجابية الخلاّقة ، ومبدأ التوتر الذى يقيس إليه الدكتور بدوى شخصية رابعة هو فى حالتنا هذه ينطبق على المبدعين ويتحراه أصحاب القيم .

وقد تتسائل عن سبب استهجان الدكتور بدوى لأساطير العطار حول رابعة وخوارقها التى تعرف باسم **الكرامات** ، وتعجّله فى قبول واقعة أن رابعة امتهنت العزف كسبيل لتعيش ، وقد يشدنا إلى الإجابة على ذلك أن نعلم أن المذهب الوجودى للدكتور يملى عليه ذلك ، فهو مذهب **إلحادى** ، وكما يقول الدكتور أنه « **لاوجود خارج الزمان** » بمعنى أنه ينكر الآخرة ، وذلك نفسه ما يطرحه القرآن عن الملحدين فى قول الله عز وجل : ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ . والدكتور من ثم يشكك فى أن رابعة فى شدّتها وكربها قد طَمْأنها الله وَحْيَاً بهاتفٍ يقول لها « لاتحزنى ! ففى يوم الحساب يتطلع المقربون إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » ، وأنه من قبيل الخيال الجامح أن ينسب إليها العطار تشعع النور ، بحيث يملأ البيت ويشاهد ذلك مخدومها فيعتقها فى الصباح . ويصف الدكتور أقوال العطار بأنها **أسطورية ولا يستطيع المؤرخ إلا أن ينعتها بذلك** ، ويفسر هذه الظواهر أو الكرامات تفسيراً نفسياً فينسب لرابعة وللعطار **ازدواجية نفسية** ويقول : « إنها أمور لا تتأبى على منهج البحث النفسانى العلمى إذا ما فُهمت على أنها أحوال من الكلام النفسى الصادر عن ازدواج النفس حينما تلم بها الملمات » .

والآن ما قول الدكتور فى **علم النفس الغيبى أو الباراسيكولوچيا** ، وهى الميدان فى علم النفس الذى يشتغل فيه مئات من العلماء والفلاسفة ، وكان منهم **سدجويك وچود ، ووليام چيمس ، وهنرى برجسون ، وچيلبرت موراى ، وجاردنر مورفى** ، ومؤلاء أسسوا أول جمعية للبحوث النفسية العصبية ، وكان من أهدافها طبقا لما جاء فى بيان تأسيسها إثبات وجود الروح ، وأن الموت ليس نهاية للحياة ، وأنه بعد الموت هناك عالم آخر وخلود ؟

ويبدو أنه كانت هناك حاجة ملحة إلى هذه البحوث مع ظهور الفكر المادى الملحد وانحسار القيم الروحية ، وقد انتشرت الجمعيات النفسية من هذا القبيل فى بلاد العالم المتقدم كفرنسا وانجلترا والسويد وسويسرا وكندا والولايات المتحدة وإيطاليا ، وفى جمعية لندن اشتهر **ستانلى هول وچوسيا رويس ومورتون برنس** ، وكلهم من العلماء الأفاضل فى علم النفس والطب النفسى والفلسفة .

ويذكر تاريخ هذه الحركة النفسية الغيبية أن أول معمل نفسى غيبى أنشىء سنة ١٩٢٧ ، وأشرف على تأسيسه عالم النفس الأشهر **وليام مكدوجال** وعهد برئاسته إلى تلميذه **چوزيف بانكس راين** ، وشغل راين كرسى **الباراسيكولوچيا** بجامعة **ديوك** الأمريكية من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٥٠ ، ويصف **راين** إدراك الظواهر النفسية الغيبية بأنه **إدراك فوق حسى extrasensory perception** ، ولما نشر كتابه بهذا الاسم كانت له شهرة ودوى فكرى كبير .

والكرامات مجال من مجالات علم النفس الغيبى ، والاعتقاد فيها من بين دراسات هذا العلم ، والكرامة لا تكون إلا لولى ، والمعجزة للنبى ، وقد شهد للكرامة والمعجزة فلاسفة وعلماء كبار من بين المسلمين والمسيحيين واليهود ،وشهاداتهم بالقطع ترجُح على تقرير الدكتور بدوى . ولنا أن نتساءل : هل من الممكن أن يكون هذا الكون بما عليه من أنظمة تستهدف غايات بعينها قد وُجِد من قبيل الصدفة أو العبث ؟ وهل هناك من يقول **بالقطع** أن هذا الكون لم يكن له مريد وخالق مبدع ؟ ومثلما نقول إن العبقرية والأفكار الملهمة من خصائص أهل الفكر الكبار ، فكذلك الكرامات من خصائص الأولياء ، وكلاهما العبقرية والكرامة هبة من الله لمن يشاء من عباده .

وإذا كان للدكتور أن يشكك فى أقوال العطار عن كرامات رابعة وتأكيدات العطار لها ، فلماذا لا ينسحب التشكيك على قول العطار عنها أنها بعد أن أُعتقت « اتخذت مهنة العزف على الناى زمناً ، ثم تابت بعد ذلك وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة » ؟ ولماذا يقول عن هذه الرواية للعطار « أنها وإن كانت لا تتفق مع ما أراد أن يرسمه عن رابعة من صورة خيالية مسرفة فإنه ـ أى الدكتور بدوى ـ يقطع بصحتها ،لأن العطار أو غيره ما كان يمكن

أن يذكرها لو لم تكن صحيحة ، لأنها ليست مما يشرف به قدرها ، وهو وغيره من رواة أخبار الصالحين كانوا حريصين كل الحرص على أن يُزوّقوا ما استطاعوا فى ترجماتهم لحياة أولئك الصالحين » !!

ويبدو أن الدكتور قد نسى أن العطار نفسه كاتب هذه الترجمة لم يكن يجد إلاّ الشرف كل الشرف للصوفى فى العزف على الناى . وقد نبيح لأنفسنا أن نذكّر الدكتور بأن مدرسة العطار فى التصوف وفى الشعر الذى كان ينشده فى حلقات الذكر والحَضرة يقومان على الموسيقى ، وأخصها الموسيقى التوقيعية بالدفوف ، والموسيقى المرسلة بالناى . وكان شعر العطار إمّا رباعيات أو مثنويات ، ليسهل توقيعه وتأثيره على السامعين ومصاحبته بالحركات الراقصة المعروفة عند **الدراويش** . ولقد تأثر به **المولوية** كثيراً ، وكان أغلب شعره من بحر الهزج وكان شعر رابعة كذلك من **بحر الكامل** ويسهل إنشاده وتوقيعه ومصاحبته إرسالاً بموسيقى الناى ، ولم يكن من المعقول أن يؤلف العطار **تذكرته** الصوفية ويستشعر أن عزف رابعة على الناى يمكن أن يحرجها تاريخياً ويكتب عنها ذلك إصراراً حتى ولو كان امتهانها على الحقيقة . وكان مقصود العطار من تاليفه **للتذكرة** أن تكون لقراءة إخوانه من الصوفية والمريدين ، ليكون بها اعتبارهم ، وأطلق عليها لذلك اسم **« تذكرة الأولياء وتبصرة الأصفياء »** ، **فهل كان من المعقول أن يكتب عنها ما يفسد عليه هدفه من كتابة التذكرة ؟**

ومع ذلك فلربما ـ ولنستخدم منهج الاحتمال مثل الدكتور بدوى ـ انتُحلت هذه الفقرة ودُست فى التذكرة كما انتُحل الكثير من شعر العطار ،ومن أحاديث الرسول عليه السلام . غير أنى أعتقد أن هذه الفقرة قد كتبها فعلاً العطار ، وما كان يقصد بها تجريحاً أو قدحاً فى رابعة ، وما كان يعلم أن أستاذاً عظيمًا مثل الدكتور بدوى سيستغلها لتشويه سيرة هذه الصوفية المتألهة !!

والعطار لا يمكن أبدًا أن يكون قادحاً لرابعة وهو العابد الصالح ابن الصالحين ، والذى كان قلبه منذ طفولته الباكرة يطفح بحب أهل الله من الصوفية ، وقد كتب فى مقدمة تذكرته أنه يريد بهذا الكتاب أن ينفعه فى الآخرة ، وتكون له به الشفاعة يوم القيامة ،

ووصف كتابه هذا بأنه لايرى فى الدنيا ما هو أحسن منه من تاليف بشر ، وأنه به ستبقى ذكراه فى الدنيا فيدعو له من يقراه .

فهل من الممكن بعد ذلك أن يكون قَصْد العطار من إيراد مهنة رابعة أن يستخلص منها الدكتور بدوى أنها كانت من بنات الهوى ؟ ولم أجد فى الحقيقة ذريعة تذهب بالدكتور هذا المذهب فى التخريج إلا أن يكون ذلك ما يمليه على الدكتور مذهبه الوجودى ، ولقد تبينت تأثر الدكتور بدوى الشديد بكتاب **لسيمون دى بوفوار** رفيقة سارتر على الدرب ، واقتباسه منه . هذا الكتاب هو **الجنس الثانى Le Deuxieme Sexe** ، حيث تقول سيمون مقالة الدكتور بدوى نفسها ضمن باب « **البغايا والمحظيات** » : فقد كانت هناك دائماً صلة غامضة بين **البغاء والفن** بحكم هذا الارتباط الغامض بين الجمال والملذات الجنسية . وتقول **سيمون** فى باب « الصوفيات » : إن الحب كان رسالة المرأة وتخصصها الأسمى . وعند ما توجهه مباشرة نحو رجل من الرجال فإنها فى الحقيقة تبحث فيه عن الله ، فإذا لم تواتها الظروف وحيل بينها وبين أن تحب إنسانًا على السوية ، أو إذا فشلت فى حبها ، فقد تختار أن تتوجه بحبها مباشرة لله ، ويستغرقها حبها له عن كل الدنيا . ومن الرجال من اكتوى أيضاً بحبه لله ، غير أن المحبين لله قلة لو قيسوا عددًا بالمحبات لله . وتجربة النساء فى ذلك لها طبيعة عاطفية خاصة ، فالمرأة ـ كامرأة ـ فى طبيعتها أن تركع إذا أحبت ، بينما الرجل يحب وقد زانه حبه وكأنه المجد يكلله ، والمرأة والرجل فى حبهما يتواصلان مع الحضرة الإلهية بالرموز ، والرجل يستفتى قلبه فى حبه ، والمرأة تتسامى بحبها الأرضى وترتفع به إلى السماء . وهى فى حبها تبدو كالمسوسة الوالهة بالحب **erotomaniaque** ، فما أشبهها بالمرضى الذين يشكون هوس الحب . وتختلط على الصوفيات الصورة الإنسية للذكر بالصور الإلهية حتى لتخاطب الواحدة الله وكأنها تتوجه بخطابها لرجل .

وتقول **سيمون** . إن علماء النفس متفقون اليوم على أن هوى الحب يمكن أن يظهر فى شكل أفلاطونى ، كما يكون أيضًا له شكل جنسى صريح ، ولذلك فإن المرأة المتصوفة قد لا تربط فى حبها لله بين توجدها له وبين ملذات جسدها .

وتقتبس **سيمون** من مأثورات **القديسة تريزا** قولها : إن قلبها ينزف لأن الله قد اختار أن ينفذ إلى داخلها ويشعله بالمحبة له ، وإنها لتتألم لذلك أشد الألم .

وتقول **سيمون** : ولربما تضطر المرأة المتصوفة ـ عجزًا منها عن التعبير إلا بلغة أرضية ـ أن تستخدم مصطلحات المحبين ، وتتحدث كما لو كانت تهب نفسها إلى رجل من أهل الأرض وليس إلى الله ، وقد يتسبب ذلك فى الكثير من النقد للغة التصوف عند الحديث عن هذه اللغة فى مجال المحبة الإلهية ، فمثلا تشكو القديسة **انچيلا الفولينية** أنها قد هزلت وشحب وجهها وصار قلبها رهيفًا لا يحتمل ، وأنها صارت تريق مدرار الدموع . وتلك أعراض نعرفها لبعض المحبين الوامقين ولا يمكن أن نصفها بالروحانية ، إلا أنها فعلاً كذلك وإن كان الوصف بما نعرف من الكلمات المرتبطة بالشهوات الحسية . ولقد كانت القديسة **تريزا** تتهالك وتسقط على الأرض وكانت تنبطح باكية ومتشنجة ، ولو لم تكن هى الصوفية التى نعرف عنها استواء الطبع لقلنا إنها مريضة بنوع من أنواع الهيستيريا .

ذلك إذن رأى **سيمون دى بوڤوار** الوجودية ، ومدرستها قريبة من مدرسة الدكتور بدوى ، فماذا يقول الدكتور بما يشبه ذلك أو يتطابق معه ؟ يقول : لابد لتفسير الانقلاب الروحى عند رابعة أن تكون قد عانت تجربة يائسة من دنيا الناس ، ولابد أن نفترض هنا خصوصًا تجربة حب مخفق يستشرف إلى سراب زواج أو ما إليه . ويفسر الدكتور بدوى بذلك استخدامها لألفاظ المحبين فى مجال الحب الإلهى من مثل قولها إلهى ! أنارت النجوم ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه ! ـ وقولها · فليت شعرى أقبلتَ منى فأهنأ ! ـ وإنشادها للشعر الذى تقول فيه :

يـــــــا سرورى ومنيتـى وعمادى	وأنيسـى وعـــــدتـى ومـــــرادى
أنت روح الفـــؤاد ، أنـت رجـــائى	أنت لى مـــــؤنس وشـــــوقك زادى
أنت لـــولاك يـــا حيـــاتـى وأنسى	مـــــا تشتت فى فسيح البـــــلادِ
كم بـــــدت منـــــة لـك عنـــــدى	من عطـــــاء ونعمـــة وأيـــادى
حبـــك الآن بغيتـــى ونعيمـــى	وجـــــلاء لعين قلبى الصـــــادى
ليس لى عنك مـــــا حييت بـــــراح	أنـت منـى ممكن فى الســـــــوادِ
إن تكـن راضيـــــــــاً علىّ فـإنـى	يـا منـى القلب قـــد بـــدا إسعـــادى

ويقول الدكتور بدوى . « والطابع الحسى ظاهر بجلاء فى هذه الأبيات ،ويلوح منها أن الأمر كان لايزال مختلطًا عليها ، لأن الخطاب يصلح هنا أن يتجه إلى شخص حسى كما يصلح بصعوبة أن يتجه إلى الله ، بل هى فى هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنهـا تخاطب الله ، فتحدثت عن حبيب لها يلوح أنه كان متنقلاً ، فاضطرت هى تحت ستار الترحّل لكسب العيش بالعزف ـ كما هى الحال بالنسبة للموسيقيين عامة فى تجوالهم لإحياء حفلات فى مختلف البلدان ـ أن تلاحقه فى الأماكن التى كان يتنقل بينها ، ولهذا اضطرت إلى التشتت فى فسيح البلاد ، لعل ذكرى هذا الحبيب الذى يمكن افتراض أنه كان العلّة فى إحداث خيبة الأمل عندها فى الحياة والناس ، قد اختلطت فى ذهنها آنذاك فعبرت بهذه الكلمات المشبوبة الحسية عن تجربتها معه وإن كان الخطاب موجهاً إلى الله ، ذلك أنها لن تستطيع أن تتحدث عن حبها له إلا إذا صدر ذلك عن تجربة حية عانتها ، وتلك كانت تجربتها العنيفة الحية ، فحدثت هنا ظاهرة القلب للموضوع مما يحدث دائماً فى أمثال هذه الأحوال إذا كانت العبارة مخلصة وليست مجرد صياغة لفظية خالية من كل حياة .

وينصح الدكتور كل مؤرخ إذا صادف إخلاصاً فى التعبير عند الصوفى أن يفترض وجود تجارب حية صدر عنها ، فَقَلَب موضوعها من المحسوس الإنسانى إلى الكائن الأعلى الإلهى . وواضح من هذا الكلام استماتة الدكتور أن يطابق بأى شكل بين حياة رابعة العدوية وبين ما يذهب إليه من مقولات وجودية ، ويفترض لذلك أن كل ما يقوله الصوفى المخلص من باب المحبة الإلهية لابد أن يكون له أصل فى تجاربه الحسية ، وعلى ذلك فإن كل طائفة المحبين من الصوفية لابد قد كانت لهم تجارب فى الحب يائسة صرفتهم عن الحس الإنسى إلى الحب الإلهى ، وكأن هؤلاء لم يكن فيهم الذى كان يجد سعادة نفسه فى الوقوف على حقائق الأشياء وماهيتها وصلاح الحال فيها ، ويبصر الموجودات فى ذاتها وخالص جوهرها ، ويعلم عن المبدع الأول وشرفه ما هو عليه من الفضل والعزة والعلو والكمال ، ويعرفه ويتحصل له بمعرفته السرور والفناء فى حبه ، ويعالج أخلاقه ليكون شبيهًا بالخير المحض ، ويصرف عن نفسه شواغل الجسم ، ويترقى فى معراج المحبة والشوق إلى ذلك الكمال الذى هو الله ، فيبصر من نوره ، ويقع فى لذة المشاهدة وقهر العشق ، وتلك حالة عرفها الفلاسفة المتألهون ، وعاناها الصوفية العارفون ، وطريقتهم تزكية النفس بالجسد فى احتمال العبادات ، وملازمة الأذكار ، والسلوك بأسرار الحروف .

وإننا لنجد نفس الأفكار عند الدكتور بدوى وعند سيمون دى بوفوار ، فتقول سيمون : إن المرأة الصوفية فى محبتها لله لا يمكن إلا أن تكون قد عانت فى أول أمرها من رغبات عشق تتحول بها إلى معشوق من الرجال ، ثم تتجرد عندها عند الإحباط ، وتكون محبتها لله خلاص لها من كل محبة أرضية تلحق بها المذلة أو العار ، وإن القديسة تريزا لتجهد لكى تتوحد بالله وأن تعيش هذه الوحدة فى جسدها .

والدكتور بدوى يضرب المثل صراحة بالقديسة تريزا ويشبّه بها رابعة وينقل عنها أيضا قولها : « من ناحية كان الله يدعونى ، ومن ناحية أخرى كنت أشارك فى الدنيا ، وكنت أجد فى الأمور الإلهية نعيماً كبيراً ، بيد أن قيود الدنيا كانت لاتزال تأخذ بمخنقى حتى ليبدو لى أنى كنت قد أردت أن أحالف بين هذين الضدين برغم ما بينهما من عداوة : الحياة الروحية بنعماتها وحياة الحواس بشهواتها » .

وهذه المقارنة بين الصوفية **المسلمة** والأخرى **المسيحية** هى التى تجعل الدكتور يصوغ حياة رابعة على منوال **تريزا** ويشابه بين حياتيهما . وذلك التحليل لسيمون دى بوفوار لحياة تريزا هو الذى يستلهم منه الدكتور تحليله لحياة مزعومة لرابعة يفترضها افتراضاً وينشئها إنشاءً ليناسب بين مقولته الوجودية وبين هذه الصوفية المسلمة . وخطابه الذى يتوجه به فى الكتاب هو خطاب موجهٌ للمستشرقين أكثر منه للمسلمين والعرب . ومقارناته قد تقنع المستشرقين إذ يحيل فيها لأمثال تريزا وبولس وأوغسطين ، ولكنها لا تقنعنا يقيناً ، وذلك أننا لا نجد مشابهة بين حياة رابعة وحياة تريزا . وقد نعذر الدكتور إذ يجعلهما متشابهتين قسرًا ، ويقارن بينهما من بعد ذلك ، ولكننا لا نعذره فى مقارنته للانقلاب الروحى عند بولس ورابعة ، أو عند أوغسطين ورابعة ، **فبولس** كان قبل اعتناق المسيحية مؤمنًا شديد التعصب لليهودية ، ولم يكن منحلًا داعراً أو فاسقاً شهوانيا ، وعلى ذلك لا نسمى انصرافه عن اليهودية إلى المسيحية انقلاباً روحيا ، ولكنه تحول عقدى وليس روحانياً . وكذلك فعل **أوغسطين** ، فقد كانت حياته السابقة على اعتناقه المسيحية متمشية مع وثنيته ، فكان فى الوثنية المفكر المجلّى ، فلما تحول إلى المسيحية نبغ فيها نبوغه فى الوثنية ، وصار علماً من أعلامها . والخلط الذى يتردى فيه الدكتور ويجعله يشبّه رابعة بتريزا أن هذه وتلك كانتا من المحبات لله ، **والمحبة لله فى الإسلام تختلف عنها فى المسيحية** ، وذلك ماسنتناوله فى الباب القادم إن شاء الله .

الفصل الرابع

محبة الله فى الإسلام و فى المسيحية

★★★

المحبة فى اللغة العربية أصدق اشتقـاقًا منها فى اللغات الأوروبيـة ، واسم المحبة أو الحب سواء كان **love** أو **amity** فى الإنجليزية ، أو **amour** فى الفرنسية ، أو **amore** فى الإيطالية أو **amor** فى اللاتينية، أو **liebe** فى الالمانية ، فإنه لا أصل له ينسب إليه ، بينما فى اللغة العـربية نسبوه للحبّ وهـو اسم صفاء المودة ، لأن العـرب يقولون فى صفـاء بياض الأسنان حبب الأسنـان ، والحباب ما يعلو الماء عند المطـر الشديد ، وعلى هذا كـانت المحبة ، فهى غليان القلب واهتيـاجه عند العطش إلى لقاء المحبوب . وحَبـاب الماء معظمه ، وسميت المحبة بـه لأنها غايـة معظم ما فى القلب المحب . ويقـال أحب البعير بمعنى برك فـلا يقوم ، وهكذا المحب المقيم على حبه . وقيل الحب فى اللغة هو القرط للزومه الأذن ، وحَبَّة القلب ما به قوامه ، ومثلما الحبة لباب النبات فكذلك الحُب لباب القلوب والحياة .

★★★

والمحبة عند المشايخ إيثار المحبوب ، أى اللـه سبحانه على كل ما عـداه ، وموافقته فى المشـهد والغيبة ، ومحو الصفـات الإنسية للمحب الصوفى ، وإثبات المحبوب أى اللـه بذاته ، وفى ذلك يقول **الجنيد** فيلسوف لصـوفية والذى قـام بتعريف مصطلحـات التصوف إن **المحبة لله** هى دخول الصفات الإلهيـة على البدل من صفات المحب الصوفى ، فـأشار بذلك إلى استيلاء ذكر الله المحبوب على قلب المحب الصـوفى ، حتى ليكون الغالب على قلبه ذكر صفاته تعالى متغافلاً بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها .

★★★

والمحبة لله تعظيم له سبحانه ، فلا يستجيز الصوفى تعظيم سواه ، ولا يقر من دونه ، ولا يصبر عنه، ويؤثر رضاه ، ويهتاج إليه ، ويستأنس بذكره له فى قلبه .

ومحبة الحق سبحانه للعبد إرادته لإنعـام مخصوص عليه كما أن رحمتـه له إرادة الإنعـام ،فالـرحمة أخص من الإرادة ، والمحبـة أخص من الـرحمة ، وإرادة الله تعـالى لأن يوصل إلى العبد الثواب والإنعام تسمى رحمة ، وإرادته لأن يخصه بالقرب والأحوال العلية تسمى محبة .

★★★

والحب أو المحبة التى يقول بها **الصوفية** تحدثوا فيها على طريقة الفلاسفة فصنفوها أصنافـاً وجعلوها مراتب وعـرّفها فقالوا إنها الموافقـة ، ثم الميل ، ثم المودة ، فيكون الهوى ، فتكون الخلـة ، ثم المحبة ، فالشغف ، فالتيم ، فـالوَلَة ، ثم العشق . فالمرتبـة قد تُسلِم للتى بعدها ، وقـد يستمـر الترقى حتى يتحقق العشق وهـو تمام المحبـة ومنتهاهـا . **ورابعة العدوية** كانت لها هذه المرتبة فهى المتعشقة لله تعالى .

ولقد أخطأ **سميح الزين** فى كتـابه عن رابعـة حيث قال : إن الحب الإلهى كما اعتقـده الصوفية لايعدو كونه وجهاً من الوجـوه المغلوطة عن حقيقة حب الله ، لأنه خرج عن مفهوم التقديس والخشـوع والذل لـلإله الـواحد الأحد ، وهـذا ما قـاد أصحابه إلى الـزلل والخطأ ومخالفة أوامر الله ونـواهيه وبالتالى إلى الابتعاد بالكليـة عن العقيدة الإسلامية ، وذلك لأن وقوف مخلوق مع الخالق واتخاذه محبوباً وعشيقاً له على نفس الأسس التى يحب ويعشق بها مخلوقـاً مثله ، إنما هو خلع لطـاعة الله ،ومخالفـة للعقيدة ، وخروج على ابسط قـواعد المحبة الربانيـة الصادقة التى هدانا إليها القرآن الكريم .. ولم يكن فى الـدعوة (الإسلامية) أى أساس لحب بين عاشق ومعشوق كما فى دنيا الأرض تمرغ بوحل عشق الجسد وترابه .

وواضح أن مشكلة فهم الحب الإلهى أو المحبة الصوفية فى الإسلام عند هذا الكاتب هى مشكلة اللغة والتعبير بها عن المشاعر الإنسانية للـه سبحانه ، ولقد سبق أن ظهرت مشكلة اللغة فى الدين عموماً فى الخلاف بين أهل الظـاهر وأهل الباطن ، وتفسير الآيات التى وردت

بها صفات تشبيهية عن الله تعالى ، من مثل أن يكون لـه يد، وأن يأتي ، وأن يجلس ، وأن يتكلم ، ويحب ،ويريد . إلخ . ومشكلة التعامل مع لغة الصوفية هي قضية هذا العلم الأولى ، وهي قضية كل اللغة في مجال الميتافيزيقا أو الإلاهيات . وإلا فكيف نفسر الآية الكريمة : ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾ ، والحديث الشريف : « **من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه** » ، والحديث القدسي : « **ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً** » ؟ فكيف لعبد محب لله تعالى إلا أن يقول مثل ذلك في محاولة لإدخال المعنى اللغة التي يعرفها والتي مؤداها تجاربه الحية اليومية . والمحبة عند الفلاسفة المتالهين حال شريفة يشهد بها الحق سبحانه . للعبد فأخبر عن المحبة له ، والحق سبحانه وصف نفسه بأنه يحب العبد ، ووصف العبد بأنه يحبه سبحانه وقالوا محبته تعالى للعبد من صفات فعله ، بينما محبة العبد له سبحانه حالة يجدها من قلبه ، وتلطُّفٌ عن العبارة .

★★★

ولقد قسَم الصوفية المسلمون المحبة أقساماً ، فجعلوا خمسةً منها مقامات للمحبين السالكين ، أولها الألفة ، ثم الهوى ، فالخلة ، ثم الشغف ، فالوجد . وجعلوا الخمسة الأخرى مقامات للعشاق دون غيرهم ، وهي الغرام ،ثم الافتتان ، فالوله ، ثم الدهش ، فالفناء . فكأن الوَجْد أعلى مقامات المحبين ، بينما **الفناء** هو أسمى ما يصل إليه العاشقون .

ورابعة كانت **متوجدة وفانية في الله** ، فكانت شهيدة عشقها ، ومن ثم كان اشتهارها باسم **شهيدة العشق الإلهي** الذي أوردها به **الدكتور بدوي** ، وسبقه إلى ذلك مؤرخو سيرتها . والصوفية عندما يتحدثون عن كل ما سبق من المدارج أو المراتب أو الصنوف يسلكونها جميعاً ضمن المحبة ، باعتبار المحبة شاملة لها ، ويقولون إن الحب إما أن يستعمل المحبة أو تستعمله المحبة ، فإن استعملها وكان فيها كسب واختيار سمي محباً على الاصطلاح . وإن استعملته المحبة فلا يكون له فيها كسب ولا اختيار ولا نظر لنفسه فهو **العاشق** .

ورابعة كانت العاشقة لله لذاته سبحانه ، وحبها له سبحانه ما كان لخوفها من عذابه ،

أو لرجائها فى ثوابه ، ولكنها تسامت بمشاعر العشق حتى كانت فى حبها أو عشقها المعلمة والمربية ، فكان الصوفية يسعون إلى مجالسها ويصدقون بابها ، ليسمعوا لها ويأخذوا عنها وتدعو لهم بالخير .

وكانت رابعة صادقة لا تدّعى المحبة ، وعشقها لله أذواها وأدْوَاها واستهلكها ، فكانت **أول شهداء العشق الإلهى فى الإسلام** ، واستحقت مرتبة الشهادة ، وأن يقرن اسمها بالحب والمحبة ، فلقد كانت جميلة فى سمتها ونفسها وسلوكها ، والله تعالى جميل يحب الجمال ، والمحبة هى ميل الجميل إلى الجميل ، والشىء ينجذب إلى أصله وجنسه كما يقولون ، وينزع إلى أنسه ووصله ، وليس انجذاب المحب إلى جمال المحبوب إلا أنه وجد فيه صنو الجمال ، ووجود الجميل دليل وجود الجمال المطلق الذى نقيسه إليه ، وليس الجميل المطلق إلا الله تعالى ، والجمال الحقيقى صفة أزلية ، شاهده الحق سبحانه فى ذاته أولاً مشاهدة علمية ، فأراد أن يراه فى صُنعه مشاهدة عينية ، فخلق العالم كالمرآة هى عين ذاته . والحب الإلهى وراء حب العقلاء ، وحب العقلاء قائم بهم فيحبونه بحبه تعالى لهم ، وذلك معنى قوله تعالى . ﴿ **يأتى بقوم يحبهم ويحبونه** ﴾ .

والحب الإلهى فى التصوف الإسلامى هو بمثابة الروح ، والتصوف هو فلسفة الإسلام الروحية ، والتصوف النظرى والسيكولوچى هما مصدر الدهشة للمستشرقين ، ولهذا يقول **الدكتور بدوى** أنه من الواجب البحث فى أصول الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، وفى أقوال رابعة بالذات ، حيث أنها كانت ضمن الجيل الأول من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا فى التصوف نغمة الحب الإلهى فكانت بمثابة الروح الجديدة كل الجدة على التطور العام للحياة الروحية فى الإسلام . ويقول الدكتور إنه يجب البحث خصوصاً فى التأثير المسيحى .

ونحن نرى أن الجواب على هذا الاقتراح مرفوض من أساسه ، وذلك للاختلاف الجذرى بين المحبة الإلهية فى الإسلام وبين هذه المحبة فى المسيحية ، لسبب جوهرى هو اختلاف طبيعة المحبوب وهو الله سبحانه وتعالى فى الحالين ، واختلاف هذه الطبيعة يترتب عليه اختلاف الحب المتوجه منه تعالى أو إليه .

والإسلام دين توحيد ، بمعنى أن المسلم يشهد أن الله واحد لا تنقسم ذاته ، والتوحيد يعنى نفى التشبيه عن حقه وصفاته سبحانه ، ونفى الشريك معه فى أفعاله ومصنوعاته .

والمسيحية تقول بالتثليث، أى الإله الواحد فى ثالوث هى الأقانيم : الآب والإبن والروح القدس ، فـالآب هو الله أصل الـوجود ، والإبن هو الكلمـة ويمثل العقل ، وروح القدس هى الحياة ، لأن الروح هى الحياة ، فإذا لم يتصف الله بالعقل والحياة فلن يكون موجوداً .

ويقول **القديس بولس** إن يسوع المسيح هـو الرب الواحد ، ابـن الله الوحيد ، مـولود ولكنه غير مخلوق ، وهو إله حق من إله حق .

ومن هنا فقد أدخلت المسيحيـة فى التفكير الدينى مبدأ لم تسبقها إليه أىّ من الـديانات السابقة عليها ، وخاصة اليهودية ، حيث أن التوراة تقضى فى أكثر من خمسين موضعاً فيها **بأن الله واحـد لا شريك له ولا مثيل** . وهذا المبـدأ الذى أدخلته المسيحيـة هو « **التجسد الإلهى** » ، ويعنى أن الـلامتنـاهى والمتناهـى يمكن أن يجتمعا فى شخص واحـد وهـو فى المسيحية شخص المسيح .

وبينما نجد لذلك أن محبـة الصوفى المسلم لله هى نار تحرقه وتفنيه عن نفسه وتبقيه بالله ، فإن المحبة المسيحية تعنى إمكان الاتحاد بالله .

والصوفى المسلم لن يجد خلاصه إلا إذا كف عن الوجـود واستغرقته الحقيقة الإلهية ، والفناء الصـوفى فى التصوف الإسلامى هو تبـديل الصفات البشرية بالصفـات الإلهية فيما عدا الـذات ، وكلما ارتفعت بالمجاهـدة صفة بشريـة عن الصوفى حلّت محلها صفـة إلهية ، وبذلك وحده يتحقق معنى الحديث القدسى فيكون الحق هوسمعه وبصره .

وفى حـالة رابعـة العـدوية نجـدها قـد فنيت عن أهـوائهـا ، وتركت التكـالب والتعلّق بالأسباب فى جلب المنـافع ودفع المضار ، كما لو كانت قـد غُيّبت فى رحم ، أو كما لو أنها قد تحولت طفلاً رضيعاً فى المهد ، وفى ذلك يقول **السرى السقطى** : إن الصوفى الفانى لو ضُرِب وجهه بالسيف وهو فى حاله لما أحس بالله » . وقد ذكروا أن رابعة كانت فى الصلاة فسجدت على البـوارى ، فدخلت قطعـة قصب فى عينهـا فلم تشعر بها حتى انصرفت من الصـلاة ، وكأن معنى الفناء أن يستحيل الصوفى إلى روح خـالص ، ولذلك قد سموا طائفـة الصوفية باسم **الروحانية** ،ومعناه أنهم الفئـة التى يبلغوا فى تعبـدهم لله وتـركهم للدنيـا أن تَضمُر

أجسادهم ، وتشف أرواحهم ، فإذا أدركهم الموت كانوا الأرواح الهائمة المتعلقة بعرش الله سبحانه .

وقد صنف الصوفية **الموت** أصنافاً ، فمنه **موت أحمر** يكون به فناء النفس عن شهوات الجسد ، **وموت أبيض** به يتنور الباطن بالجوع فيبيض وجه القلب ، **وموت أخضر** تكون به القناعة فيخضر عيش الصوفى ، **وموت أسود** يكون به احتمال أذى الخلق والفناء فى الله لشهود الأذى منه ، برؤية فناء الأفعال فى فعل محبوبه .

وأما فى المسيحية فإن الموت لم يعد نهاية أو خاتمة بل أصبح مجرد عرَض أو حادثة ، وأصبح موت الذات بمثابة حياة جديدة تبدأ هنا والآن ، وتنتشر إشعاعاتها فتعم كل الدنيا . وليست الحياة فى الدنيا زمانية وإنما الحياة الخالدة هى هنا والآن **hic et hunc** ، مادامت الكلمة الإلهية قد تجسدت وأقامت بيننا ، وبذلك فقد تم الصلح بين السماء والأرض ، والروح والجسد ، وبانتصار المسيح بقيامته على الموت فقد عاد من القبر ليدعو إلى ديانة الحب وينادى بالمحبة ، ومن ثم كان طابع المحبة المسيحية هو الإحسان ، كالنور الإلهى الذى يفيض من الحق على الأبرار والأشرار على السواء .

ولا تعنى المحبة المسيحية الفناء عن الإنسى للبقاء بالإلهى كما فى الإسلام ، ولكنها زواج المسيح والكنيسة ، وفى حالة **القديسة تريزا** فقد تزوجت صراحة الكنيسة ، أو تزوجت المسيح ونذرت نفسها له على الحقيقة ، بينما رابعة شبيهتها فى تقدير **الدكتور بدوى** ـ لم تتزوج الله ، وكان اعتسافاً من الدكتور بدوى أن يتحدث عن رابعة حديث تريزا عن زواجها بالمسيح أو بالكنيسة ، حيث يقول : إن رابعة نذرت نفسها لله ، فإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحبيبها الوحيد هو الله ، فإنه ما كان لها أن تقترن بغير الله ؟ !

وهكذا لايبنى الدكتور نظريته فى رابعة على وعى سليم بالفروق بين التصوف المسيحى والتصوف لإسلامى ، وإنه لخَرَق أى خَرَق أن يحاول أحدهم ردّ التصوف الإسلامى فى أصوله إلى المسيحية ، أو يربط بين رابعة التى توفيت سنة ١٨٠ م وتريزا التى توفيت سنة ١٥٨٢م !!

فما هى حكاية **تريزا ورابعة** ؟ وهل هما كما قال **الدكتور بدوى** مؤكداً « **ما أقوى الشبه بين هذه الصوفية المسلمة وبين تلك الصوفية المسيحية** » ؟

سنرى ذلك فى الفصل القادم .

الفصل الخامس

تريزا الأفيلية ورابعة العدوية

★★★

إن مقارنة رابعة بتريزا الآبلية كما يقول الدكتور بدوى تجلو المشابهات بينهما ، ولا ادرى بدءاً لماذا أطلق الدكتور بدوى على تريزا اسم الآبلية ، وذلك ان صحيح الإسم هو الأفيلية ، نسبةً إلى القرية التى ولدت بها وهى أفيلا **Avila** فاشتهرت من ثم فى غير بلدها أسبانيا بانها **Thérése D'Avila** وفى بلدها بانها **تريزا اليسوعية Teresa de Jesus** .

ولا أدرى أصلاً لماذا المطابقة بين رابعة وتريزا حيث أن كلاً منهما كانت فى واد ، ومع أنهما تحدثتا فى المحبة إلا أن حديثهما عنها كان مختلفاً تماماً .

وكانت حياة رابعة وحياة تريزا مختلفتين ، وكذلك شخصيتاهما .

ورابعة بالإجماع لها حس وجدانى عال جدًا ، ولغتها هى الفصحى ، وأقوالها تتميز بالطلاقة والوضوح ، وكلامها منساب ،وأفكارها متصلة ، وتريزا وإن كانت مؤلفة كُتب إلا أن أسلوبها فيها هو أسلوب الحديث العادى ، ولغتها هى اللغة الدارجة السائدة ، ولم تحاول أن تكتب بالوعى والطلاقة اللذين كانت عليهما كتابات القديس أوغسطين مثلاً ورغم أن كتاب **السيرة الذاتية** الذى ألفته تريزا هو من طراز كتاب **الاعترافات للقديس أوغسطين** إلا أنه لايرقى إليه أسلوباً وموضوعاً .

ولا تحاول تريزا أن يكون لها تكنيك معين فى الكتابة ، وتعتمد على السرد المرسل ، وأفكارها متقطعة ، وكما نقول تكتب بالبركة ما يعن لها من خواطر ، وعلى أيام متفرقة ، وقد تتذكر واقعة فتكتب عنها ، ثم تسقطها من حسابها لتعود إليها بدون مناسبة فى صفحات تالية ، ربما كانت فى وسط الكتاب ، أو نهايته ، دون مبرر لذلك .

ولو قارنا بين تريزا ورابعة فلسوف نجد من ناحية أن تريزا راهبة علّمت نفسها من الكتب، وجعلت حياتها فى الكتاب المقدس، وكانت تخطىء فى فهم الكثير من أجزائه، وتكره أن يُظَن بها الجهل فتخجل أن تسأل عما يعسن لها، ولكنها سرعت فى **التأمل** أو ما تسميه **الصلاة العقلية**، والتأمل هو طريقها فى الاستنباط، وفى التوجه إلى الله، والاتحاد به، وهو محور حياتها الروحية، وهو خصوصيتها فى التصوف، وكان التأمل قوتها فى الشدائد والمحن ومعاركها ضد الشيطان. ورابعة أيضاً كانت كثيرة الصلاة، وكانت إذا صلّت انخرطت فى صلاتها بالكلية فاستغرقتها، وكانت تنصح مريديها بأن يتوبوا إلى الله ويطيعوه ويصلحوا مطعمهم وأن يكون ذلك بدافع المحبة له لا خوف العقاب ولا طمعاً فى الثواب.

إلا أننا أمام تريزا نجد نسقاً تعليمياً واضحاً، فهى ابنة الكنيسة بلا ريب، ولقد تزوجت من الكنيسة أو من المسيح، ونذرت نفسها لخدمتها، وتفرغت فى أواخر أيامها لإنشاء الأديرة وتعليم البنات الدين، وكانت المعلمة والمربية.

ورابعة لها **معراج روحى** انتهى بها إلى التجرد والتجريد. ولم تكن كذلك تريزا، وهى تقول إنها ما كانت تقوى على التفكير المجرد، وأنه ليس من طبعها أن تجرّد الأمور، أو أن تتفلسف عليها، وعلى ذلك فلم يحدث أن كانت لتريزا **شطحات صوفية** كما لرابعة.

وتريزا من عائلة كبيرة إسماً ورسماً، فأبوها كان من الأعيان، وإخوتها كانوا كُثُراً من الجنسين، وتعليمها كان فى الدير منذ طفولتها الباكرة، وكان نموذجها فى التعبد أمها والعذراء، ولمّا ماتت أمها توجهت بكليتها إلى صورة العذراء وهى بعد فى الثالثة عشر من عمرها، وشكت إليها يتمها، وتوسلت إليها والدموع تنهمر من عينيها أن تكون لها أمًا وهاديًا ومعينًا. وفى السابعة فكرت وأخوها أن يهربا إلى المغرب العربى ليستشهدا من أجل المسيح، ويقتلهما المسلمون، ولما اكتشف عمهما الأمر وأفشل خطتهما جمعت أترابها وكونت منهم مجتمعاً كنسياً صغيراً وكأنهن فى الدير، وأخذن يمارسن التقشف ويتمرسن بالعبادة.

وتريزا فى مراهقتها انكبت على قراءة القصص عن الحب، وذلك ما كان يعذبها من بعد،

وقد ندمت على ذلك . وطبيعى أن تدفعها تلك القراءات إلى طريق تتمنى فيه أن تحب ، ولقد استشعرت فى كثير من أوقات حياتها أنها ترغب أن تحب وأن تكون محبوبة ، فكانت تسمح لنفسها أن تحادث بعض الشبان من أقاربها أو الشخصيات التى تعرفت بها وهى راهبة ، وبالنسبة لراهبة مثل تريزا صارت رئيسًا لدير ، ونُشرت لها المؤلفات الدينية ، فإن ذلك كان زلة كبيرة كثيرًا ما استغفرت عنها ربها ، وكثيرًا ما توسلت أن يغفرها الله لها .

ولم يكن كتاب تريزا فى **السيرة** ، أو كتابها **طريق الكمال** ، أو كتابها **الخواطر فى محبة الله** ، إلا اجترارات لوقائع حياتها ، وترديدًا مستمرا للندم وطلب المغفرة ، وهذا ما جعل بعض النقاد يفسرون هذا الاتجاه عندها بأنها ربما قد عرفت الإثم وتوغلت فيه ، وساعد على ذلك وصفها لنفسها بأنها حقيرة ، وأنها من أسوأ النساء ، لا تُستحق أن تكون فى معية الله والمسيح وإنما فى صحبة الشيطان ، ومنافقة خدعت مَنْ حولها فيها ، وأن الله كان يستر مساوئها ويظهر فضائلها .

وقد قوّى عند النقاد ميلهم إلى اعتبارها من الخاطئات التائبات أنها فى كتابها **السيرة** نوهت **باعترافات القديس أوغسطين** التى يقول فيها أنه غرق فى شهواته الجسدية ، وكان يحب الممارسات الجنسية وأنه اتخذ عشيقة له فلما تركته بعد سنوات ظل يتحسر عليها إلى أن عثر على عشيقة له ثانية . وقرأت تريزا ذلك فتقول « فكأن الرب دبر هذا الأمر لأنى ما سعيت للحصول على الكتاب ولا كنت رأيته ، وكنت أكرّم القديس أوغسطين بصفة خاصة ، لأن أول دير تعلمت به كان يخص رهبانيته ، وقرأت أنه كان من قبل خاطئاً وكنت أجد العزاء الكبير فى القراءة عن القديسين الذين تابوا بعد أن تردوا فى الخطيئة ، وأحسبنى أجد فى هذه القراءة مساعدة كبرى لى ، وأخال أن الرب كما غفر لهم سيغفر لى أيضاً ، وما كان يضايقنى سوى أمر واحد ، وهو أن الرب قد دعا هؤلاء مرة واحدة فاستجابوا له ولم يعودوا إلى السقوط ، وأما أنا فقد دعانى مرات كثيرة ، وكنت استجيب وأعود إلى الخطيئة وهذا هو ما كان يكدرنى ، وكلما سقطت تذكرت حب الله لى فأستعيد شجاعتى وأتوب ، وياطالما ارتبت فى نفسى كل الارتياب ، ولكنى ما يئست أبدًا من رحمة الله » .

وتقول تريزا عن **اعترافات القديس أوغسطين** « منذ بدأت أطالع الاعترافات رأيت

نفسى فيها فشرعت من فورى استشفع هذا القديس ، وحين بلغت الفقرات التى يحكى فيها عن ارتداده ، وطالعت كيف سمع ذلك الصوت فى الحديقة ، خلتنى أسمع هذا الصوت بقلبى ، وأن الرب أسمعنى إياه ، فبكيت بشدة ، وغرقت فى دموعى وشعورى بالندم .

والمثير فى كتابها **السيرة الذاتية** أن الفقرة الأولى منه بمثابة دعوة حارة للقارىء أن يواصل القراءة ، وخاصة إذا كان يعانى من مشاعر الذنب ، وأنت يا عزيزى القارىء لن تملك نفسك وأنت تقرأ تريزا تقول « لقد تلقيت الأمر الإلهى أن أعرض طريقتى فى التصوف التى تقوم على التأمل وشرح الأنعام التى خصنى الله بها ، وإنى لأود أن أروى عن خطاياى الكثيرة ، وأقص عن حياتى بالتفصيل والوضوح ، وإذن لكان فى ذلك كل العزاء الروحى لنفسى المعذبة . وإنى لأرجو من يطالع قصة حياتى هذه أن يتذكر جيداً أن حياتى كانت من السوء بحيث أنى لم يكن يكفينى لأعدل عنها أن أقرأ أخطاء القديسين وتوبتهم » ، إلا أن تعجب لها ومنها وتصدق حكاية ولوغها فى الإثم .

تلك وغيرها كانت الفقرات التى أثارت النقاد ، ويبدو أن **الدكتور بدوى** كان منهم فاعتبرها من الخاطئات ، ووجد فيها نموذجاً يطبق عليه فلسفته فى التطرف والتوتر المتطرف ، إلا أن تريزا فى اعترافاتها كانت تؤكد باستمرار أنها « كانت تحذر اقتراف خطيئة مميتة ، وأنها لم تكن « ترضى أن تقترف خطأ جسيماً ضد الله مهما كلفنى الأمر » .

وتروى تريزا قصة الكاهن الذى كانت تعترف له ، فلقد أذهلته أنها وهى الفتاة فى ميعة الصبا لم تكن تسمح لنفسها أبداً بالتردى فى الخطيئة ، فآثر هو أمام فضيلتها أن يعترف لها ، وتقول تريزا « لقد مضى عليه سبع سنوات تقريباً وهو يعانى بشكل حاد من معاشرة امرأة فى القرية كان مولعاً بها ، ومع ذلك كان يقيم القداس ، وكان الأمر مشهوراً حتى فقد كرامته وصيته ، وحاولت أن أعرف عنه وأزيد معلوماتى عن حالته من أهل بيته ، وازداد علمى بضياعه ، ولكنى علمت أن تلك المرأة الشقية كانت تسحر له ، ورغم أنى لا أعتقد بصحة مايروونه عن الرقى إلاّ أنى أروى ما عرفت ، ليحذر الرجال النساء اللاتى يسعين أن يكونوا لهن عشاقا ، ولتعلم هؤلاء النسوة أنهن إذ يفقدن الحياء أمام الله لا يعدن أهلاً لأية ثقة من أى نوع ، وأمثال هؤلاء النسوة اللاتى لا يلتزمن الاحتشام لا يتورعن عن شىء من

أجل إشباع رغباتهن والهوى الذى يلزمهن كالمرض لأنه من فعل الشيطان . « أما أنا وإن كنت يائسة فلم أسقط فى هفوة كهذه ولا نويت أن أفعل السوء قط ، ولا أريد ـ حتى لو استطعت ـ أن اسحر للآخرين وأرغمهم على حبى ل ، أن الرب عصمنى من هذه الأمور » .

ويبدو أن الدكتور بدوى لم يقرأ هذه الفقرات وآثر أن يقتبس من الكتاب فقرات أخرى تناسب مقولة التوتر المتطرف فى مذهبه الوجودى حيث تقول تريزا فى اعترافاتها :

« كانت حياتى رهقاً شديدًا لأنى فى التامل كنت اعى أخطائى بوضوح أكبر ، فقد كان الله يدعونى من جهة ، وكنت من جهة أخرى أتبع العالم ، وكانت كل أمور الله تسرنى سروراً عظيماً ، لكن أمور العالم كانت تقيدنى كأنى كنت أريد التوفيق بين هذين الضدين ، والعداوة ضاربة بين الواحد والآخر ، بين الحياة الروحية وتعزياتها ، وملذات الحياة الحسية ولهوها » .

وهذه الفقرة هى التى يستشهد بها الدكتور البدوى ويترجمها عنها فيقول « من ناحية كان الله يدعونى ، ومن ناحية أخرى كنت اشارك فى الدنيا . أجل ! لقد كنت أجد فى الأمور الإلهية نعيماً كبيراً بيد أن قيود الدنيا لاتزال تأخذ بمخنقى حتى ليبدو لى أنى قد أردت أن أحالف بين هذين الضدين برغم مابينهما من عداوة : الحياة الروحية بنعماتها ، وحياة الحواس بشهواتها » .

وهذه الفقرة نفسها هى التى ألهمت الدكتور بدوى أن يكتب عن رابعة : « نستطيع أن نفترض أنها إبان انتهابها اللذات كانت بين الحين والحين تخلو بنفسها وتتذكر تلك الرسالة التى ألهمتها ، فكان يطوف بها إذن الغنية والغنية طائف من التأنيب والتذكير بالطريق السوى ، وهذه الغينات خصوصاً هى تلك التى تشعر فيها إما باليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ، وإما بأنها قد اندفعت فى طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط ، فلاشك فى أن هذه التنبيهات المتوالية قد أثّرت فى منطقة اللاشعور لديها ، لكننا لا نستطيع أن نقول إنها كانت كافية لإحداث الإنقلاب الروحى ، وقصارى أمرها أن تكون حالها تلك التى وصفتها القديسة تريزا

الآبلية إبان محنة صراع الدنيا والدين فى داخل نفسها فقالت .. » ثم يذكر الدكتور بدوى الفقرة السابقة .

وكما نرى فإن الدكتور بدوى يعتسف الكلمات اعتسافاً ويطبق على رابعة حالة تريزا ، مع أن حالتيهما لاتتطابقان إلا فى نواح إنسانية عامة هى عند الناس جميعاً فى أمثال هذه المواقف .

وقصة الصراع بين الدين والدنيا ، وبين الروح والجسد ، معروفة ، وهى موضوع من موضوعات الأدب والدراما ، إلا أن كل شخصية لها نسيجها الحى من التجارب التى تجعل من الشخصية نسيج وحدها ، وأغلب ظنى أن قراءة الدكتور بدوى لقصة تريزا مشوهة هى التى ألهمته أن يكتب قصة رابعة على نفس المنوال ، وأن ينسج لها أحداثاً ووقائع كالتى ظن أنها حدثت لتريزا فى رأى بعض نقادها .

ومشكلة تريزا لم تكن **الجنس** كما يظن الدكتور بدوى ، ولكنها كانت **الشك ومنازعات الدنيا ونزغ الشيطان** ، وتريزا تقول إنها قضت فى عذابات الشك وتأنيب الضمير لمخالفاتها النفسية ـ وأكرر **النفسية** وليست **الجنسية** ـ لله قرابة عشرين سنة « أسقط تارة وأنهض أخرى على السواء » ولأنى كنت أعود إلى السقوط فحياتى على درك متدن من النقص ، ويمكننى القول أنها كانت حياة من أكثر الحيوات مشقة فى تصورها ، فما كنت أنعم بالله ولا كنت أغتبط بالعالم ، فحين كانت مسرات العالم تغمرنى وأتذكر واجباتى نحو الله كان الأسى ينتابنى ، وحين أكون مع الله كانت أهواء العالم تسلبنى السكينة ، وتلك كانت حرباً شاقة لا أدرى كيف استطعت احتمالها شهراً ، فما بالكم بالسنوات العديدة » .

وتستطرد تريزا « ومع هذا كنت أرى رحمة الله الكبرى التى غمرنى بها ، فرغم علاقاتى الدنيوية بقيت لى نعمة أن أتجرأ وأمارس التأمل ، وأقول أتجرأ لأنى لا أعرف فى هذه الدنيا جرأة أكبر من خيانة الإنسان لربه وإصراره على أن يستمر فى البقاء فى حضرته رغم معرفته بأن الله يحيط بأمره ، ولئن كان الناس جميعاً فى حضرة الله إلا أن الذين يمارسون التأمل شأنهم مختلف ، لأنهم يعرفون أن الله يراهم ، وأما الآخرون فقد تنقضى أيامهم فلا يتذكرون إلا لماما أن الله يراهم » .

ثم تقول تريزا إنها قضت صدر شبابها فى « **هذا الصراع بين مصاحبتى العالم ومعاشرتى الله** » وكأنى بتريزا إذ تعتبر **مصاحبة الدنيا هى الخطيئة** ، تستغفر لنفسها وتبدى التوبة بعد التوبة . ولم يكن استغفارها إذن من خطايا مميتة ، وقد أخطأ الدكتور إذ ظنها قد أوغلت فى شبابها فى الخطيئة ، وأخطأ إذ يظن التوبة ودوام الاستغفار « أصدق دليل على اندفاعها (**أى رابعة وبالمثل تريزا**) إلى أبعد حد فى طريق الشهوة » .

وللتوبة معنى خاص فى التصوف ، **لأن العامة** توبتهم من الذنوب ، **وأما الصوفية** فتوبتهم من **الغفلة** ، أو كما قال **رويم** . أن تتوب من التوبة ، وهو المعنى الذى قصدت إليه رابعة فى قولها : استغفر الله من صدقى فى قولى استغفر الله ! وهى قمة التوبة ، وتوبتها إذن عن كل شىء سوى الله ، وذلك هو الفرق بين توبتها وتوبة تريزا ، فتريزا كما رأينا من الفقرات السابقة توبتها من **خواطر المعصية التى هى التعلق بالدنيا ومصاحبة اهلها** ، ورابعة توبتها هى **توبة أهل مقام الصديقية** ، لأنها تتوب من أن **يخطر غير الله على بالها** ، فمقام رابعة فى التوبة أكبر من مقام تريزا .

ومع ذلك لم يحاول الدكتور بدوى أن يفهم ذلك وحَسِبَ توبة رابعة وتريزا من توبة العوام أى من **المعاصى والذنوب** ، واعتبر التوبة دليل صدق على فسوقهما ، فاعتبرهما من عامة الناس ، ولم يدرجهما ضمن الخاصة الذين قالوا فيهم أنهم أصحاب القيم والمبادىء .

ويقول أبو دقّاق التوبة ثلاثة أقسام ، الأول التوبة ، والثانى الإنابة ، والثالث الأوبة ، فمن يتوب لخوف العقاب فهو صاحب توبة ، ومن يتوب بطمع الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن يتوب بمحض مراعاة أمر الله من غير خوف العقاب ولا طمع الثواب فهو صاحب أوبة .

وكما ترى عزيزى القارىء أن التوبة التى يقصد إليها الدكتور بدوى توبة **عامة المؤمنين** التى خاطبهم بها المولى عز وجل فقال : ﴿ **توبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون** ﴾ وأما الإنابة فهى صفة **العقلاء المقربين** حيث قال تعالى : ﴿ **وجاءوا بقلب منيب** ﴾ ، وأما الأوبة فهى صفة **الأولياء والمرسلين** فقال تعالى : ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾.

وتريـزا كانت تتوب وتصلى لفـوائد التوبـة والصلاة ـ تقـول . كثيرون من الصالحين كتبوا فى الفوائد التى يجنيها المؤمن الـذى يمارس التأمل أى الصلاة بعقله ، وأنا استطيع أن أتحدث فيما أعرفه بالتجربـة ، وهو أن من بدأ يمارس التأمل فلا ينقطعن عنه مهما فعل من زلّات ، لأنه الوسيلة التى تساعده على معـالجة أموره ، وبدون التأمل (أى الصلاة العقلية) سيشق على المؤمن أن يتـوب ، ولا ينبغى أن يترك الشيطان يجربـه كما جـرّبنى فيـــترك التأمل ، وليثق بالله فهو لا يُخلف وعده إذا تبنا توبة نصوحة وعـزمنا على أن لا نعود إلى الزلل ، فإنه تعالى لا يقطع إنعامه عنا بـل ، وسيظل ينفحنا بنعمه ، بل وسيكثرها أحياناً إذا كانت توبتنا تستحق ذلك .

ومع ذلك فقد كانت تريزا فى أواخر أيامها لا ترجو من الله سوى أن يجعل فى طاقتها أن تحبه وأن تذوب بكليتها فى محبته ، وقالت إنها تشـاهد الله بقلبها فى تأملاتها . واستخدمت مصطلحا جديدًا هو **اللاهوت الصوفى** teologia mystica وتعنى به الحالة الروحية التى يكـون عليها الصـوفى فى حضـور اللـه ، والتى يستشعر فيهـا أن اللـه تعـالى حاضر فيـه ويستغرقه تماماً ، فـالله يغمر النفس كما تقول تريزا فيستشعـر الصوفى أنه أقوى من ذى قبل ، والقوة التى تأتيه مصدرها الآخر أى الله الحالّ فيه ، وتريزا تسمى هذا **الحلول قِراناً روحياً** .

وأما رابعة فلم تقل بالحلول ولا الاتحاد أبدًا ، ولا خطرت على بالها مسألة القران الروحى ، وكان اعتسافاً وأى اعتساف أن يفسر الدكتور بـــدوى قـــول حيونة لرابعة : « قومى ! قد جاء عرس المهتدين . يسامن زين عرائس الليل بنور التهجد » بأنه نص على أكبر درجة من الخطورة « **لأنه يتحـدث عن وجود فكرة الـزواج من الله والاقتران بـه لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى أى الثامن الميلادى** ، وهى الفكرة التى لعبت دورًا خطيرًا فى **التصوف المسيحى** ابتداء من القديسة تـريزا الآبلية التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئـك الصوفيات المسلمات بثمانية قرون ، وإذا كنا لا نستطيع أن نتحـدث عن تأثير مباشر لهؤلاء الصوفيـات المسلمات فى القديسة تـريزا فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة أمام الباحثين .

وأقول إن ذلك الذى يذكره الدكتور بدوى اعتساف وأى اعتساف ، فهو يعرف أن الذى

أذكى فكرة القران الروحى فى المسيحية تَعبّد المسيحيين للمسيح ، وتصورهم له فى لوحاتهم وتماثيلهم شاباً غاية فى الجمال ، وأن المسيح هو ابن الله عندهم صراحة ولا لبس فى ذلك ، وهو « إله وابن إله » على الحقيقة ، ولقد عاش المسيح عزباً ، وما كان يمكن للصوفية المسيحيين أن يتزوجوا الكنيسة والدنيا ، أو أن يخدموا سيدين فتكون لهم الزوجة ويخلصوا فى محبتهم لله ، وفى ذلك يقول القديس أوغسطين فى الاعترافات « إن من يريد الله فعليه أن ينصرف عن كل اتصال بالنساء ، وأن يسعى فقط إلى أن يكون عبداً مخلصاً لله ، لأن المتزوج همومه دنيوية وسعيه لأن يرضى زوجته وليس الله » .

والشطط الذى يقع فيه الدكتور بدوى أن يجعل القران الروحى الذى قالت به المتصوفات المسيحيات من تأثير الصوفيات المسلمات وخاصة رابعة العدوية ،اعتمادًا على مجيء رابعة قبل تريزا تاريخياً ، ومن ثم يكون التأثير من رابعة على تريزا هذه المرة ، وقد كان فى مسألة المحبة الإلهية من تأثير المسيحية عموماً على رابعة !! وذلك اضطراب فكرى نحسبه لايجوز ممن هو على درجة عالية من المعرفة كالدكتور بدوى ، وقد تمرس طويلاً بتدريس المنطق ، ولو كانت هذه الفكرة مسلمة لتطورت مع الصوفيات المسلمات تطور كل المفاهيم الصوفية الأخرى ، مع ملاحظة أن رابعة من صوفية القرن الثانى الهجرى ، أى أنها كانت فى بداية حركة التصوف ، والمقالة التى أوردها الدكتور بدوى والتى يذكرها المؤرخون تنسب لحيونة ولم تنسب لرابعة ، ومع ذلك فلو كان لرابعة مثل خواطر حيونة ، ولو كانت تعتبر نفسها عروساً فقد زينها الله بنور التهجد ، وأن الإقبال عليه فى الصلاة بمثابة الإقبال على عريس هو عريس المهتدين فإن ذلك لم يتعد بلاغة المقال التى تناسب علو الحال ، وحتى ورابعة تشكو حبها لله وتبثه عذابها فيه وتصفه بأنه روح الفؤاد والمؤنس من أمثال « أنت روح الفؤاد أنت رجائى ، أنت لى مؤنس وشوقك زادى » إلى آخر ذلك من مخاطبات ، إنما كان يقتضيها الخطاب . ولغة رابعة أو حيونة فى ذلك هى قضية التعبير فى التصوف عن أحوال لا يمكن التعبير عنها إلا بلغة هى أصلاً المقابل للمحسوسات ، وحتى الصوفية من الرجال فى الإسلام والمسيحية على السواء لم يجدوا فى تعبيرهم عن محبة الله إلا هذه اللغة المتداولة عموماً بين المحبين .

ولسوف نتناول فى الفصل القادم بإذن الله **لغة التصوف فى المحبة عند الصوفية ، وعند رابعة وتريزا والفروق بينهما .**

الفصل السادس

لغة التصوف عموماً
وعند رابعة وتريزا خصوصاً

★★★

يقول ابن خلدون عن التصوف والصوفية : هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختُص المقبلون على العبادة باسم **الصوفية والمتصوفة** .

وهذا إذن هو الأصل فى حركة التصوف : أنه عزوف عن الدنيا وزخارفها وزينتها ، والزهد فى اللذة والمحسوسات . والجنيد يقول عن التصوف والمتصوفة : « من لم يحفظ القران ويكتب الحديث لايُقتَدى به فى هذا الأمر ، لأن عملنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » . وقال « الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، واتبع سنته ، ولزم طريقه » . ويقول سهل التسترى : « أصول طريقتنا سبعة ، التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ،وأداء الحقوق » .

وأى تفسير لأقوال الصوفية ينبغى أن يؤخذ فيه ذلك الأصل ، وكان الإنكار على الصوفية دائماً بسبب **اللغة** التى استخدموها فى التعبير عن الوجدانيات بلغة هى أنسب للمحسوسات ، وعن المجردات بلغة الماديات . وليست المشكلة هى مشكلة الصوفى فى أن يعثر

على مايصب فيه وجدانياته من كلمات ، أو يجسد مجرداته من المعانى ، ولكن المشكلة هى مشكلة **المتلقى عن الصوفى** ، وهما اثنان : إما صوفى مثله ، وذلك تبلغه من أخيه فى الله الرسالة تواً ، ويطرق قلبه المعنى فوراً ، فيشيجيه أو يذهله ، أو يجذبه ويتخطفه حتى لقد يغشى عليه ، فالاتصال بين الصوفى والصوفى قائم غير منقطع ، ومباشر فى الحال . وإما أن المتلقى من العامة فكأن الصوفى يتحدث بلغة غير اللغة المعروفة ولا المتداولة . وقد يكون المتلقى فقيهاً فهو مثل العامى ، لأن التصوف علم أحوال ومن ذاق عرف ، ومن لم يذق لم يعرف . وما لم يتهيأ المتلقى بالاستعداد لفهم حقيقة ما يقوله الصوفى فإنه لحرى به أن يرميه بالادعاءات الباطلة فى أذواقه ومشاربه وعلومه ومعارفه ومواجيده وأحواله ، كما أن عبارته ستدق عليه وهى التى ترمز إلى المعانى الرفيعة ، والتى لايمكن بحال أن تخرج عن التوحيد والتنزيه المطلقين . ولو أن المنكر على الصوفى قدأخذ نفسه بما أخذ به الصوفى نفسه من النظر والسلوك ، لما أنكر عليه ما أنكره ، ولما رماه بما يرميه به . وقد قيل إن الصوفى ترقّى مداركه ، ومن هذه الرقة كان الطعن عليه فى علومه وأحواله ، لأن النفس البشرية تسرع لإنكار ما لا يتقدم لها علمه .

ورابعة لم تكن من المبطلين فى الدعاوى ، والطالبين لأغراض الدنيا بالديانة ، حتى نتأول كلامها ولو بحجة خوف الإضلال للعامة . والتأويل والتخريج لأقوال الصوفية من شح النفوس ، وقد سئل يوماً **أبو على الجوزجانى** عن **البسطامى** تعبيراته فى المحبة لله فقال « يسلم له حاله ، ولعله تكلم بها على حد غلبة أو سكر ، ومن أراد أن يرتقى إلى مقام أبى يزيد (البسطامى) فليجاهد نفسه كما جاهدها أبو يزيد ، فهناك يفهم كلام أبى يزيد » .

والصَوْل فى التصوف هو الاستطالة باللسان ، والصوفى المحب لله لا يمكن أن يخون الله فى نفسه ، وهو عندما يصول فإنه يصول بالله . وكان النبى عليه الصلاة والسلام يقول فى دعائه : « اللهم بك أصول وبك أحول » . وكان **إبراهيم الخواص** يقول « وأصول بالله » . وكانت رابعة تصول ، وصولها كان لله وبالله ، وكانت لها مواقف صحت فيها

الرجال ، فكانت كما قيل تصحح للحسن البصرى ، وعبد الواحد بن زيد ، وسفيان الثورى ، وغيرهم الكثيرين .

وكلام رابعة الذى لم يفهمه الدكتور بدوى وفسّره إلى ما فسّره به وإليه هو من قبيل المناجاة ، والمناجاة بلغة الصوفية مرموزة ، وقالوا فيها إنها لغة إشارة ، وقد ذكر أبو العباس بن عطاء عندما سألوه عن لغة المتصوفة أن عبارات التصوف إشارية .

نشير بها فنجعلها غموضاً ... تقصر عنه ترجمة العبارة
ونشهدها وتشهدنا سروراً ... له فى كل جارحة إثارة
ترى الأقوال فى الأحوال أسرى ... كأسر العارفين ذوى الجسارة

ولغة التصوف لطائف وإشارات إلى القلب فى دقائق الحال ، تلوح فى الفهم وتلمع فى الذهن . وللصوفية آداب ومن ذلك أنهم يقرّبون المعانى للخَلْق بما يفهمونه من عبارات وإشارات . وما يقوله الصوفي هو الظاهر ، غير أن لكل ظاهر باطنًا ، وما تقوله رابعة العدوية فى المحبة الإلهية قد نفهمه على الظاهر . وقد ندرك منه الباطن وقد ذكر عالم النفس يونج في تصانيفه فى مجال الشخصية أن من الناس من يفهم المحسوس والظاهر ، ومنهم من يكون له من نمط الشخصية أنه يغوص إلى المعانى ويطلب الباطن ويتنكب الظاهر ويميل إلى المجرد ، وكلام رابعة قد تفسره ظاهرياً ومن ثم قد يكون مجافياً لما عهدناه والمألوف والمعتبر ، وقد يقبله غيرنا لأنه فهم مراميه وعرف مراده وأحاط ببواطنه ، وكما قلنا إن من ذاق عرف ، ولغة التصوف لغة ذوق . وقد قيل :

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه ... إن المحبّ لمن يحب مطيع

والدكتور بدوى لم يحب الصوفية ولم يفهم لذلك رابعة ، ولو كان محباً على الصدق للصوفية ولرابعة لطاوعها فيما قصدت إليه وفهم منها الإشارة والرمز ، فهل إذا قال ابن عبد الصمد « أصَمّنى الحب » نفسره على أنه الصمم أصابه من الحب ، مثلما فعل الدكتور بدوى إذ يفسر أبيات رابعة التى تقول فيها إن الله هو الحبيب وروح الفؤاد والحياة والأنس :

يـــــــا سروري ومنيتـي وعمادي ... وأنيســي وعـــــدتـي ومـــــرادي
أنت روح الفـــؤاد ، أنـت رجـــائي ... أنت لي مـــــؤنس وشـــــوقك زادي
أنت لـــولاك يـــا حيـــاتـي وأنسي ... مـــــا تشتت في فسيح البـــــلادِ
كم بـــــدت منـــــة لـك عنـــــدي ... من عطـــــاء ونعمـــــة وأيـــادي
حبـــك الآن بغيتـــي ونعيمـــي ... وجـــــلاء لعين قلبـي الصـــــادي
ليس لي عنك مـــــاحييت بـــــراح ... أنـت منـي ممكـن في الســـــــوادِ
إن تكـن راضيـــــــــاً عليّ فـإنـي ... يـــا منـي القلب قـد بـدا إسعـــادي

بأن الطابع الحسي ظاهـر في هذه الأبيات ، ويرجع الدكتور ذلك إلى أن الأمـر مع رابعة كان لايزال مختلطاً عليهـا من أول أمرها في التصوف ، فالخطـاب في هذه الأبيات يصلح تفسيره بأنه يتجه إلى شخص حسي كما يصلح بصعوبة أن يتجه إلى الله ، بل إنها في هذا الشعر قد تناست أو نسيت أنها تخاطب اللـه فتحـدثـت عن حبيب لها يلـوح في أنـه كـان متنقـلاً ، فاضطـرت هي تحت ستار الترحل لكسب العيش بـالعزف كالحال مع عـامة الموسيقيين في تجوالهم لإحياء الحفلات في البلاد المختلفة ، أن تلاحقه مما اضطرها إلى التشتت في البـلاد (١١) وهذا أغرب ما يمكن أن يذهب إليه مفسر لهذه الأبيات ، وأحسب أن الدكتور بَعُد كثيرًا في تفسيره حتى لاأقول إن الذي تشتت هو الدكتور نفسـه حيث يذكر أن ذكرى هذا الحبيب قد اختلطـت في ذهنها فعبرت بهذه الكلمات المشبـوبة الحسية عـن تجربتها معـه وإن كان الخطاب موجهاً إلى الله .

ومن رأي الدكتـور أنها ما كانت تستطيع أن تحكي عن حبها للـه بهذه الصورة إلا إذا كانت قد عـانت تجربتها بدقائقها فعـلاً ، ثم جعلت من هذه التجربة لها إطـاراً تعرض فيه حبها لله . ودليل الدكتور الذي يسوقه على صدق دعواه أن رابعة فيما قالت في حبها لله لها هذه المنـاجيات التـي تقول فيها « إلهي ! أنـارت النجوم ، ونـامت العيون ، وغلّقـت المـلوك أبوابها ، وخـلا كل حبيب بحبيبه ، وهـذا مقامي بين يـديك » و « إلهي ! هذا الليل قـد أدبر ، والنهار قـد أسفر ، فليت شعري أَقَبِلت مني ليلتي فأهنأ ، أم رددتها عليّ فأعزى ؟ فـوعزتك

هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى ! وعـزتك لو طردتنى عن بابك مـا برحت عنه لما وقع فى قلبى من محبتك ! » . فالإطار لكـلامها فى محبة الله إطار غرامى ، فيه هـدوء الليل وضياء النجوم ونوم العيون ، وهـو ما قد عرفته عيانـاً فى قصة أو قصص غرامياتها السابقـة قبل التوبة ، ووعيها بهذه التفـاصيل دليل على أنها قد خرجـت تواً من التجربـة ، وأنها لاتزال فى أعماق نفسها تحن إلى هـذا الحب ، ولعلها تذكـرت لياليها الحُمْـر بين مشارف النخيل على ضفاف نهر الأُبلة ، وقـد غفلت عيون الرقباء من النـاس ومن الشرطة خاصـة كما تبين من عبارتها ذات الدلالة الكبيرة « وغلّقت الملوك أبوابها » وتقصد بها أن الحاكم والشرطة والتابعين له لم يعد لهم سلطـان على مجلسـها ، وفى وسعهـا أن تختلى بحبيبها تسـاقيـه ما تـود من اللذات المحرمة (!!) .

ويطلب الدكتور بدوى من القارىء أن يتأمل خصـــوصاً الشـــوق المتحسر فى قولها « وخلا كل حبيب بحبيبه » ، ففيه قشعريرة قلب طالما نَعِم هذه اللحظات العالية !

ويتسائل الـدكتور : أتراها نـادمة فى قولها هـذا ؟ نادمة على تـركها طريقتها السـابقة وانصرافها عن الحب الإنسى إلى الحب الإلهى . كـلا بل هى قلقة لاتزال موزعـة الأهواء بين الدنيا والآخـرة ، وحبيبها الجديد (يقصد اللـه تعالى) لايزال بمنأى عنها لأن الطـريق إليه شاق طويل ، وها هى ذا تتضرع إليه فتقول « وهذا مقـامى بين يديك ! » ، فأية لوعة فى هذه العبارة النارية ! وأية صورة فاتنة تستثيرها فى الخيال !

ولقد بدأت رابعـة تستشعر الحب لله ، وإنه لينمـو وتواكبه مشاعـر مختلفة ، لعل من بينهـا ومن أقـواهـا الشعـور بأنها نـذرت نفسهـا لهذا الحب الأسمى ، وعما قليل ستعلن خطبتها إليه ، ولعل ذلك أن يفضـى فى النهاية إلى الزواج الروحى بينها وبين الله !!!

والله هذا أغرب كلام يمكن أن يقال فى تفسير هـذه الأبيات ! ولست أجد ما أقوله فى ذلك إلا أن الدكتور يريد بهذا التفسير أن يصادق على دعواه فى الوجودية ، وهو يعاند كل ما قيل عن لغة التصوف ويأبى إلا أن يذهب فى تفسير المذهب الـذى يخدم فلسفته ، وقد تناقض إذ ذيل تفسيره بمقارنة بين قول رابعة « وعزتك لـو طردتنى عن بابك ما برحت عنه لما وقع فى

قلبى من محبتك » ، وقول صـوفى آخر هو **الحلاّج** : « يا أهل الإسلام أغيثونى ! فليس الله يتركنى ونفسى فـآنس بها ، وليس يأخـذنى من نفسى فأستريح منهـا ، وهـــذا دلال لا أطيقه ! » ، ويعلق على ذلك بأن الدلال فى نص الحلاّج أن نفســه تتدلل على الله ، وأما فى نص رابعة فـالله هو الـذى يتدلل عليهـا ، ويفسر ضراعة رابعة بأنها منتهى الحب لأنـه يرى أن الحب الوجودى هـو أن يحب المحب بلا أمل ومن طرف واحد فيتألم فى حبـه ، وذلك وأمثاله من الآراء فى الحب يطرحه الدكتور فى كتابه **الزمان الوجودى** .

غير أنى أرى أن أقوال رابعة إ ذا أضفناها إلى أقوال غيرها من المسلمات اللاتى تصوفن تشكل ما يمكن أن نسميه « **الأدب الصوفى النسائى** » . وما يُحكَى عن **معاذة العدوية ، ورابعة العـدوية ، وماجـدة القرشية ، وعائشـة بنت جعفر الصادق ، وامـرأة رياح القيسى ، وفاطمة النيسابورية ، ورابعة بنت اسماعيل الشامية ، وأم هارون ، وعمرة امرأة حبيب ، وأمة الجليل ، وعبيـدة بنت أبى كـلاب ، وحفيرة العابـدة ، وشعوانـة وآمنة الرملية ، ومنفوسة بنت زيد بن أبى الفوارس ، والسيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن أبى طالب ، وريحانة ، وحيونـة ، وسلمونة ، وميمونة** ، لما يمكن إدخاله فى بـاب هذا الأدب ، بل إن بعض الأقوال المنسوبة إلى هذه أو تلك لتتشـابه فى المعانى والألفاظ وجميعهـا تتسم بسمات خاصة تميزهـا عن أدب الرجال فى مجال المحبـة ، وفيها ألفاظ أليق بالنساء حتى لنقرأها فندرك فـوراً أن قائلها لابد أن يكون امرأة ، وتلك طريقتهن فى التعبير عن المحبة حتى لو كانت محبة الله .

والنساء تخصصهن المحبـة ، وكلما استبدّت العـاطفة بـالمرأة كان الشِعْـر وسيلتها فى التعبير ، وأشهر النساء فى مجال المحبة الإلهية كن شاعرات ، وكانت رابعة متميزة بالشعر ، وكذلك الشـامية ، وريحانـة ، وحيونـة ، وميمونة ، والشعـر النسائى الصـوفى فيه التـوتر والـوجد المريـر والحب الوالـه والعشق الغالب ، ولغـة الحب هى اللغة الأولى فى الشعـر لأن الشعر لغة القلوب ، والحب قوت القلوب ، فالحب من الشعر عصبه .

وفى أخبار الصـوفية عمـوماً يعتريهم الجذب عنـد السماع لشعر الغـزل ، لأن طاقتهم الشهـوية يصرفـونها إلى الحب الإلهى ، ولقد أوّلـوا رموز الغـزل البشرى إلى معان إلهيـة ،

والفرق بين شعر الغزل الحقيقي **والغزل الصوفي** أن الرمز في الأول مقصود لمعناه الشهوي ، وهو في الثاني يحيل إلى حالات وجدانية ومعان سيكولوجية . والغموض في شعر الغزل تمويه من الشاعر لكي يفيض على شعره المشروعية فلا يناقي الآداب ، وهو في الشعر الصوفي يتعمده الشاعر .ورابعة الشابة الحلوة ذات الصوت الشجي والمحيا اللافت وهي تنشد الشعر قد يظنه السامع منها للإطراب ، ولما صار أمرها إليها وغلبتها أحوالها الصوفية عبرت في شعرها عن الأنس والخوف والرجاء والمحبة والتوبة والرضا ، واستخدمت في ذلك لغة الحب المتعارف عليها ، وذلك من قضايا الشعر الصوفي ، لأن شعراء الصوفية لم يجدوا وسيلة أقوم ولا أجدر من شعر الغزل للتعبير عن مواجيدهم ، فما بالك إذا كان الشاعر امرأة .

وقد نقبل الشعر الغزلي الصوفي من رجل **كابن الفارض** ولا نتقوّل عليه في حياته الجنسية ، ولكن ها قد ثبت أنه حتى الدكتور بدوي ـــ الفيلسوف الذي لاشك في مكانته وقَدْره وعلمه ـــ يشكك في المرأة إذا قالت الغزل في مجال التصوف ، والشاعر الصوفي إذ يفيض بالمعاني فإنه ينسجها شعرًا يحكي عن الجمال والحق والخير . والمحبة أصل كل المعاني العظيمة والنبيلة ، وشعراء الصوفية تغنوا بالمحبة مما جعل باب الشعر في المحبة من أبواب عبقرية اللغة العربية ، ومما أضفى على الأدب العربي من أسرار عظمة المصطلحات الصوفية ما استلفت انتباه المستشرقين فراحوا يترجمون منه وينقلون معانيه ويعجبون مما فيه أشد العجب.

وإن المرأ ليقرأ شعر رابعة ، وأشعار فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وعبد الرحمن جامي ، وابن الفارض ، وابن عربي ، ويستشعر فيها الإعجاز المذهل . ولم تكن رابعة تقصد أن تتفلسف في شعرها ، ولم يقصد إلى ذلك أيّ من الصوفية المحبين ، ولكن الشاعر الملهم منهم ، والفنان صاحب المشاعر الجياشة والوجدان الرهيف ، كان يترك لقلبه أن يفيض بمشاعر الحب ويرتقي بها حتى يتجاوز بمحبته كل حدود البشرية ويتسامق إلى السماء ، فينشد الحب لله تعالى حباً يملك عليه كل نفسه وتفكيره ، فيصيّره عاشقاً متيماً ، فلا يجد مايعبر عن لوعته إلا اللغة التي يكون بها التعبير عن محبة المحبين .

والشاعر الصوفى يرى الله أصل الوجود ، والله هو المحبة ، وقدرته وكماله وجلاله وعلمه وإبداعه يتخلل الوجود فيضاً عن فيض كنوره الذى أضاء بأسمائه العلية فاستبانت به الموجودات من العدم فكانت بعد أن لم تكن . ولم يكن من الممكن أن تأتى الشاعر الصوفى هذه الرؤى لولا أنه يحب الله ويشهده فى أفعاله وصفاته ، وإذ يشاهد فيه الكمال والجلال والجمال ليتمنى أن يكون شهوده متصلاً ودائماً ، ويصوره باعتباره المطلق المعشوق فى كل جميل ، والمتجلى فى كل صور الجمال كى يعشق .

والحب طريق للوصول إلى الله . والنفس فى توهمها أنها موجودة بخلاف الله وقد حُجِبت عنه لاتزال تشتاق للاتصال به والرجوع إليه ، لانها مجلى من مجاليه ، وليس السبيل لعودتها إلاّ بالشوق الذى تعانى به الجذب والوجد وبالحب الذى يفنيها عن ذاتها ويتجاوز بها التفكير ، لأنه فى التفكير تكون الإثنينية ، وإما فى الحب فليس إلا الواحدية فتنمحى الأنا والأنت .

وليس عند شعراء الصوفية إلا ديانة واحدة هى ديانة المحبة ، فالقلب سر كل تدين ، والقلب عندما يحب الله فإنه يقبل كل صور الجمال فيكون مرعى لغزلان وديراً لرهبان ، ويكون الكعبة والمعبد والكنيسة ، ويكون التوراة والإنجيل والقرآن . وبمقدار ما يحب الشاعر الصوفى الله بمقدار ما يعلم عنه ومنه وبه ، فينجلى بصره ويعرف الخير والشر . وإذ تتحد إرادة المحب والمحبوب لايكون هناك جبر ولا اختيار ، والمجبور على الحب لا حب له ، والحب الذى هو غاية المقرب إلى الله لا جبر فيه . وأوزان الشعر الصوفى تعكس كل ذلك وتساعد على التعبير عن الوجد وانتقاله عبر الأحوال ، ويزداد أثرها فى السامع بإنشادها . ولأنه شعر ينبع من القلب فالقلب مقصوده ، وإنشاده فى حلقات الذكر عندما تفيض المشاعر ، وتتمايل الأجساد ، وتحن الأعضاء إلى بعضها ، وتهفو النفوس إلى بارئها فتشرئب إلى عليين ، كأنها فى سموقها النخلات البازغات تطاول السماء وتتشعع إلى مواطنها .

وشعر رابعة فيه كل ذلك ولو لم تقل سوى هذه الأبيات :

أحبـــــك حبين : حـــــب الهوى　　وحبـــــاً لأنك أهل لـــــذاكـــــا
فأمّـــا الـــــذى هـــو حب الهوى　　فـذِكـــرٌ شُغِلتُ بـــه عن ســواكـا
وأمّـــا الـــــذى أنت أهلٌ لـــــه　　فكشفُك الحُجب حتـى أراكـــــا
فما الحمـــــــــــد فى ذا ولاذاك لى　　ولكـن لك الحمـــــد فى ذا وذاكـــا

ولَخلُد اسمها بين العاشقين والشعراء الموهوبين . ولقـد نسبوا إليها هذه الأبيات الرائعة .

وقـــــد جعلتك فى الفـــــؤاد محدّثى　　وأبحت جسمـى من أراد جلـــــوسى
فـــالجسم منى للجليس مـــؤانسٌ　　وحبيـب قلبى فى الفـــــؤاد أنيسـى

ومن الغـريب أنهم نسبـوا إليها فى هـذه الأبيـات الحلول المسيحى واتهموها بـالكفر لمخاطبتها الله بالندّية .

وزادى قليـلٌ مـــــــا راه مُبلّغـى　　أللـزاد أبكى أم لطـــول مســافتى !
أتحرقنى بـالنـار يـا غـايـــة المنى　　فايـن رجـــــائى فيك أين مخافتى !

وكان لرابعة بعض النثر فى حكايات وأمثال وأدعيات ، ونثرها يتحدث عن حبها الإلهى وفيه ما فيه مما ينبىء أن المحدث امرأة . ولا يطيب النثر للسامع كما يطيب الشعر ، ونثرها يستدعى التفكير أكثر مما يستدعى الوجد ، ويميل إلى المعرفـة التى أساسها الإقـرار بالوحـدانية . والمعرفة طـريقة للوصول وغايتهـا أن يتعلم العقل فيستنير القلب . والعارف بالله يفنى عن نفسه ويعرف أنه لا يقوم بذاتـه وإنما قيامه بالله ، فهو يتحرك وينطق عنه ، وينظر بنوره ، ومعرفـة الصوفية بالله هى توحيـدهم . والتوحيد سرّ من الأسرار لا يكشف الله عن معناه إلا لمن يحبه ويطلب معرفته ، والفرق بين المحب لله والعارف به أن المحب يفنى فى محبته تعـالى عن نفسه ، والعارف يفنى عن نفسه فى توحيده ، وهكذا كـانت رابعة رحمها الله . فهى محبة لله فى شعرها ، وهى عارفة به تعالى فى نثرها .

ومن الظلم البيّـن للقارىء ولنفسه أن يقول الدكتـور بدوى مقـالته تلك عـن رابعة

وشعرهـا ونثرهـا ، ومن العجب العجاب قولـه فى نثرهـا ، وهو فيه أشـد اعتسافـاً وأكـثر إجحافاً ، وعهدى به أنه العالم الجليل والفيلسوف الكبير .

وأما تريزا الأفيلية فلم تكن تقرض الشعر ولا تعزف آلة موسيقية . وهذا العرق الفنى فى رابعـة ليس عند تـريزا بـالمرة . ومن الظلم أن نقـارن بينهما فى هذا المجـال . ولم يذكـر المؤرخون لها إلا قصيـدة يتيمة من بضعـة أبيات تنصـح فيها المريدات مـن جنسها أن لا ينزعجن ولا يثيرهن شىء ، فالكل إلى زوال ، والله وحده هو الباقى ، والصبر ينيل المبتغى ، وكل من يجعل الله معه لايحتاج لشىء بعده ، فالله وحده فيه الكفاية ، وحتى هذه القصيدة لم تنشرها ولم يعرفها عنها المتصلون بها إلا بعد وفاتها .

وقد سبق أن نبهنا إلى الاختلاف الجذرى بين التصوف الإسلامى والتصوف المسيحى نتيجة الاختـلاف بين الديانتين بحسب ماهيـة الإله فيهما ، وتريـزا تخاطب الله فى سيرتها وتقول صراحةً يـاعريسىّ ، وتحكى عن طريقتها فى التأمل بانها كانت تستفـرغ طاقتها فى التفكير فى يسـوع المسيح ، ولقـد بلغ من تعلّقهـا بيسوع المسيح أنهم أطلقـوا عليهـا **تريزا اليسوعية** ، وكانت كما تقول تحضره فيها ، وتتأمل مشاهد صلبه ، ومراحل تألمه ، وتتمثله فى باطنها ، ولم تكن تستحضر **لاهوت الرب** وإنما تمثلها كان **لنا سوته** .

وأهمية **الأدب التيريزى** أن التجارب التى تقدمها تريزا فى كتبها لها طابع إنسانى ، ولم تلجأ إلى التخيل كثيرًا ، ولم تعتمد على التصوير ، وقصدت إلى أفكارها مباشرة بشفافية غير مبتذلة . وكتابها السيرة مثلاً ـــ كما قيل فيـه ـ شهادة شخصيـة نابعـة من أعماق ذاتها وليس من التعاليم التى تلقتها ، ولا من دائرة الثقافة المسيحية التى نشأت فيها ، وهو تعبير عن حياة قد التزمت تماماً بكل كلمة ذكرتها وكل حادثة روت عنها .

وكتابات تريزا عبارة عن محاورات مع نفسها ومع الله على صعيد الإيمان . **وتجارب تريزا** دروس للمبتدئات من المسيحيـات . ومعظم الوصف الـذى تقدمه إمـا مناجـاة لله أو وصف لحالات التجلى والمشاهدة ، كأن تقول : فجأة كـان يعترينى شعور بحضور الله فلا أشك أنه داخلى ، أو أنـه يستغرقنى فى حضـوره ، ولم يكن الأمر مجرد رؤيـا بل أكون كأن

نفسي معلقة ، وكأنها خارج ذاتي ، وتضيع ذاكرتي ، وكأنما تحركني المحبة التي في قلبي ، وكأنما عقلي قد توقف عن العمل وقد روعه ما يدرك ، لأن الله يريده أن يفهم أنه لايفهم شيئاً مما يعرضه عليه .

وتعتمد تريزا في تقريب المجرد باستخدام الأمثلة ، كطريقة المسيح في الأناجيل ، وتشبّه مثلاً حياة التأمل « باستصلاح بستان في أرض جدباء يكثر فيها العشب الرديء ، وعندما تعزم نفسٌ على ممارسة التأمل وتشرع في انتهاج هذا السبيل ، فإنها تكون كمن يقتلع العشب الرديء ليغرس مكانه النباتات الصالح ، وعلينا أن نجهد بمعونة الله على أن نكون بستانيين مهرة ، فننمي النبات ونعتني بريها لئلا يصيبها الجفاف ، ولكي يخرج منها الزهر فواحاً يبهج ربنا ، فيقصد هذا البستان ليتنعم به ويستريح فيه » .

وطريقة تريزا الاستبطانية لم تكن تعرفها رابعة ، فرابعة كانت تصلي صلاة حقيقية إسلامية وتكثر من الصلاة التعبدية هذه ، فكانت كما قيل تصلي ألف ركعة في اليوم . وتريزا صلاتها عقلية أي تأملية ، وكانت تخلو إلى نفسها في مصلاتها وتوحي إلى نفسها وتتقمص شخصية المسيح ، والتقمص وسيلة من وسائل استبطان ذات الآخر ، **وإيزنشتاين** ـ أبو مخرجي المسرح ومعلم التمثيل في كتابه عن **فن الممثل** ـ ينصح بالتقمص ، وهو أن يتعين الممثل بالدور الذي يلعبه ويرى نفسه فيه اليوم كله ، بل مدة تمثيله للدور على المسرح ولو استغرق ذلك منه الشهور . وكانت تريزا تفعل ذلك حتى قيل فيها إن المسيح استغرقها تماماً وانه حلّ فيها على الحقيقة ، وحالها في ذلك كحال الحلاّج عندما ردّ على أحد سائليه بأنه ما في جبته إلا الله . وهكذا كانت تريزا ، فلقد عدمت جسمها ونحلت واستحالت روحاً هي المسيح ، تفكر به ، وتشعر وتعيش هذا الدور معظم اليوم . وكانت تأتيها الرؤى تلقائية وتشاهد المسيح ويتحدث إليها . وتقول تريزا عن موضوع تأملاتها . لنتأمل سراً من أسرار الآلام ـ يسوع مربوطاً على العمود مثلاً فالعقل يمضي باحثاً عن دوافع هذا التعذيب ، وعن الآلام والحزن الذي عاناه جل جلاله في تلك الوحدة وأمور أخرى كثيرة يمكن أن يستخرجها العقل من هذا المشهد إذا كان يعمل وكان مثقفاً . هذه هي طريقة التأمل التي يجب أن يبدأ بها الجميع ويتابعوها وينتبهوا إليها ، وهي طريق مأمونة وممتازة إلى أن يقودهم الرب إلى

أحوال أخرى أفضل . وقد يستفيد البعض من تصورهم أنفسهم فى جهنم ويحزنهم ذلك ، أو يتصورون الموت . وقد يكره البعض أن يخوضوا فى ذلك ويلجأون للتأمل فى قوة الله وعظمته فى الخلائق ، وفى الحب الذى يحبنا به والذى عليه كل مخلوقاته .

ومن رأى تريزا أنه لابد للمبتدىء من معلم خبير ، فإن لم يكن المعلم خبيرًا فإنه يرتكب أخطاء كثيرة . وتريزا تنتقد النقص الذى عليه كتاباتها لعجزها عن الكتابة بطريقة واضحة ، ومن ثم تلجأ إلى الكثير من الشرح . وفى مناجاتها تحتاج إلى المزيد من الكلمات لتعبر عن نفسها ، تقول . يا ربى ! ياخيرى العميم ! ما أن أنطق باسمك أناديك حتى تفيض دموعى وأشعر بمسرة كبرى تعم نفسى . أنت يا رب تقول إن نعيمك مع بنى البشر وتريد أن تقيم معنا ، وإذا لم نأت ذنباً تمتعنا بعشرتك وتسر أنت ربى بعشرتنا ، وكلما سمعت هذه الآية شعرت بالتعزية الكبرى حتى عندما كنت ضالة » .

وتعرب تريزا عن تنعمها بحالة تأمل السكينة وهى أرفع حالات التأمل ، وترغب كالقديس بطرس أن يكون مقامها الدائم فى تأمل السكينة ، وتصف أحوالها فى هذا المقام بأنه شرارة صغيرة من حب الله الحقيقى يبدأ الرب بإشعالها فى النفوس ، ويريد منها أن تفهم تدريجياً طبيعة هذا الحب الذى فيه الألم والسرور معاً ، وتقول إن التأمل عمل من أعمال الإرادة توظف فيه العقل ، والإرادة توقظ الحب وتزكيه لتحقيق فعل المحبة . وفى التأمل تكون راحة النفس أثناء السكون ، ويتنحى العقل بعلومه ويبادر إلى شكر الله بعبارات مختارة ، إلا أن الإرادة فى هدوئها تقوم بواجب الشكر أكثر مما يستطيع العقل . نعم إن الإيمان عمل من أعمال الإرادة وليس العقل . وفى مرحلة من التأمل تَشْبُتُ كل القوى ولكنها لاتتعطل تماماً ، وتكون هناك المسرة والمتعة والعذوبة بما يفوق الوصف ، وهى حالة ليست فى نظرها سوى موت عن كل أشياء العالم واستمتاع بالله . وتقول إنها لا تجد عبارات تفصح بها عن حالتها ، ولا طريقة تبينها بها ، فالنفس ذاتها لاتدرى عنها ، ولا تدرى أتتكلم أو تصمت ، وهل تضحك أو تبكى ، وإنه لهذيان مجيد وجنون سماوى تتعلم فيه الحكمة الحقيقية وإنها لطريقة تستمع فيها النفس أيما استمتاع ، وتكون قوى النفس مؤهلة فيها كليا للانشغال بالله ، ولا تجرؤ على إتيان حركة ، وتود النفس أن تجاهر

بالتسبيح لله ولكنها لاتتمالك ذاتها ، ويسيطر عليها اضطراب عذب ، فكان الله فى عونى ! كيف تكون نفسى وهذه حالها ؟ لكم تود نفسى لو تكون كلها ألسنة تلهج بذكر الله !

وتقول تريزا عن هذه الحالة إنها تلهم قول الشعر ، وتعرف من كان يقوله فيها رغم انه لم يكن شاعراً ، ولكن النفس تنظم الشعر والعقل ليس له دور فيه ، وتحكى أبيات الشعر عن **الألم الساري** ، وتشكو إلى الله هذا **الألم العذب** ، وكم يود الشاعر لو يتمزق نفساً وجسداً ليبين كم هو سعيد ويستمتع بهذا الألم العذب !

وتريزا تبدو فى هذه السطور وكأنها التجسيد لمقولات **الدكتور بدوى** فى الديالكتيك الوجودى الذى يجمع طرفى التوتر فى وحدة . وتشخص تريزا حالتها هذه بأنها جنون أو هوس دينى ، وتحثّ أتباعها بأن يصابوا بمثل ما هى مصابة به ، وتسأل الله أن يصيب الناس جميعاً بهذا الجنون ، وتقول : لنكن كلنا مجانين حباً فى الله ولنستسلم كلياً بين ذراعى الله ، فإن أراد ن يذهب بنفوسنا إلى السماء فليذهب ، وإذا إراد أن يمضى بها إلى الجحيم فلا ألم ينزل بها إن مضت مع خيرها الأعظم !

وهذا **المقام** الذى تحكى عنه تريزا هو التسليم لله والرضا بحكمه وبما تأتى به المقادير ، وحتى لو أراد أن ينزع منا الحياة أو نعيش ألف سنة رضينا بالأمر ، والمحب لله ينبغى أن تكون إرادته هى إرادة الله !

وفى أعلى المقامات **مقام الاتحاد بالله** ، وتعرّفه تريزا فتقول هو أن يصير الاثنان واحداً . وتشرح هذه الحال بعبارات قوية فتقول : وفيها النفس تبحث عن الله وتشعر فى غمرة من المتعة عذبة ، وكأن بها جميعا خوراً ويصيبها بعض الإغماء ، وتخونها قواها البدنية فتعجز عن تحريك اليدين لو أرادت إلا بجهد جهيد ، وتَغمُض العينان من غير أن تريد إغماضهما ، وإذا بقيتا مفتوحتين فلا ترى شيئاً ، وإن قرأت فلا تحسن التلفظ بحرف ، وحتى لا تعرفه ، فترى الحرف غير أن العقل لا يسعفها بالمعرفة ، فلا تحسن القراءة ولو أرادت ذلك ، وتسمع ولكنها لا تعى ما تسمع ، وتتلاشى كل قوى البدن لتقوى النفس وتستطيع أنتستمتع أفضل استمتاع بمجدها الذى هى فيه باتحادها بالله ، ويتم

ذلك بسرعة بحيث أن هذه العلامات ، وتَعطُّل الحواس ، لا يلحظان كفاية ، لسرعة حدوث الظاهرة ، إلا أن المحب لله يدرك من فيض ما فيه من إنعام أن سطوع الشمس فى النفس كان شديدًا لأنها أذابت النفس تذويباً ! » .

وما تحكيه تريزا أحسب أنه لأول مرة يحكى أحد الصوفية عن هذه التجربة ويقرّبها هكذا للأفهام . وتتوغل تريزا أكثر فتقول إنها تعجز عن الوصف لأنها لا تكون نفسها وتترك ذلك لله نفسه . وتقول إن الرب هو الذى كلمها وشرح لها بكلماته فقال : « إنها تذوب بالكلية — أى النفس - لتندمج بالأكثر ، فلا تعود هى التى تحيا ، بل أنا ، وبما أنها لا تستطيع أن تستوعب ما تفهم فإنها وهى تفهم ... لا تفهم » . وهى أبلغ عبارة فيما أعرف تشرح الاتحاد .

وتزيد تريزا الشرح فتقول إن الله أكثر من ذلك حاضر حضوراً حقيقياً فى الأشياء . وتميز تريزا بين الانجذاب أو الانخطاف والاتحاد ، « ففى **الانخطاف** تبدو النفس كأنها لا تبعث الحياة فى الجسد فتقل حرارته ويتخلله البرد بعذوبة ولذة بالغتين ، وأما فى **الاتحاد** فتكون فى طبيعتنا ونقاوم بعض المقاومة ، وأما فى **الانخطاف** فكأن نسراً يتخطفك فيحملك على جناحيه وترى نفسك محمولاً ولا تعرف إلى أين ، ولئن شعرنا بلذة إلا أن ضعف طبيعتنا تجعلنا خائفين فى البدء ، فيلزم أن تكون النفس مقدامة وجريئة وعازمة لتخاطر بكل شىء ، وليحدث ما يحدث ، ولتستسلم بين يدى الله ، ولتترهب بطيبة خاطر إلى حيث تُحمل ، لأنك تُحمل رغماً عنك . وكان ذلك عندما يحدث لى أقاومه بعض المقاومة مخافة أن أكون مخدوعة وتحت تأثير الشيطان ، فكنت من فرط مقاومتى تخور قواى وكأنى أصارع جباراً ، وكانت المقاومة مستحيلة أحياناً ، لأن العصف كان يشمل نفسى ثم رأسى غالباً فى أثر ذلك فلا أتمكن من أن أسيطر على الموقف ، وأحياناً كان يحمل جسمى كله فيدفعه عن الأرض » .

وتريزا كما نرى تخوض تجارب صوفية حقيقية وتغوص فى التجربة وتصفها كعالِم نفس ، وإن تكن لغتها غير علمية . وحال **الانخطاف** هذه هى نفسها التى يشرحها الصوفية المسلمون ويطلقون عليها **الانجذاب** ، أو الاستلاب ، أو الذهاب ، ويفسرها **السراج الطوسى**

بأنها أن يُخالَط قلب العبد من عظمة الله فيذهب عقله أو قلبه عن حس المحسوسات بمشاهدة ما شاهد ، ثم يذهب عن ذهابه . وما يقوله السراج ويحتاج إلى المزيد من الشرح تقوله تريزا ببساطة ووضوح ، وهذا هو الفرق بينها وبين رابعة ، فرابعة لا تتعمد أن تشرح أحوالاً ، ولا تكتب تجاربها لتغوص فيها وتستبطن ذاتها ، ومن هذا الوجه فإن **تريزا تفضل رابعة** ، ومن ناحية أخرى فإن رابعة كانت وجدانية ، وكانت أحوالها تلهمها الرفيع من الشعر ، وهى الحالة التى وصفتها تريزا خير وصف حين قالت إن المرء فيها يكون بحيث يقول الشعر طواعية حتى وإن لم يكن شاعراً .

ويصدق على **تريزا ورابعة** قول تريزا « إن أقوالى فى حياتى الخاصة من عندى ، وأقوالى فيما لا يخصنى من حياتى تتناول حياة الله فىّ » ، وحياة الصوفية ارفع من كل كلام أو شعر يقال .

وتذكر تريزا أنها لما حرمت القراءة باللغات لجهلها خاطبها الله : لا تحزنى فإنى ساعطيك كتاباً حياً . وحياة رابعة وتريزا هى هذا الكتاب الحى ، فلقد غمرهما الله بحبه فاستغنتا عن كل كتاب ، وكان الله عز وجل هو الكتاب الحقيقى الذى وجدتا فيه الحقائق كلها .

وتختتم تريزا بهذا القول الرائع : تبارك هذا الكتاب الذى يطبع فينا ما يجب أن نقرأ ونفعل فلا يصيبنا النسيان .

ومن فيض ذلك الكتاب كان شعر رابعة وكتابات تريزا ، ولم تكن أى منهما بغياً أغلت فى الإثم وتمادت وأصرت على الاستغفار ، فبمثل هذه الكلمات التى نطقتا بها كتب التصوف تاريخه وقام كعلم من علوم الشريعة .

ولست أرى إلا أن **الدكتور بدوى** قد تجنى على رابعة وتريزا وأرادهما نمطين من أنماط فلسفته ، فراح يفسر على هواه أقوالهما وتجاربهما ، حتى أنى لأظن أنه لم يقرأ تريزا ، ولكنه قرأ رأى النقاد فيها غالباً وتفسيراتهم ، فنصب من هذه الأقوال نموذجا لرابعة ، وذلك ظلم وأى ظلم من الدكتور العالم والفيلسوف الكبير !

والآن ما هو رأى العلم فى توبة البعض ، وهل من الممكن أن تتوب بائعة الهوى أو الزانية الواغلة فى الإثم والمعصية ، وأن تكون أيضاً صوفية مترهبة صاحبة مدرسة ومبادىء ، وصانعة قيم ، ومعلمة ، ومربية لارفع اخلاق يمكن ان يتخلّق بها إنسان ، وهى الأخلاق الصوفية ؟

أقول هل من الممكن ذلك ؟

سترى فى الفصل القادم ...

★★★

الفصل السابع

رأى العلم فى إمكان توبة الآثمة الوالغة فى الإثم وأن تكون من أولياء الله

★★★

الإثم الذى ينسبه الدكتور بدوى لرابعة العدوية يرجعه إلى عدة عوامل ويشخّصه بشكل لا لبس فيه فهو يقول « إنها اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد ، وغرقت فى بحر الشهوات ، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، وتطرّفت فى فجورها وحبها للدنيا ، واندفعت فى طريق الإثم إلى حد بالغ الإفراط » . ويرجع الدكتور هذه الحالة عندها إلى :

١ ـ الحرية التى تحصلت لها بعد عتقها .

٢ ـ الحياة الفنية التى حيتها باحترافها العزف على الناى والإطراب ، فما كان من الممكن أن تكون بمنجاة عن ألوان الإغراء فيها بأنواع الأحابيل التى تنصب لمثيلاتها فى هذا المضمار .

٣ ـ اليأس من عاطفة اندفعت فيها نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه .

٤ ـ تجربة حب مخفق استشرف إلى سراب زواج أو ما إليه .

٥ ـ تجربة يائسة من دنيا الناس .

غير أنه يؤكد على تجربة الحب المخفق أكثر من أى من الأسباب الأخرى حيث أنها تتحدث فى قصيدتها التى مطلعها « ياسرورى ومنيتى » عن هذا الحبيب الذى يبدو أنه « كان موسيقياً يتكسب من إحياء الحفلات فى مختلف البلدان ، فكانت مضطرة أن تلاحقه فى الأماكن التى كان ينتقل بينها فاضطرت إلى التشتت فى فسيح البلاد » .

أنت لـــولاك يـــا حيـــاتـــى وأنســى مـــــــا تشتتُ فى فسيح البـــــــلاد

وكذلك فإنـه يرجع الصور الشعريـة فى مناجاتها لربها « إلهى ! أنارت النجـوم ونامت العيون وغلّقت الملـوك أبوابها ، وخـلا كل حبيب بحبيبه ، وهـذا مقامى بين يـديك » إلى أيام غرامهـا الآثم مع هذا الحبيب حيث كـانت لها معه « لياليهـا الخُمْر بين مخارف النخيل على ضفاف الأُبلّة وقد غفلت عيون الرقباء من الناس ومن الشرطة خاصة » كما يتبين فى عبارتها ذات الدلالة الكبيرة « وغلقت الملوك أبوابها ، أى اختفى سلطان الحاكم وأصبح فى وسعها أن تختلى بحبيبها تساقيـه ما تود من اللذات المحـرمة . وتأمّلْ خصوصـاً الشوق المتحسّـر فى قولها وخلا كل حبيب بحبيبه ـ ففيه قشعريرة قلب طالما نَعِم بهذه اللحظات العالية » .

وهذا التشخيص لانحراف رابعة المزعوم يعده علماء النفس والطب النفسى من الحالات المرضية التى لاشك فيهـا ، ويرجعه **كينزى** فى كتابه « **السلوك الجنسى عند الأنثى** » إلى أسباب عـدة تؤهل المرأة لأن تندفع فى طـريق الإثم وتوغل فيه وتصر عليـه ، ومن ذلك تدنى البيئة الاجتماعية التى تعيش فيها المرأة والتى تـربّت عليها وينبه عالم آخر مثل **ريتشارد سيمون** فى كتابه الجامع « **فهم السلوك الإنسـانى فى الصحة والمرض** » إلى تأثير الجيتو على انحراف البنات بخاصة .

والملاحظ أن الدكتور بدوى قدم لكتاب رابعة بما يفيد أنها كانت من أبوين فقيرين فقراً مدقعـاً ، وأنه من المحتمل أنهما كانـا من أصول أجنبية ، والموالى فى البصرة كانـوا يسكنون أحياء خاصة مهملة بشدة وغير صالحة ، وذلك حقيقى ومستمر حتى الآن ويسمونها هناك « **العشيش** » ، لأنها تتكـون من مجموعـة من العشش والأكواخ ، وتفـرخ فيها الجريمـة والانحراف ويعانى منهـا الأبناء سوء التوافق فى حياتهم المستقبلة ، ويتعلمـون منها الحقد الاجتماعى ، وتمتلىء قلوبهم بالحزل ، وتفـرغ البنات طاقاتهن العـدوانية فى الجنس توقعن فيه الرجال خصوصاً من الطبقة العالية .

ويلاحظ علماء النفس ارتباط انحراف البنات بتـدنى المستوى التعليمى والثقافى وعدم وجـود الوازع الـدينى نتيجة سـوء التربيـة والخلافات العائلية والطـلاق وسوء الأحـوال المعيشية والسكنية والخدمات الاجتماعية والصحية .

ومن رأى **فيليب سولومون وڤيرنون باتشي** فى موسوعتهما فى « **الطب النفسى** » أنه لابد كذلك أن تكون هناك مؤثرات بيولوچية تسبب الانحراف ، وسوء وظيفة المخ والجهاز العصبى المركزى والإفرازات الهرمونية .

وهناك إجماع بين علماء الطب النفسى على أن الإناث عموماً أقل إتياناً للإنحراف وأكثر ميلاً إلى العفة ، وأن الانحرافات التى يأتيها الذكور أكثر تنوعاً ، فاللواط ، والتشبّه ، والفيتيشية ، والتطلّع ، وغواية الأولاد ، والسدقر ، والتخنث ، كل ذلك وغيره يكاد أن يقتصر على الذكور دون الإناث ، وأن الغواية والحض على الانحراف السبب فيهما دائماً من ناحية الذكور .

وتلعب الأسباب النفسية دوراً حساسماً فى رأى علماء التحليل النفسى ، ومن ذلك أن البنات فى مثل حالة رابعة كما يشخّصها الدكتور بدوى ، لابد أن يعانين من صراعات حادة تظهر آثارها اضطراباً فى السلوك والتفكير ، وعدم نضج الشخصية وقصورها الاجتماعى . وغالباً ما يكون سبب انحراف البنت ـ كالانحراف المزعوم لرابعة ـ هو اضطرابات عصبية تصاب بها وتستفحل معها مع استمرارها فى حياة الانحراف لمدة طويلة ، وتميل إلى أن تصاب من جرّائها بالفُصام . والكثير من البنات اللاتى يمارسن الفجور مصابات بالشخصية الفُصامية ، وأغلبهن يعانين من تدنّى مستوى الذكاء وضحالة العواطف واضطرابها وعدم نضجها .

فهل كانت رابعة كذلك ؟ وهل هناك فى حياتها مايدل على مثل ما أشرنا إليه ؟

ولنفترض أن حالة رابعة هى إحدى الحالات التى تعرض على طبيب نفسانى أو عالم نفس أو محلل نفسانى ، فالإجراء معها هو أن يبحث فى تاريخ الحالة ويستمع إلى أقوال المحيطين بها وما يمكن أن يشكو منه أفراد عائلتها ، ويستعرض أقوالها واعترافاتها وشروحها وتعليقاتها على مختلف المواقف .

ولقد جمعْتُ فى الفصل الثانى كل ما استطعت أن أجمعه عن رابعة من كلام المؤرخين العارفين ، والإجماع على أن رابعة كانت ولية من أولياء الله ، وكانت عابدة خاشعة ، وأظهرت

التدين فى طفولتها الباكرة كما فى حكاية العطار عنها مع أبيها ، وكانت شديدة التدين فى المراهقة ويظهر ذلك من حكاياتها التى يرويها العطار أيضاً مع عابر السبيل الذى نظرها فى الطريق ، وصلاتها ، والنور الذى كان يحيط بها والذى بسببه أطلق مخدومها سراحها ، ثم فى شبابها طَلَبَها للزواج عبد الواحد بن زيد الصوفى الورع الزاهد المتبتل ، وخطبها محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة وكان معروفاً بالتقوى والصلاح ، ولم يتقدم لخطبتها إلا بعد أن استشار أهل المشورة من الصالحين فأشاروا عليه برابعة ، فهل كان من المعقول أن يكون خاطبوها على هذا القدر والتقوى والسلطة والجاه وأن تكون رابعة من النساء ذوات الماضى الشائن ؟ !

ثم إن أقوال رابعة ومحاوراتها لرجال الفكر والدين والدنيا تدل على ذكاء عال جداً ، ووعى وحس دينيين ، وشخصية متميزة من كافة النواحى . ولم تعرف عن رابعة أية شائنة ، لا فى سلوكها ، ولا فى أقوالها ، ولا فى محيطها من النساء والرجال ، ولم نعثر على نص واحد يدينها إلا حكايتين إحداهما عند اليافعى والأخرى عند لسان الدين الخطيب ، والحكايتان ليس فيهما من قريب أو بعيد أن رابعة متهمة فى شرفها أو والغة فى الإثم ، أو أنها كانت تقتات قوت الحواس ، وإذا كانت تعزف على الناى وتغنى ، ومع الشهادات السابقة لها من كل منْ أرّخوا لسيرتها من الأئمة والمشاهير فإنها لابد أن تكون من المنشدات المتدينات .

ومنذ وعت البشرية تاريخها فإن الإنسان كان عازفاً لآلة موسيقية ، وقد يستخدمها فى مجال التعبّد ، كما قد يستخدمها فى مجال اللهو ، ومجال رابعة هو مجال التعبّد بالإجماع ، وعزفها على الناى وإنشادها يُحسَب لها ولا يُحسَب عليها . ومن بداية التاريخ البشرى كان العزف مصحوباً بالكلام ، ولم تعرف البشرية الموسيقى الخالصة إلا فى القرن الخامس عشر الميلادى مع اكتشاف الهارمونى ، فبدأت كتابة الموسيقى لتعزف على الآلات ، و تطور ذلك الفن فى أوروبا خاصة منذ ذلك الحين . وقبل ذلك كنا نحن العربْ والأوروبيين سواء ، بصرف النظر عن روحنا الشرقية أو روحهم الغربية على عكس ما يقول الدكتور بدوى ، وكان عصر الباروك هو العصر الذهبى للموسيقى الخالصة ، والموسيقى لأية آلة وفى أى زمان ومكان تُعزف للمتعة ، سواء كانت متعة حسية أو روحية . والحب هو موضوع

الموسيقى المصاحَبة بالغناء أو الخالصة . وحتى أعمال باخ ، والدوافع لها ، وما يحكمها من روابط وما تقوم عليه من تراكيب ، قوامها الحب . **وباخ** ، نفسه هو الذى يقول عن آلات النفخ أنها تسره أكثر من غيرها ، وحلاوتها تذكّره بتجربته مع الحب . وكل الموسيقات العظيمة كانت مشبوبة بالعاطفة ، ورابعة إذ تقرض الشعر وتعزف الناى ـ وهو آلة نفخ ـ وتنشد ، إنما يضعها ذلك فى مرتبة عالية من التحضّر ويميزها بروح فنية متسامية .

ومن تصانيف علم النفس فى الشخصية ما يقال له **النمط الدينى أو الميتافيزيقى** ، ومنه نوعان : نوع **عقلانى** ويمكن أن ندرج فيه مثلاً **القديس أوغسطين وتريزا الأفيلية وبولس الرسول** ، ونوع **وجدانى** ومنه **رابعة العدوية والبسطامى والحلاج** . والتعبير بلغة الحب كان عن الأشواق الدينية منذ بداية البشرية ، فالأوائل كانوا يتعبدون للفَرْج وللقضيب ، ورسوماتهم الدينية والدراما الدينية فيهما من ذلك الكثير ، وقد ترقّت العواطف البشرية بتأثير الدين وبما فرضه من أوجه التحاريم أو التابو ، غير أن اللاشعور كان يجد طريقه دائماً حتى فى أسمى المواقف تديناً ، فكانت الأشواق إلى السماء ، وإلى الاتصال بالله ، والتعبير عن المحبة له والأنس به ، والغيبة فى تجلياته ، والسُكْر فى شهوده .

والتجربة الدينية الممتعة التى تدخلها الشخصية الدينية باستمرار وتطلبها فى اتصالها بالناس وبالكون ،بخلاف التجربة التى تدخلها الشخصية من النمط الحسى الشهوانى والذى يطلب المتعة الجنسية الشبقة فى كل ما يتصل به من أمور الحياة . وينطبق النمط الحسى الشهوانى على البغايا والمخالطات أو المشاعيات وضحيات الغواية . وهناك سيكولوجية خاصة بالغواية من ناحية الرجل الغاوى والمرأة المغواة أو الضحية ، وكلاهما سعى للآخر بالجاذبية ، وما كان يمكن أن تكون المرأة ضحية إلا لأن لها دورها الإيجابى فى الغواية أيضاً بحكم ملامحها وطريقتها فى الكلام وتكوينها الجسمى وملابسها الفاضحة . **ولم تكن رابعة بها أى من هذه الأمور لتكون ضحية غواية من حبيب أصابها من حبها له أن فقدت التفكير السليم ، وباعت دينها وشرفها وماضيها المعروف بالصلاح عن أبيها وأمها** ، ولقد كانت شهرة أبيها أنه العابد ، وكانت له رؤى وكرامات كما كانت لرابعة كرامات منذ طفولتها .

وفى علم النفس الدينى أن التجربة الدينية لابد لها من استعدادات شخصية ذهنية ونفسية ، وتوجهات واهتمامات واتجاهات وميول مسبقة . ولابد أن تكون للشخصية الدينية نوازع وأشواق تهفو بها إلى التفكير فى الكون وخالقه وتستشعر عظمة الله فيه ، ويسمى فرويد ذلك **بالحس الكونى cosmic sense** ، ويسميه آخرون **بالحس الميتافيزيقى** ، وذلك الحس الغالب هو الذى يجعل الشخصية تضفى التفسيرات الصوفية على التجارب الحياتية وتخلص منها بمعان ومشاعر تتسامى بالشخصية فترهف بها الذات ويكون لها مزاج روحى يرفعها باستمرار ويوجدها أمام الله .

والطفلة رابعة التى تحذر أباها من الحرام ، **ثم المراهقة رابعة** التى تشكو حالها لربها كعادة المراهقات فى الشكوى ، تبلغ شأواً بعيداً فى النضج الفكرى والدينى عندما تخاطب الله بما يعنى أنها لا يهمها كل ما يعرض لها من مشاكل وسوء معاملة طالما أنها تستشعر أنه راض عنها ، أى راضٍ عن ردود فعلها على كل ذلك ، فهى لا تتصرف أبدًا بما يغضبه وكانت تضع رضاه فى المحل الأول من أى سلوك تأتيه .

ويقول علماء النفس : **إن الشخصية المتدينة تتميز بأنا أعلى متطور** ، وأن تطوره **أسرع** من كل أجزاء الجهاز النفسى ، والأنا الأعلى الأخلاقى أو الدينى يكون أصلاً فى الشخصية المتدينة **أكبر** من سواه عند الأشخاص غير المتدينين ، وهو **أقدر** على النمو والامتثال للتربية الدينية والأخلاقية عند الشخصية المتدينة منه عند غيرها من الشخصيات .

والبغى أو المخالطة أو الفاجرة تتوب بالعلاج النفسى أو بالمعاناة الصادمة ، ولكن توبتها لا تكون سوى امتناع عن الفعل الشائن ، إلا أنها لا تكون مؤهلة لكى تكون صوفية لها أقوال ومذهب ومبادىء ومدرسة . والصراعات التى قد تدخلها الفاجرة لن تأتيها أصلاً إلا إذا كانت تحت تأثيرات من شخصية تحبها فتنحرف عن طريق الفجور إلى طريق الصلاح ، ومع ذلك تظل التائبة مهددة بالعودة إلى طريق الفجور لو عانت ضغوطًا تعود بها القهقرى وتنكص بها إلى سيرتها القديمة .

ومن أشق الأمور فى الطب النفسى أن تتوب الفاجرة ، وتحتاج للتوبة أن تكون مستبصرة بحالتها وراغبة فى التوبة ، وأن يوجد إلى جوارها المرشد عالى الهمة ، واسع الثقافة ، شديد الإيمان برسالته كما تقول تريزا ، الذى يساعدها على التوبة ، ويقوى من أناها ، ويصلح ما به من شروخ ، ويسد ما أصابه من فجوات ، ويدعمه ، ويحتاج ذلك إلى سنوات . ولقد احتاج **القديس أوغسطين** إلى عشر سنوات من القراءة المتواصلة فى الأفلاطونية المحدثة والاستماع إلى **القديس أمبروز** والمحاورات مع أساطين المسيحية ، لكى يقتنع بالمسيحية ويعتنقها ، ويتنكب الطريق القديم ، ويترك عشيقته ، ويترهب ، ويعتزل الحياة الجنسية . وقبل كل ذلك كان للقديس أوغسطين شخصية قوية ، وذهن وقّاد ، وفلسفة يصدر عنها فى سلوكه ، ونفس مشرئبة إلى المعالى وتهفو باستمرار للتعالى والاتصال بالمتعالى الذى هو الله . وهو يحكى عن تجربته الدينية حديثه الشيّق فى **اعترافاته** ، فنفهم أنه فى كل ما كان يفعل قبل التدين والرهبنة كان ينشد المطلق والمتعالى ويشتاق للدخول فى تجربة مع اللامتناهى ، فالاستعداد هو الأساس دائماً فى التصوف ، ولم يتصوف **الفضيل بن عياض** قاطع الطريق لمجرد أنه استمع إلى الآية : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ ، فلو لم يكن يعرف ربه قبل سماع الآية ، بل ويعرف الآية معرفته لأولاده بل أشد ، لما قال قولته « يا رب قد آن » .

ويحدثنا علم النفس عن الانحراف بالصدفة والانحراف بالفطرة ، وانحراف **الفضيل** قبل التصوف كان بتأثير البيئة ، ولكن فطرته الإيمانية هى التى غلبت تأثيرات البيئة ، وما كان ينقصه سوى أن يسمع هذا الهاتف يدعوه فيترك كل شىء ويمضى فى الإيمان . وفطرته هذه هى التى بها يقول « إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خُلُق حمارى وخادمى » . ومع ذلك **فالفضيل بن عياض** لم يكن فى التصوف مثل رابعة ، ولا ارتقى إلى ما ارتقت إليه ، ولا عرف ما عرفته وذاق ما ذاقته ، **فالفضيل** التائب بخلاف رابعة ، شهيدة العشق الإلهى ، والمُحبّة الصوفية ، وشتّان بين مكانة رابعة ومكانة **الفضيل** ، وقد دخل **الفضيل** باب الشهرة من طريق التوبة ، وإنما دخلت رابعة مجال الشهرة من أوسع أبوابها وهى المَحبة ، وأخصها باب العشق ولقد سألوها : أترين من تعبدين ؟ قالت : لو كنت لا أراه لما عبدته » ، فهى تراه بقلبها ، وتسمى هذا العلم المتحصل من ذلك **بالعلم الروحى** ، وتقول عنه : إن

ثمرة العلم الروحى هى أن تصرف وجهك عن المخلوق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده ، لأن المعرفة هى معرفة بالله » .

ورابعة روحانية قد غلب حب الله على قلبها وأهوائها وإرادتها ، ووقعت عليها الخلة من الله ، فأين ذلك من **الفضيل بن عياض** ! فلابد إذن أن رابعة كانت بفطرتها واستعدادها وتربيتها ، والقدوة التى كانت لها فى أبيها وأمها ، ومجاهداتها مع أقرانها أمثال **الحسن البصرى ، وعبد الواحد بن زيد ، ورياح القيسى ، وسفيان الثورى** ، كانت مؤهلة تماماً لكى تكون رابعة التى دخل اسمها التاريخ ونعرفها ويشهد لها القاصى والدانى ، حتى أن **ابن تيمية** قد شهد لها وكذّبَ ما قيل عنها من أساسه .

وإذن ، فلا يمكن علمياً أن تكون رابعة فاجرة كما يدعى الدكتور بدوى . ولعمرى كيف تسنى له أن يقذفها بما قذفها به والله تعالى يقول فى كتابه . ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا ، وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

(سورة النور الآيات ٤ ـ ٥) .

والمحصنة هى العفيفة ، والبيان فى الآيتين عن القاذف للمحصنة ، فإذا لم يأت بأربعة شهود فيجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل له شهادة ، ويُقضَى فيه بالفسق ، أى لا يكون عدلاً عند الله ولا عند الناس إلا أن يتوب ويصلح .

ويقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل ، امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾ .

(سورة النور . الآية ١١) .

وكان نزول هذه الآية فى السيدة **عائشة** حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت ، ومعنى أنهم عصبة أى جماعة تتجاوز الواحد أو الاثنين ، وقد

تقدمهم كبيرهم رأس المنافقين **عبد الله بن أبي سلول** ، الذى كان يجمعهم ويستوشيهم ، حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوّزه آخرون إلى أن نزل القرآن يدحض الفرية .

ويقول الله تعالى : **﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكذابون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما افضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافوهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وانتم لا تعلمون ﴾** .

(سورة النور . الآيات من ١٢ ـ ١٩)

والمعنى أنه كان الأحرى بالمؤمنين أن يحسنوا الظن بأنفسهم ولا يصدقوا ما سمعوه من افتراءات على الأعراض ، طالما أنها لم تثبت ولم يقم عليها الدليل الدامغ ، وقد مالأتم الخائضين بأن خضتم معهم ورويتم عن بعضكم البعض وقلتم بالسنتكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . وكان الواجب أن تقولوا لاينبغى أن نذكر ما سمعناه لأحد لأنه البهتان ، والله ينهاكم أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ، ويحذركم من الذين يحبون أن يلطخوا سمعة المؤمنين ، وأن يقال عن مجتمعاتهم أنها مجتمعات تشيع فيها الفاحشة وفى الحديث الشريف . إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ ، يهوى بها فى نار أبعد مما بين السماء والأرض » . وفى الحديث أيضاً : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته » . وهو ما كان ينبغى على **الدكتور بدوى** أن يتوخاه ، فليس ما ذكره عن رابعة من التفلسف فى شىء . وكان الأحرى بغيره من المفكرين أن يصوّبوه وقت ظهور كتابه ، والحق أن كثيرين قد كتبوا ناقدين للكتاب مثل **الدكتورة سعاد عبد الرازق** ، **والأستاذ طه عبد الباقى سرور** ، غير أنهم لم ينبهوا إلى حكم الشريعة فيما أتاه الدكتور .

وخطورة هذه الاتهامات التي ساقها آخرين وقد اعتبروه من الثقات قد شايعوه عليها واعتبروها حقائق ، فكتبت سنية قراعة كتابها **عروس الزهد رابعة العدوية** ، واخترعت لحياتها قصة ملفقة مضمونها افتراءات الدكتور وأقامت منها مغنية في حانة ، ومحظية عند أحد التجار يتنازعها منافسوه ويكيدون لبعضهم بسببها . واستحسن القصة أحد المنتجين فصاغوها فيلماً جعلوا عليه ممثلة لم يكن لها من الحضور والشخصية ما يتوافق وعظمة رابعة ، وظنوا أنهم لو أشركوا في الفيلم سيدة الغناء العربي أم كلثوم لتقوم بدور رابعة كمغنية فإن ذلك سيحقق لهم النجاح ، وقد نسوا أن غناء أم كلثوم لابد أن تتهايا معه الممثلة ، وأن يأتي تمثيلها على نفس القدر من امتياز الغناء ، ولولا أم كلثوم وشعر طاهر أبو فاشا لافتقد الفيلم كل المقومات التي كان ينبغي أن تتوافر لعمل كبير كهذا .

ولقد كان طاهر أبو فاشا صوفياً في القصائد الست التي قدمها ، وأحسب أنه عاش حياة رابعة الحقيقية حتى أننا لنقرأ قصيدته **عَرفْت الهوى** فكأن رابعة هي التي صاغتها ، وكأن الزيادة التي أضافها على أبياتها الأربعة المشهورة هي من نسج رابعة نفسها . وكم كانت رائعة أم كلثوم وهي تصور بصوتها المتعبد وعواطفها الجياشة الألحان التي وُضِعت لهذه الأشعار الإلهية ، وكان الجميع : أم كلثوم ، وأبو فاشا ، ورياض السنباطي ، وكمال الطويل ، ومحمد الموجي ، جوقة من العباقرة تلبّستهم روح رابعة ، وحلّت بهم كراماتها وبركاتها ، فجاءت الأغاني الست من آيات الإبداع .

يقول أبو فاشا على لسان رابعة :

عـرفت الهوى مـذ عـرفـت هـواكَ ... وأغلقت قلبي عمن عـداكـا
وقمت أنـاديك يـا مَنْ تـرى ... خفـايـا القلـوب ولسنـا نـراكـا
أحبـك حبين حـب الهوى ... وحبـاً لأنك أهـل لـذاكـا
فأمـا الـذي هـو حب الهوى ... فشُغلي بـذكـرك عمن سـواكـا
وأمـا الـذي أنت أهلٌ لـه ... فكشفُك للحُجب حتى أراكـا
فـلا الحمـد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمـد في ذا وذاكـا

★★★

أحبـــــك حبين حـــــب الهوى ... وحبـــــاً لأنك أهـل لـــذاكـــا
وأشتـــاقُ شـــوقين : شـــوقَ النـــوى ... وشـــوقـاً لقـــرب الخطى مِنْ حماكـا
فأمـــا الـذى هـــو شـــوق النـــوى ... فَمَسْرى الـدمـــوع لطـــول نـــواكـا
وأمـــا اشتيـــاقي لقـــرب الحِمى ... فنـــارُ حيـــاةٍ فنت فى ضيـــاكـــا
فـــلا الحمـــــد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكـن لك الحمـــــد فى ذا وذاكـــا

★★★

ويقول :

غـــريبٌ على بـــاب الـرجـــاء طـــريح ... ينـــاديك مـــوصـول الجوى ويبنـــوح
يهون عـــذاب الجسم والـروح ســـالم ... فكيف وروح المستهـــــام جـــــروح
وليس الـذى يشكو الصبـابـة عاشقـاً ... ومـــا كل بـــاكٍ فى الغـــرام قـــريح
ولى فى طـــريق الشـــوق والليل هـــائمٌ ... معـــــالم تخفَـى تـــــارةً وتلـــوح
ولى فى مقـام الـــوجـد حـــالٌ ولـوعـــةٌ ... ودمعٌ أدارى فى الهوى ويبـــــــوح
وأنت وجـــودى فى شهـــودى وغيبتى ... وسرّك نـــور النـــور أو هـــو رُوح
ومـــا دخلتْ إلا إليك مـــــواجـــدى ... وداعى الهوى بالوالهـــــين يصيح
بسرّ الهوى يغـــدو وفيـــه يـــروح ... غـريبٌ على بـــاب الـرجـــاء طـــريح

★★★

ســـألـــت عـــن الحب أهـــل الهوى ... سقـــاة الـــدمـــوع نـــدامى الجوى
فقـــالـــوا حنـــانك مـن شجـــوه ... ومِن جـــــــــــدّه بـك أو لهوه
ومِن كـــــدر الليل أو صفـــــوه ... سلى الطير إن شئِت عن شَـــــدْوه
ففى شـــــدوه همســـــات الهوى ... وبـــــــرْح الحنين وشرْخ الجوى

★★★

ورحت إلى الطير أشكـــو الجوى وأســالـــــــه سرّ ذاك الجوى
فقـــال حنـــــانتِك مـن جمره ومن صحـــو ســاقيـــه أو سُكـرِه

ومـــن نهـيه فيـــكِ أو امـــرِه

★★★

سَـــلِ الليـــل إن شئـــتِ عـــن سرّه ففـي الليـــل يُبْعَـث أهـــل الهوى

وفـــي الليـــل يكمـــن سـرّ الجوى

★★★

ولما طـــوانى الـــدجى والجوى لقيـت الهوى وعـــــــرفت الهوى
وتلـــــــك النجيمات سُمّارُه وتحت خيـــام الـــدجى نـــاره
وفى كـل شـيء يلـــــــوح الهوى ولكـــــن لمن ذاق طعـــــم الهوى

★★★

ويقول :

لغيرك مـــا مـــددت يـــدا وغيُرك لا يفيـض نَـــــــــدا
وليس يضيـق بـــــــابُك بى فكيـف تـــــرد من قصـــــدا
وركنك لم يـــــزل صمـــــدا فكيـف تـــــــذود من وردا
ولطفك يـــــــا خفـى اللطـف إنْ عـــادى الـــزمـــان عَـــدَى
على قلبـى وضعـتُ يـــــــدا ونحـــوك قـــد مـــددتُ يـــدا
سرى ليلى بغير هـــــــــدى ولا أدرى لأى مـــــــــدى
يطـــــاردنى الأسى أبـــــدا ويـــرعـــانى الجوى أبـــدا
وأطـــوى البيـــد طـــاويـــة كـأنى فى الفضـــاء صَـــدَى

نهارى والهجير لَظَـــــــــــــى ... وليلى والظـــــــــــــلام رَدى
فـــــــــواكبـــــــــدى إذ أُضحى ... وإن أمُسى فـــــــــواكبـــــــــدى
وليس ســـــــــواك لى سنـــــــــد ... فقـــــــــدت الأهل والسنـــــــــدا

ويقول:

على عينـــــــى بكـــــت عينـــــى ... على روحـــــى جنـــت روحـــــى
هـــــواك وبُعـــــد مـــــا بينى ... وبينـك ســـــــــــــرٌ تبريحى
على عينـــــــى ، على روحـــــــى ... فـــواغـــوثـــاه يـــا غـــوثـــاه
ومـن طـــــــول النـــــــوى ... أواه آه آه
صحـــــا من شجـــــوه كاسى ... وقـــــد نـــام الخليّـــونـــا
وكيـف أفـــــــــر مـن نفسى ... إذا هـــــام المحبـــــونـــــا
على نفســـــى جنـــــت نفســـــى ... فيـــا ويـــلاه يـــا ويـــلاه
ومـن طـــــــول النـــــــوى ... أواه آه آه
حيـــــائى منك يبعـــــدنى ... وداعـى الشـــــوق يُـــــدنينى
ووجـــــــه الصفح يخجلنى ... ويقتلنـــــــى ويحيينـــــــى
وايـــــامـى تقـــــاضينى ... على مـــــا كـــــان واسفـــــاه
ومـن طـــــــول النـــــــوى ... أواه آه آه
خلـــــــوت إليك يـــــا ربى ... وقلـت عســـــــــــاك تقبلنى
فما بـــــــــالى ارى ذنبى ... وايـــــامـى تطـــــاردنى
مـــــددت يـــدى فخـــذ بيـــدى ... إليـك ومنـك يـــــا ربـــــاه
ومـن طـــــــول النـــــــوى ... أواه آه آه

★★★

رحم الله طاهر أبو فاشا وأم كلثوم !

الفصل الثامن

رابعة فى ضوء التحليل النفسى

★★★

إن مفتاح شخصية رابعة يكمن فى أحوالها وطوارقها النفسية ، فى خوفها وأنسها ، وشوقها وحبها وطمأنينتها ورجائها ، وقبضها وبسطها ، وتهيبها وتواجدها ، وفنائها وبقائها ، وغيبتها وحضورها ، وصحوها وسكرها ، وذوقها وشربها ، ومكاشفاتها ومشاهداتها . وأعماق نفسيتها يفسرها أنها صوفية ، وللتصوف سيكولوجية لا يحسن التحدث فيها إلا الصوفية أنفسهم ، ولعل أستاذ التحليل النفسى فى التصوف هو **المحاسبى** بلا منازع ، واسمه **المحاسبى** لأنه كان شديد المراقبة لنفسه .

والأحوال فى التصوف معان ترد على القلب وتحل فيه ، فإن كانت كالبروق وزالت فى وقتها فهى **الطوارق** ، وإن استقرت فيه ودامت فهى **الأحوال** قد تمكنت وطبعت الصوفى ، والصوفى إنسان عابد **homo religioso** ، وهو فى معراج الترقى فى القمة ، فالصوفى يتسامى بغرائزه وحاجاته ويتحول بطاقته الشهوية إلى تربية ذاته ، فإن ترقى عن ذلك فإنه يتحول بها إلى الله فتشغله محبته لله عن نفسه . والمعاملة إذا صارت إلى المحبة تستريح الجوارح بها ، ويتحصل للصوفى اليقين ، وتتحقق له الطمأنينة .

ورابعة راعت سرها من خواطر نفسها ومشغوليات الأسرة وعوارض الجسم المذمومة . وتمكنت رابعة من المجاهدة حتى صارت لها بمثابة الوطن تجد فيها لذة قلبها وتتذوق لها حلاوة . ويروى عن رابعة أنها كانت تصلى فى اليوم ألف ركعة ، وكانت تستغفر وتبكى حتى ليكون دمعها مثل المستنقع تحتها . وكانت تستلذ بالصلاة وترتاح لها نفسها، وتتوسل إلى الله وتناجيه وتعاتبه فى رجاء ، وتأنس به عن الأهل والولد . والألم الصوفى نتيجة المجاهدات الطويلة والمنهكة قد يتحمله البعض وقد يتخفف منه آخرون ، ولكن رابعة وهى الأنثى كانت

تستعذب الألم ، والإناث عموماً بهن **ماسوشية** ظاهرة ، بمعنى أنهن بالفطرة قادرات على احتمال الألم ، ولولا ذلك ما تطلب الأنثى الحمل المرة بعد المرة رغم ما فيه من مشقة وعُسر تعانيهما وتجد لهما حلاوة فى قلبها . وفى الألم الصوفى يقول **محمد بن واسع** : كابدت الليل عشرين سنة فتنعمت به عشرين سنة » . وسألوا **رياحاً القيسى** فى حضرة رابعة . هل طالت بك الليالى والأيام بالشوق إلى لقاء الله ؟ فسكت ولكن رابعة أسرعت بالجواب : أمـــا أنا فنعم! » . فكانت رابعة تكابد الشوق لله ، وتتعذب فى شوقها . وكانت راضية بعذاباتها فى حبها لله ، فلما قال **سفيان الثورى** عندها يوماً : اللهم ارض عنى ؟ قالت له . أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه بـراض ؟ ! ـ فهى راضية دائماً ، وحالها فى الـرضا أنها تسرها منه تعالى المصيبة كما تسرها النعمة . سئلت : متى يكون العبد راضيًا ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة ! ـ وأحوالها فى محبة الله حتى لينسيها هذا الحب نفسها ، فهى تفنى فى أحوال أنسها بالله عن ذاتها حتى لتدخل شظية فى عينها وهى تسجد فما تدرى بها ولا تتوجع . وكانت إذا ذكر اسم الله فى أحوال أُنسها تتوجد وتبكى وتصرخ حتى ليغشى عليها . وهى تتوجد إذا عصفت الرياح واضطربت الأمواج وأشرقت الشمس بنورها واظلمت الدنيا فظهرت النجوم بلألائها . وقد تبكى وتتوقد حاستها الشعرية فتسبّح لعظمة الله . تقول . سيدى ! بك تقرّب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبّحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات ! أنت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، والفُلك الدّوار ، والبحر الزخّار ، والقمر النوّار ، والنجم الزهّار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلى القهّار !

وفى البيتين اللتين تقول فيهما .

مـن ذاق حبك لا يـــــــــزال متيماً ... فـــــرح القـــــؤاد متيماً بَلْبـــــال

مـن ذاق حبك لا يُـــــــــرَى متبسماً ... من طـــول حـــزن فى الحشـا إشعـــال

وتلخص رابعة أحـوالها بين البسط والقبض ، أو الفرح والاكتئاب اللـذين يتراوحانها . وقـد يبدو أنها تعـانى من مرض نفسى مما يعـالجه أطباء النفـوس ، إلا أن الأحوال عند

الصوفية ليست من مجالات الطب النفسى ، وحبها ليس توهماً كالذى يعانى منه مرضى الوساوس .

وفى حكاية لأحد الزهّاد قيل إنه **الحسن البصرى** ، أنهما بقيا يوماً وليلة يتحدثان عن الطريق الروحى وأسرار الحق بحرارة بلغت حداً نسيا معه أنهما رجل وامرأة ، فلما انتهيا من النقاش ، يقول **الحسن البصرى** : شعرت أننى لم أكن إلا فقيراً بينما هى غنية بالإخلاص !

والإخلاص سمة رابعة المميزة لشخصيتها . وهى مخلصة عندما كانت طفلة وطلبت من أبيها أن لا يُؤْكلها إلا بالحلال ، ومخلصة أن ترضى بكل عذاب طالما أنها تستشعر رضا الله عنها ، ومخلصة فى توبتها عن نفسها والدنيا وتَفَرُّغها لربها وتجردها ، فلم تتزوج ولم تنجب ، ولم تُشغَل بشىء عن عبادتها . ويصفها **العطار** فيحسن الوصف إذ يقول « عشقها لله كان متأصلاً فى أعماق قلبها » . ولربما يصح أن نقول عن محبة رابعة لله أنه **عِشقٌ** بينما تَعلُّق سمنون بالله أنه **محبة** . وخصوصية محبة أو عشق رابعة لله تعالى أن رابعة أنثى ، والمحبة شُغل الأنثى ، لأنها عندما تحب فبِكيانها كله .

ولعله لهذا تقول فى حبها لله هذه الأبيات المشهورة عنها .

احبـــك حبين : حـــب الهوى	**وحبّـــا لأنك أهل لـــذاكـــا**
فامـــا الـــذى هـــو حب الهوى	**فـذكـــر شغلت بـــه عن ســواكـــا**
وأمـــا الـــذى أنت أهل لـــه	**فكشفك الحُجب حتـى أراكـــا**
فما الحمـــــــد فى ذا ولاذاك لى	**ولكن لك الحمـــد فى ذا وذاكـــا**

فحبها لله فيه معنى المحبة الإنسية التى يَعرف عنها البشر ، وفيه كذلك تلك المحبة التى تفوق ذلك وتتجاوز كل وصف ، لأنها من أسرار مقام المشاهدة ، وفيها تقول رابعة . إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة ! » ـ والأمر مع رابعة الأنثى أنها تتزيد المحبة المؤلمة لها ، تقول : إلهى أغرقتنى فى حبك حتى لا يشغلنى شىء عنك ! » ـ وهى من فرط تمنيها أن

لا يشغلها شيء عن ربها تطلب منه « **الفقر الروحي** » وتفسره منسوباً لله تعالى بأنه « عاطفة خوف من غضب لله يجعلها في طريق الأولياء » ، ورابعة يتراوحها **الخوف من الله والمحبة لله** .

ولعله أن يكون مقصود الصوفية من قولهم « الله فينا » ليس هو **الحلول** بالمعنى المتداول ، ولكنه **الأنا الأعلى** الذي يمثل الله في الإنسان ، ولأنه الأنا الآمر فالإنسان يخشاه ، ولأنه متعال فهو يحبه . ورابعة في قبضها تقول : إلهي ! أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ » ـ وكانت كلما سمعت النار تصيح وتسقط ، وسمعها **مالك بن دينار** تقول : يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ » ـ وفي بسطها تطلب أن تشاهد وجهه وتسأله تعالى أن يريها درجة السعادة التي يصل إليها العاشقون لله . وتباهي بحبها فيسألونها : أي رابعة ! أتحبين الله تعالى ؟ فتصرخ : أجل أحبه ! أحبه حقًا حبًا يمنعني من الاشتغال بكراهية ما سواه ! » ـ وترى في المنام الرسول ﷺ يسألها : يا رابعة ! أتحبينني ؟ فتقول : يا رسول الله ﷺ ! وهل ثمت من لا يحبك ؟ ولكن حبي لله تعالى قد ملأ قلبي إلى حد لم يجعل ثمت مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته ! »

ورسالة الحب هي رسالة المرأة ، وليس بالمستغرب أن تكون المحبة هي حال رابعة ، وإنما محبة رابعة في الذُرَى ، وعامة الناس محبتهن للدنيا ، والقلوب مجبولة كما يقول رسول لله ﷺ على حب من يحسن إليها وبُغض من يسيء إليها . ولكن محبة رابعة متناسبة مع ترقي رابعة في مدارج العبادة وارتفاع قامتها في الإنسانية ، وحبها لله لذلك هو حب الصادقين والمتحققين . ودراسة رابعة نفسياً ، أو سيكولوجية رابعة ، مجالها لهذا السبب في علم النفس التكاملي ، **والإنسان الكامل** هو العابد الذي عرف ربه فأحبه ، وذاق من محبته تعالى لخلقه فأحبهم لحبه ، ومُلىء قلبه فطار بالله طرباً وهام إليه اشتياقاً كما يقول الخراز . وكان الرسول ﷺ يقول : « إنه ليُغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة » . فكان ﷺ في الترقي من أحواله ، فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها يلاحظ ما ارتقى عنه ويعده غيناً ، كما يعد ما ارتقى إليه ، فكانت أحواله في تزايد .

ورابعة تقول . يا إلهي ! إذا كنت أعبدك خوف النار فاحرقني بنارها ، أو طمعاً في الجنة

فحرّمها علىّ ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك! » . وسبيلها ذاك أو **معراجها الروحى** تقول فيه إنه الطريق الذى اكتشفته ، وهو السبيل السوى . وهى لم تعرف غير الله فى حياتها ، وكانت معه بقلبها وجسمها وروحها ونفسها . وما كانت تعرف النوم ، وكان يمر بها الأسبوع ولم تتناول طعاماً ولم توقد سراجاً ، وإنما هى فى شغل دائم مولعة بالصوم والصلاة . وهى تقول على لسان محبوبها « يا رابعة ! إن شئت أن تكونى دائمًا مولعة بى فعليك أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة ، ولن تنالى الوَله حتى يكون لك ترك الدنيا ، فالوله من أجل الله ليس مجاناً » . ومن أجل الله تشتتت فى البلاد ، وهاجرت فى أرض الله الواسعة ، وكانت راحتها فى خلوتها فى حضرة الله الذى لم تجد عن هواه عوضاً ، وهواه هو **عظمتها** ، وهو أيضاً كما تقول **محنتها** ، وأقصى أمنياتها أن يجود الله بالوصل .

وتعبيرات رابعة نسائية خالصة ، فلم يكن تصوفها استرجالاً أو تعويضاً عن النقص الذى تستشعره فى نفسها كأنثى كما يقول عالم النفس **أدلر** ، ولكنه كمال تطلبه لنفسها . وشخصية رابعة من هذا النمط الذى من دأبه التجرّد ، ويختار المعنوى على الحسّى ، فإذا سألوها عن شوقها للجنة قالت : الجار قبل الدار ! » . وهى **ملامتية** : لا تحب أن يظهر عملها ، وتقول : ما ظهر من عملى فلا أعده شيئًا » . ومن فرط أنوثتها كان خطابها لمن تأنس بإيمانه « حبيبى » ، وقد نادت به اللص الذى دخل بيتها سارقاً بعد أن تاب على يديها وسمعته يبكى فى صلاته ، ولم يعتبر عبد الرحمن الجامى أنوثتها نقصاً فيها ، ولم يعد طريقتها استرجالاً ، فقال عنها : **العارفة الواصلة إلى مراتب الرجال** » ، وهى شهادة رجل تضاف إلى شهادات كثيرة من أهل الرأى وشيوخ الطريقة ، فقد قال فيها **سفيان الثورى** : **المؤدبة التى ما أرتاح لمجلس أحد مثلما ارتاح لمجلسها** » .

ورابعة المرأة والصوفية قيل فيها أنها « **فى المحبة رائعة** » وقد شربت من كأسها وخمرتها حتى الثمالة ، وسمعت الكثير من العتاب لها على حبها وإخلاصها لهذا الحب حتى قالت هذه الأبيات المنسوبة لها :

كاسى وخمرى والنديم ثلاثة ... وأنا المشوقة فى المحبة : رابعه

كأس المسرة والنعيم يديرها ... ساقى المدام على المدى متتابعه

فإذا نظرت فلا أرى إلا له ... وإذا حضرت فلا أرى إلا معه

ياعاذلى ! إنى أحب جماله ... تا الله ما أذنى لعذلك سامعه

كم بتّ من حُرَقى وفرط تعلّقى ... أجرى عيوناً من عيونى الدامعه

لا عبرتى ترقا ولا وصلى له ... يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

وقد وصف **الغزالى** حال رابعة فقال: إن حبها لرب الدار ، أى الدنيا شغلها عن الدار وزينتها ، بل عن كل شىء سواه ، حتى عن نفسها ، ومثلها مثل العاشق المستهتر بمعشوقه ، المستوفى همه بالنظر إلى وجهه ، فإنه فى حالة الاستغراق يغفل عن نفسه ، ولا يحس بما يصيبه فى بدنه ، ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه » . وهذا المعنى عند **الغزالى** يرفع عن رابعة أن تكون معاناتها من المرض النفسى الذى يطلق عليه **فقدان الشخصية** Depersonalization ، وفقدان الواقع Derealization . ويقول **الغزالى** : إن معنى أن رابعة قد فنيت عن نفسها أنها صارت مستغرقة بغير نفسها ، وصارت مهمومة بالله ، ولم يبق منها متسع لغيره أو لنفسها ، وهذه الحالة هى التى توصل إلى قرة عين لا يُتصوَر أن تخطر فى هذا العالم على قلب بشر » .

★★★

الفصل التاسع

قضـــية زواج رابعـــة ، والمحبة والخلة عندها ، والشطـح المتهمة به

★★★

لم يختلف الأقدمون فى أمـر زواج رابعة ، ويبدو إن المحدثين وحـدهم هم الذين اثاروا القضية وجعلوا من زواجها مشكلة ، وكان الـدكتور بدوى أيضاً هو المشكك فى الأخبار التى افترضت زواجها ، واعتمد فى ذلك على خلط المؤرخين بينها وبين رابعـة الشامية ، وأن رابعة كما أورد المؤرخون عنها قد خُطِبت لاكثر من واحد ، وفى كـل مرة كانت ترفض فكرة الزواج من أصلها .

وتؤكد الدكتورة سعاد عبد الرازق على خلاف الدكتور بـدوى أن رابعة تزوجت ولم تخطب إلا بعد أن مات زوجهـا ، وتفترض ان زوجها كان **رياحاً القيسي** ، وتقول إن رياحاً قد توفى بين عام ١٧٧ وعام ١٧٩ هـ ، أى فى تـاريخ سابق على وفاة رابعة بحوالى عشرة أو خمسة عشرة عامًا ، وذكرت فى وفاتها أنها عاشت يقينًـا ما يقرب من خمسة وثمانين عاماً ، ومعنى ذلك أن عبد الواحد بن زيد ومحمد بن سليمان الهاشمى لم يتقدما لخطبتها إلا وهى فى سن السبعين أو الخامسة والسبعين بعـد أن توفى زوجهـا وذلك ما لا يقبلـه عقل ويمـجه الذوق !

وطالما أن هـذه المسألة مـن المسائل التى ينبغى أن يتـوفر لها مؤرخ فـأرى أن نتركها لنتناول بـالشرح ما هو أهم ، وهـو رأى رابعة فى الزواج ، أو مـا أطلق عليه الدكتـور بدوى **نظرية رابعة فى الزواج** . وعنده إذا صـحت الأخبار التى تروى عن الحسن البصرى ومالك بن دينار ، والتى تؤكد عدم زواجهما عن مبدأ فإن الدعوة إلى التجريد أى عدم الزواج تكون

قد وجدت فى عصر سابق على رابعة . وقد دعا بهذه الدعوة الصوفية الذين اعتقدوها لما رأوه من عدم توافق الجمع بين التأهل وبين ممارسة حياة الزهد . ولم يعدموا فى القرآن آيات يمكن تأويلها بحيث تؤيد وجهة نظرهم . غير أن رابعة هى التى ضربت بسهم وافر فى سبيل تقنين عدم الزواج عند الصوفية ، وكان لها أثرها الحاسم فى هذا التوجه ، لأنه صار بها بمثابة القاعدة التى كان من الصعب على الصوفية من بعد الخروج عنها ، وذلك لأن رابعة امرأة ، وغاية المرأة فى الحياة هى الزواج ، وهو عندها أهم مما هو عند الرجل فإذا كانت وهى المرأة حريصة على عدم الزواج ، فما أبلغها من قدوة عند الصوفية . وكانت لمسئلة خطبتها مرتين دلالتها على قوة نفسها فى هذا الباب ،وكان جوابها على عبد الواحد بن زيد - بعد أن حجبته أياماً ولم تشأ أن تراه بعد أن سمعت منه هذا المنكر فى نظرها ونظر كل صوفى حقيقى وهو طلبها للزواج منه - « يا شهوانى ! أطلبُ شهوانية مثلك ! أى شىء رأيتَ فىّ من آلة الشهوة ؟ » . كما كان جوابها على أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمى وقد خطبها على صداق مقداره مائة ألف . « إن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن ، فهيِّء لمزادك ، وقدِّمْ لمعادك ، وكن وصيًا لنفسك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقسموا تركتك ، وصُمّ الدهر واجعل فِطْرَك الموت . وأما أنا فلو خَوّلنى الله أمثال ما حُزْت وأضعافه لم يسرّنى أن أشتغل عن الله طرفة عين ! » ، وفى رواية أخرى « ما سرّنى أنك لى عبد وأن كل مالك لى ، وأنك شغلتنى عن الله طرفة عين » . فرابعة إذن نذرت نفسها لله ، وإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب ، وحبيبها الوحيد هو الله فإذا كان لها أن تقترن بأحد - والكلام هنا للدكتور بدوى - أفبغير الله تستطيع الاقتران ؟ هنا تأتى نظريتها فى الحب فتؤيد نظريتها فى الزواج ، وهذا هو الجديد حقاً فى مذهب رابعة فى التجرّد والعزوبة (!!) . ونظرية رابعة فى الحب يدخل فيها معنى الخُلّة ، ويفسر تطور نظرية الحَبّ إلى حد إسقاطه ، إذ يمكن أن يُفسَّر على أنه كان على وجه الخلة بينها وبين الله » .

واستخلاص رأى رابعة فى الزواج ينبغى أن يكون فى إطار المذهب الصوفى والتراث الإسلامى ، والأصل فى الإسلام أن **الزواج فرض مع الحاجة ، وسُنّة على الكفاية** ، والأحاديث تترى تحض على الزواج مثل « من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا » ، و « إذا أتاكم من تَرْضَوْن دينه وامانته فانكحوه ، الاّ تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد

كبير » ، وفى الخبر من نكح لله وأنكح لله استحق ولايته . ـ وهذا أدنى حال تُنال به الولاية لأنها مقامات ، ولكل مقام عمل من الصالحات .

وقد رأى كثير من الصوفية أن التزويج له شروط لا تتوافر فيهم ، واتهم الفقهاء بشر ابن الحارث بترك السنة ، ويعنون بها الزواج ، فدافع عن نفسه بأنه مشغول بالفرض عن السنة ، وقال . ما منعنى من ذلك إلا الآية فى كتاب الله التى تقول ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن** ﴾ وعلمى أنى لن أقوم بذلك » . وقال فى مجال المقارنة بينه وبين **الإمام أحمد بن حنبل** أنه ، أى الإمام ، يفضله بثلاث « بطلب الحلال لنفسه ولغيره ، وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيقى عنه ، وقد جُعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى » .

وكان **أبو طالب المكى** يقول : الأفضل للمريد ترك التزويج إذا أمن الفتنة ، واعتاد العصمة ، ولم تنازعه نفسه إلى معصية ، ولم تترادف خواطر النساء على قلبه فيتشتت بها هَمه ، وتقطعه عن حُسن الإقبال على الخدمة ، وما لم يجمح بصره إلى محظور ، وتخالطه الشهوة وتستولى عليه . ومتى وقعت هذه المعانى فإنها تغير القلب عن الخشوع ، وتُدخِل عليه النقصان . ومتى لم يُبْتَلَ العبد بها فإن الخلوة أفضل المعانى ، وفيها يجد لذة الوجود وحلاوة المعاملة ، ويُقبِل على نفسه ويشتغل بحاله ولا يهتم بحال غيره ، فيحمل حاله على حال غيره فيقصّر ، أو يقوم بحكم آخر فيعجز ، ويعالج شيطاناً آخر مع شيطانه ، وتنضم نفس أخرى إلى نفسه » .

« وهناك من الأسباب الكثيرة ما يمنع الصوفى من الزواج ، منها أن المكاسب قد فسدت فليس يُنال أكثرها إلا بمعصية ، وهو مسئول من أين اكتسبه وفيما انفقه . ومنها أن أكثر النساء قليلات الدين والصلاح ، والأغلب عليهن الجهل والهوى ، فلا يأمن أن ينقاد لهن ، أو يمانعهن ، فيتنغص عليه عيشه . وإن كان المتأهل فقيراً لقى شدة وجهداً وعنتاً وكداً ولم يأمن دخول الآفات عليه . وقيل إن العيال عقوبة شهوة الحلال . **ويذكر إبراهيم بن أدهم** أن من تعود أفخاذ النساء لا يفلح . **ويقول الحسن البصرى** إذا أراد الله بعبد خيراً فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » .

وعلى ذلك لم تتزوج رابعة إلا من هذا المنطلق :

أولاً : لأنها لم تكن ترى فيها ما يمكن أن يشتهيه الرجل .

وثانياً : لأنها كانت زاهدة فى الدنيا ، فكيف يمكن أن يكون لها فيها الأهل والولد ؟

وثالثاً : لأنها كانت فى قلق وكرب من الآخرة ، فكيف تحتاج إلى الزوج وتتفرغ له كما تقول ؟

ورابعاً : أنها كانت تجد راحتها فى خلوتها أو كما تقول .

راحتى يـــا إخـــوتى فى خلـــوتى وحبيبـــــى دائماً فى حضرتـــــى
لم أجـــد عن هـــواه عِـــوضـــاً وهـــــواه فى البريـــــا محنتـــى

إلى أن تقول

قـــد هجـــرت الخلق جميعـــاً ارتجى منك وصـــــلاً فهـــو أقصى منيتى

فهى مشغولة بالله عن الزواج ، ومن غير المستطاع أن تخدم سيدين ، وقد نصحت محمد بن هشام أن ينصرف عن الدنيا بدلاً من الزواج ، وأن يتهيأ لأمور الآخرة ، وأن يصوم الدهر حتى يكون الموت فطره . وذلك يؤدى بنا إلى **السبب الخامس** فى عدم إقبالها على الزواج .

أنها قد صيرت الموت فطرها على الحقيقة ، فأماتت منها شهواتها !

ومن الطريف أن **محمد بن زكريا الرازى** يعلّق على مثل ذلك أن الامتناع عن الزواج والجماع ـ لضرب من التفلسف ـ يبرّد البدن ، ويعسر الحركة ، ويوقع الكآبة فى النفس بلا سبب ، فتعرض للممتنع أعراض الماليخوليا ، فتقل شهيته وهضمه . **وينقل عنه ابن الجوزى** ويؤكد أن ترك النكاح للصوفى فيه مخاطرة للبدن والدين وليس من الصحة فى شىء ، وقد يدفع بالتارك إلى الشذوذ الجنسى .

ومعنى قول رابعة تصيير الموت فطراً أنها ما عادت تشتهي الرجال . وفي **موسوعة أيزنك للطب النفسي** أن عدم اشتغال المرأة بأمور الزواج والنكاح يفسد طبعها ويستحدث امتناع الحيض والتبويض فيها ، فلا تعود بها حاجة إلى الرجل . وقد درس **أيزنك** ذلك في النساء السجينات والراهبات والنساء المشتغلات بالمهن الكبرى التي تصرفهن عن الزواج ، **والتفسير النفسي** لذلك أن الطاقة الشهوية التي يمكن أن تصرفها المرأة على زوجها وأولادها كانت رابعة تصرفها في توجهاتها الصوفية وأشواقها الربّانية ، ولذلك قالت بالمحبة ، **وذلك هو سبب ارتباط المحبة عندها بترك الزواج .**

ومحبة رابعة من نوع خاص ، وهي محبة معنوية وليست حسية ، وقد ذكروا في تفسير المحبة المعنوية الخفية : أنها صفة خاصة في المحبوب تطابق مثلها عند المحب وتحمله على المحبة ، وهذه المحبة يدق فهمها على العقل كما يدق معنى التعاشق بين حجر المغناطيس والحديد والدليل على وجودها أنه قد توجد المحبة المفرطة بين شخصين من غير أن نعقل لها سبباً ظاهراً . والأسباب التي توجب المحبة معروفة ، وكلها ترجع إما لإحسان من المحبوب إلى المحب ، وإما لكمال المحبوب في ذاته باتصافه بالجمال الظاهر أو الباطن من أجل شغف النفس بحب من اتصف بهذه الصفات التي هي أسباب المحبة . وأما هذه المحبة المعنوية فليس لها سبب من هذه الأسباب ، فرابعة لا تحب الله من أجل ثواب الجنة أو مخافة عقاب النار ، ولا تحبه لإحسانه وتفضّله عليها ، ولكنها تحبه لذلك وأكثر منه . وعندما تقول إن حبها له هو حب الهوى ، وحب هو أهل له وهو كشفه للحُجب حتى تراه ، فإن هذه المشاهدة لن نفهمها نحن لأن من عرف ذاق ، ومن لم يعرف لم يذق كما تقول هي ، ومحبتها لله إذن تدق على الفهم ، ولا يصل إليها الفكر ، وليس لها من تعليل سوى أنها من تأثير التعارف الذي جعله الله تعالى بين القلوب ولا يعلمه سواه ، ولهذا تقول رابعة :

فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ورابعة في هذه الأبيات قد كشفت سر محبتها لمن يعرف . ولن يعرف إلا من كان الحق تعالى سمعه وبصره ، فَفَنِيَ فيه تعالى ، وغاب عن الكل برؤية مُوجِد الكل . والله يحب خلقه كما قال : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ (سورة المائدة : الآية ٥٤) ، فدلّ على أن محبته تعالى سبقت محبتهم ، بل هي شرط فيها .

ومحبة المحبين لله عموماً هي ميل النفس الناقصة إلى إدراك ما في إدراكه كمال ، ليحصل لها بهذا الإدراك الكمال الذي فقدته في ذاتها ، إذ في جوهرها محبة الكمال والتطبّع به إلى أن تبلغ فيه النهاية . وإذا كانت محبة العبد لله بهذه الصفة فليست كذلك محبة الله للعبد ، لأن كل جمال وكمال وبهاء وجلال ودوام بقاء في العالم مستفاد منه ، وموجود به ، فلا يكون منه التفات إلى غيره ، لاستغنائه بكمال ذاته عن كمال غيره ، فليس له نظر إلا إلى ذاته ولا محبة إلاّ لها . والوجود كله هو فعل الله ، ولذا فهو يحبه ، والله إذ يحبه فلا يحب على الحقيقة إلا ذاته ، لوجود الأفعال كلها به وعنه . فمحبة الله لعبده هي الحقيقة وبها تكون محبة العبد ، ولو لم تكن محبة الله لم تكن في العالم محبة أصلاً ، فهي النسبة الكبرى التي تنتهي إليها كل نسبة . فإذا قلنا إن رابعة العدوية كانت العاشقة لله فلا تثريب على ذلك ، لأنها فعلا كانت كذلك ، فمحبتها لله بلغت الذروة ، والعشق هو أقصى درجات المحبة ، وتندرج فيه كل مقامات المحبة ، ومعنى العشق أن ذات المحب استغرقتها ذات المحبوب ، فلم يشعر بنفسه ، وشغله عنها شهود محبوبه . ورابعة كانت كذلك فكيف يمكن لمثلها أن تتزوج ؟

ولا ينبغي أن نقول مثل مقالة الدكتور بدوي « **أن رابعة قد اقترنت بالله** » فذلك ما يصلح للمسيحية ، لوجود الناسوت بالله ممتزجاً باللاهوت ، فأمكن من ثم أن يتصور المسيحي إمكان اتحاده هو نفسه بالله . وأما العشق الصوفي الإلهي عند رابعة فهو اتحاد عقلي يوجب غفلة المحب عن الشعور بجملته ، شُغلاً منه بشهود محبوبه ، وذلك تفسير أبيات رابعة :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا

فأمّا الذي هو حب الهوى ... فذِكْر شُغِلتُ به عن سواكا

وأمّا الذي أنت أهلٌ له ... فكشفُك للحُجب حتى أراكا

وقد قيل أن **العشق جنون إلهي** يعني أن العشق لا يُدَبِّر بعقل ، ولا تجري فيه أمور العاشق على ما يوجب صلاح بدنه ، بل خرابه وتشويهه ، لأن شهود الصفات الروحية كلما

قويت على الحب تتخَرب منه الصورة الجسمانية وتتشوش هيئته الآدمية . ولقد قالوا فى رابعة بعد أن أحالها العشق إلى حال شديد من الهزال وأسرع السُقم إلى جسمها ، أنها كانت كالشَنّ تكاد تسقط ، فلا عجب أن تحولت إلى روحانية حتى لَيَأْمَن الحيوان إليها وتستأنس بها الغزلان فتصطف حولها فى رواية العطار ، فما تكاد تبصر الحسن البصرى قادماً من بعيد حتى تفر جميعها من أمام رابعة ، وذلك ما جعل الحسن تدب الغيرة فى قلبه ، وهو أيضاً ما يجعل **الدكتور بدوى** تدب الغيرة فى قلبه ، فيقول عن كراماتها : أنها من الانواع المشهورة المألوفة فى الترجمات الخيالية للصوفية والقديسين ، وأن العملية التى أنتجتها واحدة ، وأنه لم يسقها فى كتابه إيماناً منه بأنها قد وقعت « فهيهات هيهات أن يخطر هذا ببالنا إذ نحن ننكر الكرامات والخوارق أياً كان مصدرها » !!!

★★★

ورابعة العدوية إذن قد رفضت الزواج من منطق مذهبها فى المحبة ، أو بالأحرى مذهبها فى العشق الإلهى ، ويرتبط بذلك قولها فى الخُلّة ، فيورد الزبيدى أنها القائلة .

وتخللتَ مسلك الروح منى ... وبه سُمّى الخليلا خليلا
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثى ... إذا ما سكتُّ كنتَ الغليلا

ثم يقول أنها كانت فى وَجْدِها تذكر الأنس وترتفع إلى وصف معنى الخُلة فى قولها السائر .

إنى جعلتك فى الفؤاد محدّثى ... وأبحتُ جسمى من أراد جلوسى
فالجسمُ منى للجليس مؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

والخلة التى انتهت إليها فى معراجها الروحى هى كما يقول **المكى** صاحب **القوت** مقام يزيد على مقام المحبة . ومعنى الأبيات التى تسوقها رابعة فى الخلة أنها أى رابعة قد تخللتها

شمائل المحبوب الروحانية فتكيفت بها روحها ونفسها وجملتها الإنسانية ، فصارت أعضاؤها تتحرك بإرادة الله سبحانه لا بإرادتها عن نفسها ، واستحالت عليها المخالفة له .

ومقام الخلة هذا الذى ترقّت إليه رابعة بعد مقام المحبة ليس بعده المزيد ، فهذا أعلى المقامات ، وهو مقام قال **أبو يزيد البسطامى** أنه أقام فيه ووصف أحواله . وقال **أبو طالب المكى** إن **شقيقاً وابن أدهم البلخيين** كانت لهما مطالعات فى معانى الخلة ، وسلكا باب الفيض فى هذا الطريق وليس فوق الخلة **إلا درجة النبوة** ، ومقام الخلة لا يكون إلا مقام المحبوبين . وفى الخبر أن الله عز وجل أوحى إلى أوليائه إنما اتخذ لخلتى من لا يفتر عن ذكرى ، ولا يكون له غيرى ولا يؤثر علىّ شيئاً من خلقى . وإن حُرّق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً . وإن قُطِّع بالمناشير لم يجد للمس الحديد ألماً .

والخلة كما نبّه الرسول لا تكون من الله إلا لأوليائه ، والله سبحانه وتعالى إذا رفع عبدًا جاوز به الحد . **وتكلم الجنيد** عن الخلة فقال - هى غاية الحب ، وهى مقام عزيز يستغرق العقول ويُنسِى النفوس ، وهو من أعلى علوم المعرفة بالله تعالى . وفى هذا المقام يعلم العبد أن الله عز وجل يحبه فيقول العبد « بحقى عليك وبجاهى عندك » . ويقول الله تعالى « بحبك لى » .

وأصحاب الخلة هم المستأنِسون بالله تعالى ، وهم جلساء الله ، قد رفع الحشمة بينه وبينهم ، وزالت الوحشة ، فهم يتكلمون بأشياء هى عند العامة كُفْر بالله تعالى ، لما قد علموا أن الله تعالى يحبهم ، وأن لهم عند الله تعالى جاهًا ومنزلة .

وفى ضوء هذا التفسير للخلة ، وفى إطار هذا المعنى يمكن تأويل قول **البسطامى** « سبحانى ما أعظم شأنى » ، وقوله « جزت بحراً وقف الأنبياء بساحله » ، وقول رابعة « لو وضعت خمارى ما بقى بها أحد » ، وقد وصف **ابن خلدون** هذه الكلمات وأمثالها بأنها كشفية ، بمعنى أن حال الغيبة والسُكْر استولت على القائل فتكلم بما ليس فيه كلام ، ولعل ذلك يفسر كل شطحات رابعة من أمثال :

أتحرقنى بالنار يا غاية المنى فأين رجائى منك أين مخافتى ؟!

وقولها : « يا إلهي إنْ بعثتَ بي يوم البعث إلى النار ، لأذعتُ سراً يبعد النار عني بألف سنة ! » ، و « إلهي ! إذا بعثتَ بي إلى النار يوم البعث فسأصرخ نائحة : ربي ! يا من أحبه كل هذا الحب ! أهكذا تعامل من يحبونك » ، وسؤالها « يا رب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ » ، وقولها « أنا ذاهبة إلى السماء حتى أُلقي بالنار في الجنة وأصُبّ الماء في الجحيم ، فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى ، ويظهر المقصود ، فينظر العبد إلى الله دون رجاء ولا خوف ، ويعبدونه على هذا النحو ، وذلك أنه لو لم يكن ثمة رجاء في الجنة ، وخوف من الجحيم ، أفما كانوا يعبدون الحق ويطيعونه ؟ » ، وقولها « عُرضِتْ عليّ الجنة فملتُ بقلبي إليها ، فأحسب أن مولاي غار عليّ فعاتبني ، فله العتبى ! » ، وقولها « لا أريد الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » .

ولعله بسبب هذه الشطحات عندها وعند غيرها ممن قالوا بالخلة ، انتقد المالطي الروحانية في كتابه « **التنبيه والردّ على أهل الأهواء والبدع** » - وقد أدرج ضمنهم رابعة العدوية ، وقال فيهم : إنهم زعموا أن حب الله غلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم حتى كان حبه أغلب الأشياء عليهم ، فإذا كان عندهم وكانوا عنده بهذه المنزلة ، وقعت عليهم الخلة من الله ، فجعل لهم السرقة والزنا وشرب الخمر والفواحش كلها على وجه الخلة التي بينهم وبين الله ، لا على وجه الحلال ، ولكن على وجه الخلة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه » . وقد جعل المالطي منهم رياحاً وكليباً .

وأيضاً فإن **ابن عربي** عاب على رابعة مقالتها لمّا سمعت قارئاً يقرأ « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » ، قالت « مساكين ! أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم ! » ، فقال ابن عربي : إنها ما عرفت ، وإنها لمسكينة ، فإنما شُغْل أهل الجنة إنما هو بالله » ، وقال : وهذا من مكر الله الخفي بالعارفين في تجريح الغير ببادي الرأي والتعريض في حق نفوسهم وهم منزهون عن ذلك » . ومع ذلك فإن **ابن عربي** في مواضع أخرى قد مدح رابعة وقال : إنها في رتبة **الشيخ عبد القادر الجيلاني** ، فقال : السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة على قسمين : طائفة ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منبهاً ومعلماً بالطريق الموصلة إلى جناب الحق ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلّى بينهم وبين الله ، فهؤلاء إذا

سارعوا سابقوا إلى الخيرات ولم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق ؛ والطائفة الأخرى جعلوا من نفوسهم أنهم لا سبيل إليه تعالى إلا والرسول ﷺ هو الحاجب ، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول ﷺ بين أيديهم . والحالة الأولى هي حالة عبد القاهر وأبي السعود بن شبل **ورابعة** ومن جرى مجراهم .

وأيضًا فإن **ابن تيمية** في **مجموعة الرسائل والمسائل** قد دافع عن رابعة في قولها عن البيت أنه الصنم المعبود في الأرض ، وكذّب أن تكون رابعة قد قالت بذلك ، فالمسلمون لا يعبدون البيت وإنما رب البيت ، بالطواف به والصلاة إليه . وكذلك كذّب أن تكون قد قالت « والله ما ولجه الله ولا خلا منه » ولا فرق بين ذلك البيت وغيره في هذا المعنى ، فلأي مزية يُطاف به ويُصَلّى إليه ويُحج دون غيره من البيوت ! » .وذكر أن قول من قال ذلك ـ وهو ليس رابعة ـ « ما ولج الله البيت » كلام صحيح ، وأما قوله « ما خلا منه » فإنْ أراد أن ذاته حالّة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل ، وهو مناقض لقوله ما ولج فيه ، وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له لم يتجدد له ولوج ، ولم يزل غير حال فيه ، فهذا مع أنه كُفر وباطل ، فإنه يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت ، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك .

★★★

ويذهب **ابن تيمية** إلى ما تذهب إليه رابعة في **المحبة** فيقول : إن جميع المشايخ وائمة التصوف مجمعون على أن الله محبوب لذاته محبة حقيقية ، بل هي أكمل محبة ، غير أن صاحب المحبة لا ينبغي أن ينساق في محبته لله إلى حد يفقد فيه الخشية من الله ، فإنه ينبغي أن يكون على الدوام على مخافة منه ، فيرجوه القبول فيما يُلزم به نفسه من الطاعات ومقام المحبة إذن مقيد بالخوف والرجاء دائماً ، وقد كان ذلك دأب رابعة ، فلما سألها أحدهم أن تدعو له قالت « من أنا يرحمك الله ! اطِعْ ربك وادعه فإنه يجيب المضطر » . وقالت لسفيان الثوري . إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضُك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، فاعملْ ! » . وخشيتها من الله والآخرة هي التي قيل فيها أنها عاشت أربعين سنة لا ترفع رأسها حياءً من الله ، وأنها ما كانت تسمع أذاناً قط إلاّ وتذكر يوم القيامة ، ولا كانت تذوق الخبز إلاّ وتذكر يوم الحشر ، وقد جعلت إرادتها من إرادة الله

To: www.al-mostafa.com

وتقول . لست إلا عبدة وليس لى أن أتصرف وفق أهواء قلبى ، لأنى إذا أردت ولم يرد هو لكان هذا منى جحودًا ! » .وابن تيمية يقول : إنه ليس أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من الافتقار ، وأن أصل كل خير فى الدنيا والآخرة هو الخوف من الله ، ومن أجل ذلك تقول رابعة إنها حارسة رباط ، ولكن بمعنى آخر ، ذلك أنها لا تدع شيئاً يخرج مما فى داخلها ، ولا تدع شيئاً يدخل مما هو خارج ، ولم تعرف غير الله ، وحبها لله تعالى قد ملأ قلبها فلم يعد فيه مكان لمحبة غيره أو كراهيته . غير أن ابن تيمية كان لا يرى إطلاقاً تسمية العشق على الله تعالى ، وعنده أن أدنى ما فيه بدعة وضلال ، وأنه فيما نُصّ فيه من ذكر المحبة الكفاية ، والخلة والمحبة صفتان لله تعالى موصوفًا بهما ، ولا تدخل أوصافه تحت التكييف والتشبيه . ويورد ابن تيمية كلام القشيرى من مشايخ الصوفية أن العشق مجاوزة للحد فى المحبة ، والحق سبحانه لا يوصف بالعشق لأنه لا يوصف بأنه يجاوز الحد ، فلا يقال إن عبداً جاوز الحد فى محبة الله ، فلا يوصف الحق بأنه يُعْشَق .

ولا العبد فى صفته بأنه يَعْشِقَ ، والمشكلة فى رابعة أنها كانت ترتقى بكل المفاهيم والمعاملات الصوفية من المحسوسات إلى المعقولات نتيجة تهذيبها لنفسها وارتقائها ورياضاتها . والعاشق بمفهوم رابعة إذ وصل إلى درجة العشق فى حبه ارتقى منها إلى المكانة الأسمى ، وهى فى حالة العشق الإلهى أن تتوق نفسه إلى الله ، وتحن إليه كما يحن العاشق إلى معشوقه، وهذا هو الحب الحق والعشق الخالد الذى تسمو إليه النفس الناطقة عند بلوغها أقصى ما تصبو إليه من الكمال . وفى الخبر أن الحسن البصرى لمّا سأل رابعة : هل تتزوجين ؟ فأجابته : الزواجُ ضرورى لمن له الخيار ، أما أنا فلا خيار لى فى نفسى . إنى لربى وفى ظل أوامره ، ولا قيمة لشخصى ! » ـ فقال الحسن : فكيف بلغت هذه الدرجة ؟ قالت . بفنائى بالكلية ! ولعله لذلك وصفها فريد الدين العطار الشاعر الصوفى فقال إنها . ذات الخدر الخاص ، المستورة بستر الإخلاص ، المتقدة بنار العشق والاشتياق ، المتحرقة إلى القُرب والاحتراق ، الفانية فى الوصال ، كأنها مريم ثانية ، عذراء بتول ، صافية صفية ، إنها رابعة العدوية !

رحم الله رابعة والعطار !!

الفصل العاشر

معراج رابعة الروحى من أحوالها ومقاماتها

★★★

السعادة القصوى والدائمة هى مطلب ذوى العقول والنفوس الكاملة ، وليس إدراكها بالحواس الظاهرة ، لأن كل لذات المحسوسات بائنة ومنقطعة . والسعادة القصوى والدائمة لا يتحصلها إلا أقل القليل فى الملأ الأعلى ، بمشاهدة الأنوار القدسية والتلذذ بمطالعة الجمال الأَسْنَى والذين يتحصلونها تحوطهم منذ البداية العناية الربانية ، وتيسر لهم الرياضة التى بها تُدرك المعارف الإلهية ، فتنطبع بالفضائل من محبة الحق ومعرفته ، والشوق إلى جمال حضرته ، فيصير لها ذلك خُلقاً وعادة . والله تعالى أعطى كل جسم نفساً تليق باستعداده الذى خلقه فيه من الكمال والنقص والقوة والضعف . ولقد قيل إن النفوس ثلاثة : مطمئنة وأمّارة ولوّامة فالمطمئنة خُلِقت متيقظة من ذاتها ، مقبلة على بارئها بالفطرة ، ومُعرِضة عمن سواه ، وهذه هى نفس خواص الأصفياء ، أشرق عليها نور الحق فجذبها إليه فعكفت عليه ، والأمّارة يغلب عليها حب المحسوسات والشهوات الجسدية ، فأنكرت اللذات الروحية والمدارك العقلية ، فهى محجوبة عن الله ومطرودة من جنابه ، واللوّامة أقبلت على المحسوسات فلم تُسْتَغْرق فيها ، وكانت لها من اليقظة والفطنة ما تدرك به لذة المعانى العقلية ، وتطلب الفضائل ، فكان لها نظرٌ إلى الأعلى بقدر يقظتها ، ونظرٌ إلى الأسفل بقدر ميلها إلى الشهوات الطبيعية . وهى وإن كانت محجوبة عن كثير من الحقائق الربانية فإنها يمكن أن تتزكى بالرياضة وتلحق بالسعداء .

ورابعة كانت من أول مشهد التقينا بها فيه وهى طفلة ، يظهر أن لها النَفْس الفاضلة التى تشير إلى أنها إنسانة علوية ، قد خلقت فيها الأهلية للاتصال بالملأ الأعلى ، وتقول عن نفسها « أتيت من العالم الآخر وذاهبة إليه ، وأعمل فى الدنيا عمل الآخرة » ، وتقول : « والطريق إلى الله لا بد فيه من القلب المتيقظ ، فإذا استيقظتَ رأيتَ الطريق بعيون القلب وكان فى وسعك بلوغ المقام » .

وأحوال رابعة ومقاماتها فى الخوف ، والحزن ، والرجاء ، والقرب ، والهيبة ، والأنس ، والشوق ، والمحبة ، والعشق ، وفى التوبة والفقر والصبر ، وإسقاط التدبير والتوكل والرضا ، يظهر فيها جميعا أنها ربّانية تحفظ الله فى سرائرها ، وتراقب الحق بالحق ، وتسأل الله الرعاية . فإذا سألوها أن تدعو لهم قالت : « أطعْ ربك واعبده ، وادعوه فإنه يجيب المضطر » وتقول « أشتعلْ كالشمعة وأضىْء للناس ، وابدأ بأن تكون متجرداً ثم أعمل ، فإن فعلت هذين صرت نحيلاً كالشَعْرة إن كنت تريد ألا يذهب جهدك سدى ». واعتقادها أنها كما تكون فى الدنيا ستكون فى الآخرة ، وتقول « ومن يهمل فى الدنيا أن يسبّح بحمد الله لحظة وينوح ويبكى على حاله ، فإنه فى الآخرة سيبكى لدرجة أن يثير الشفقة على نفسه » .

ورابعة لذلك منذ طفولتها تخشى الله ، وتخاف الموت والنار ، ويكبر معها خوفها وخشيتها ويستحيلان إلى هيبة من الله ، ثم إلى حياء . وتقترب أكثر فتترك الدنيا فى اقترابها ، فطريق الدنيا وطريق الله متعاكسان . ورابعة فى مجاهداتها محزونة ومكروبة ومهمومة ، وافتتانها بالله ورجاؤها فيه ومحبتها له تيسر لها الطريق ، ومقامها فى المحبة راسخ حتى لَتُذْكَر بالمحبة . وقيل فيها أنها من الواصلين والعارفين ، والوصول معرفة ولا محبة إلا عن معرفة ، ومن كان بالله أعرف كان له أخوف ، والمعرفة توجب الحياء والتعظيم لله . والمعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلّى له الله ، ورابعة تقول عن نفسها : « لم أعرف غير الله ولم أنسه مرة » وتقول : « لا حديث خير من الحديث عن المعرفة » . وفى المعرفة افتقار إلى الله واستغناء به، ومن عرفه سبحانه انقطع فلم تعد له علاقة ، وذهبت عنه رغبة الأشياء . ومن عرفه سبحانه كان أكثر الناس تحيراً فيه ، ويقول ذو النون « أعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه ودهشة » ، وتقول رابعة تناجى ربها : « ماذا تريد من هذه الحائرة المسكينة ؟ ! وتقول « ليس للمحب وحبيبه بَيْن ، وإنما هو تعلّقٌ عن شوق ، ووصفٌ عن ذوق ، فمن ذاق عرف ، ومن وصف اتصف . وكيف تصف شيئًا أنت فى حضرته غائب ، وبوجوده دائب ، وبشهوده ذاهب ، وبصحوك منه سكران ، وبفراغك له ملآن ، وبسرورك له ولهان ، فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار ، والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار ، فما ثم إلاّ دهشة دائمة ، وحيرة لازمة ، وقلوب هائمة ، وأسرار كاتمة ، وأجساد من السقم غير سالمة ، والمحبة

بدولتها الصارمة في القلوب حاكمة » . وذلك هو حال رابعة ، إذن . فما أقل ما قالت ، وقليلها يغنى عن الكثير ، وهى فى المحبة والمعرفة الموجزة والرائعة ، والشبيه يهفو إلى الشبيه ، ورابعة تقول « الموافقة شرط فى الصحبة » ، وتحكى عن سلوكها فى الطريق فتقول : رأيته يقول لصاحبه فى الغار « لا تحزن إن الله معنا ، ما ظنك باثنين إن الله ثالثهما ؟ ـ فتقدمت إلى خلوة الغار بأقدام المبايعة » ، ومن يومها صارت لله ، وبالله ، وفى الله ، ومن الله ، أو كما تقول :

فإذا نظـــرتُ فـــلا ارى إلاّ لـــه وإذا حضرتُ فـــلا أُرَى إلا معـــه

فإذا ذكّروها بالدنيا وأن لا تنسى نصيبها فيها قالت . « لاتُذكّرونى بشىء ليس بشىء » .

وتقول فى علمها إنه « العلم الروحى » ، وتقول « ثمرته أن تصرف وجهها عن المخلوق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده » ، وتقول « مهمتى الآن أن أتأمل القدرة ، وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهى عن كل مخلوق » ، وتصف العارف المحب لله بأنه « الأزوم الخفيف الزاد مثل النملة ، لا يأكل فى اليوم إلا تمرة » .وطريقتها كما تصفها هى « الطريق السوى » منذ أن اكتشفته ، وما فعلته فيه أو قالته « هو ما كان عليها أن تفعله أو تقوله » ، وتقول « قيل لك طهّر روحك ، لكنك دائب على تعمير جسدك ، ألا فلتكن لباطنك عليك حُرْمة ! » وتضرب المثل برجل « أشعل الروح فى نفسه فقال لذلك : إذا أكلْتَ لقمة فاجلس واضرب جسدك ! » .

ورابعة فى الزهد مضرب المثل ،ومقامها فيه هو المقام الأرفع ، « فكانت لا تأكل بالأسبوع ، وتنسى الجوع ، وكانت خلاله لا تجلس ولا يفتر ذكرها لله ، تصوم وتصلى ، فإذا خفعت من الجوع واتهارت ساقها وسرى « التكسّر فى أعضائها فلا تتناول سوى الماء » . ويُحكى أن قطًا دخل فقلب كوز الماء وبقى كبدها ظمآن مشتعلاً من تاوه القلب كما يقول العطار ، ويجيئها الهاتف يقول : « لاتحزنى . إن شئتِ أن تكونى مولعة بالله فعليكِ أن تتخذى من ترك الدنيا صناعتك الدائمة » . ولقد فعلت ، فأحبت وأخلصت لماّ عرفت ، ومن لم يعرف لم يحب . والمحبة ثمرة المعرفة ، والمعرفة علّة المحبة وسببها ، وهى متقدمة على المحبة بالسبب ، والمحبة متقدمة عليها بالشرف ، وحينئذ يكون المحب هو نفس العارف ، والعارف هو عين المحب ، فتأكيد المعرفة يثمر المحبة ، وتأكيد المحبة يدفع إلى المزيد من المعرفة ، فتتجلى للمحب أوصاف المحبوب . وما دامت المحبة بدوم التجلى ، وما دام التجلى

تدوم المحبة ، وتستمر هذه الواردات على قلب المحب فيعرف فيحب ، ويحب فيعرف ، وتتحد فيه من هذا الشهود والتجلى محبة العارف ومعرفة المحب ، ويصار كل واحد مُوَلِّدًا للآخر . وهذا هو حال رابعة ، حال المحب العارف ، والعارف المحب ، وكانت فيه « رائعة » كما وصفها متصوفة زمانها .

والمعرفة والمحبة أصل كل المقامات والأحوال ، وجميعها مندرجة تحتها ، فهى إما وسيلة إليها أو ثمرة من ثمراتها ، كالخوف والرجاء ، والإرادة والشوق ، والزهد والصبر ، والرضا والتوكل . وكانت رابعة « يغلب عليها مرة الحب ، ومرة يغلب عليها الأُنْس ، ومرة يغلب عليها الخوف » ، وتتقلب بين الأحوال وترتقى فى المقامات . وفى المحبة تكمن سيكولوجيتها ، وأنوثتها مفتاح محبتها ، والمحب لا يحب إلا بعد العلم بكمال ذات المحبوب ، ثم يتأكد هذا العلم عنده ويتوالى فيكون معرفة ، فتنبعث عن ذلك الإرادة ، ثم الشوق إلى جمال وكمال الذات الإلهية ، ثم يلزم عن المحب الصبر على شدة الطلب ، وينبعث له أثناء ذلك خوف الحجاب ، ورجاء القرب والوصال ، ثم يتحصل عن المحبة الرضا بجميع مراد المحبوب ، والزهد فيما سواه ، واعتقاد وحدانيته ، وانفراده بصفات الكمال ، وإسناد كل تدبير إليه ، بالتفويض له والتوكل عليه .

وأول مقامات المحبة عند رابعة هو **الألفة** التى توجبها المعرفة ، المعبر عنها بالإيمان المنتج للمحبة ، وكانت رابعة فى إيمانها فى القمة ، فلقد عرفت الله وآمنت به منذ كانت فى الخامسة من عمرها وصحبته ثمانين سنة ، والألفة تتخلل منها شمائل المحبوب ، فتتكيف بها نفس المحب ، فتتحرك أعضاؤه عن إرادة المحبوب . تقول رابعة .

وتخللتَ مسلك الـــــروح منى ... ولـــــذا سُمّى الخليل خليـــــلا
فإذا مـــــا نطقتُ كنتَ حـــــديثى ... وإذا مـــــا سكتُ كنتَ الغليـــــلا

وتقول :

ولقـــــد جعلتك فى الفـــــؤاد محدّثى ... وابحتُ جسمى مَن أراد جلـــــوسى
فـــالجسم منى للجليس مـــؤانسٌ ... وحبيبُ قلبى فى الفـــــؤاد أنيسى

ولم يكن التخلل إلا للصفاء والخلوص عن كل عارض زائد ، فيكون انطباع المحب بشمائل المحبوب ، والأُنْس معناه السرور بشهوده ، والرضا بقربه ، والأُنْس يقتضى الطمانينة ، وفى الرضا يكون إسقاط الجزع ، ومن يصبر فى الله ولله لا يجزع ، ولا يقنط ، ولا يشكو . وقيل معنى الرضا غيبة المحب عن الإحساس بالألم ، والصبر فى تحمل المشقة . ولقد قيل فى رابعة إنها كانت تصلى فسجدت على البوارى ، فدخلت قطعة قصب فى عينها فلم تشعر بها إلى أن انصرفت من الصلاة ، وقيل أيضاً إن رأسها ضرب ركن الجدار فأدماه فلم تلتفت لذلك ، فقيل لها أما تحسين الألم ، فقالت : « شغلى بموافقة مراده فيما جرى شَغَلَنى عن الإحساس بما ترونه » . وقالوا إن مالك بن دينار والحسن البصرى وشقيقاً البلخى اجتمعوا عندها فتحدثوا فى الإخلاص ، فقال **الحسن البصرى** : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه . فقالت رابعة : هذا غرور . وقال **البلخى** : ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه . فقالت رابعة : هناك ما هو خير من هذا . فقال **ابن دينار** : ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . فصاحت رابعة : هناك ما هو أفضل من هذا ـ ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه ! مثل نسوة مصر اللائى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف » . ولقد سئل مرة **السرى السقطى** : هل يجد المحب طعم الألم ؟ فقال لا ، وقيل : وإن ضُرِب بالسيف ؟ قال : وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة على ضربة ! ـ وكذلك حُكى أن **بشر بن الحارث** قال : رأيت شخصاً ببغداد قد ضُرب ألف سوط ولم يتكلم ، فلما حمل إلى السجن تبعتُه فسألته عن سكوته فقال : معشوقى الذى كنت أُضْرب من أجله كان أمامى ينظر إلىّ . قلت له : فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ فزعق الرجل زعقة وخرّ ميتاً ! ـ وسُمعت **حيونة** رفيقة رابعة على الطريق تقول : من أحبَّ الله أنِس ، ومنْ أنس طَرِبَ ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق وَلِه ، ومن وله خَرُم ، ومن خرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قَرُب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان ! ـ وتقول رابعة .

من ذاق حُبَّك لا يُبقى متبسماً من طول حزن فى الحشا إشعال

والرضا من أجَل مقامات رابعة ، ومن لا يصل فى معراجه إلى الرضا فما ذاق من لذة المحبة ، ومن يبلغ إليه ويرتقى عنه إلى استعذاب الألم فهو المحقق . وكانت رابعة المحققة ، فكم اشتاقت وتعذبت . وتقول : كم طالت بى الليالى والأيام بالشوق إلى لقاء الله ! » .

وتخشى أن يداخلها الشعور بالفرح فتقول : لا يكون حزنى أن أكون محزونة ، بل حزنى أنى ما كنت محزونة » . وترضى أن تكون محزونة طالما أن حزنها له ، وتكذّب حزن سفيان الثورى لأنه يطلب الدنيا ومسرور بها ، وتستغفر ربها أن لا تكون مخلصة فى استغفارها ، وتتوب عن توبتها مخافة عدم الإخلاص . وخوفها من الله يقبضها ، ورجاؤها فيه يبسطها ، وتخاف أن يرد عليها عملها ، وتبكى إذا ذُكّرت بالنار ، وتنتفض وتصيبها رعدة إذا ذكّرت بالموت ، وتقول : يارب ! أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟ ! وتقول أيضاً : إلهى ! أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ ! ـ ومن أجل ذلك تلتزم المراقبة ، وتديم الإطراق ، وتستجمع الهم ، وتفكر بشدة فى الله ، وتعرض عمن سواه ، ولا تلتفت إلى الخلق ، ولا تصغى لأحاديثهم ، ولا تحفل بهم ، ولا تعتذر إليهم . وقد رأينا كيف كذّبت الثورى ، وأنّبت ابن زيد ، وعنّفت الهاشمى . وتستغنى باللّه عن الناس وتناجيه ، وأعذب ما فى الخلوةمناجاة الله . وأعذب أقوال رابعة فى المناجاة ، فهو يتمثل لها وتسمع عنه ، وتصغى بقلبها لما يقول ، ولقد سمعته فى أسْرها يقول : « لا تحزنى ! ففى يوم الحساب يتطلع المقرّبون فى السماء إليك ويحسدونك على ما ستكونين فيه » ، وسمعته عند مناجاتها له تقول أتحرق قلباً يحبك ! فهتف بها الهاتف . ما كنا نفعل هكذا فلا تظنى بنا ظن السوء » . وكانت فى طريقها إلى الكعبة فقالت تنادى ربها وقد أتعبها السير فى الصحراء : إلهى ! إن قلبى مضطرب وسط هذه الدهشة ، وأنا لِبنة (يعنى ضعيفة) ، والكعبة حجر ، وما أريده هو أن أشاهد وجهك ! » ، يعنى أنها لا تريد الكعبة للكعبة وإنما للمشاهدة الإلهية ، فكأنها لتتمنى أن تتم المشاهدة فى مكانها بدلاً من الكعبة ، وقد ناداها الصوت من عند الله يقول : يا رابعة ! أتعملين وحدك ما يقتضى دم الدنيا كلها ؟ إن موسى لَما أراد أن يشاهد وجهنا لم نُلق إلا ذرة من نورنا على الجبل فخر صعقاً » . ثم سمعت الصوت مرة أخرى حين بلغت الكعبة : ماذا تريدين يا رابعة ؟ إذا كنت تريدينى فسأتجلى لك بكل جلالى فتذوبين تواً كما يذوب الماء » . وأجابت : إلهى ! ليس لى من الطاقة ما يُبلغنى هذه المرتبة ، ولست أطلب إلا ذرة من الفقر الروحى » . فقال الصوت . أى رابعة ! إن الفقر عاطفة خوف من غضبنا جعلناها فى طريق الأولياء ، ولكن إذا لم يبق عليهم ليبلغوا إلينا إلا قيد شعرة فقد يحدث أن يَفسَد أمرهم فى الحال ويُنَحوا عن الغاية ، أما أنت فلا تزالين فى داخل السبعين حجاباً (أو مقاما) ، فطالما لم تخرجى من تحتها وتضعى قدمك فى طريقنا فإنك لن تقدرى على الحديث عن الفقراء » . وقال الصوت : يا رابعة ! انظرى إلى الأعلى » . فلما نظرت إلى الأعلى رأت بحراً

من الدم معلقاً فى الهواء . وصاح الصوت : يا رابعة ! إن هـذا البحر من دموع الدم الساقطة من عيون أولئك الذين أحبونا وسعوا إلينا ، ومنذ المقام الأول قضى عليهم إلى حد أنه لم يبق من أشخاصهم أثر فى هذا العالم أو فى الآخرة » . فقالت رابعـة : إلهى ! دعنى أرى مثلا على درجة السعـادة التى يصل إليها هـؤلاء العشاق .... » . فما أتمت العبارة إلا وأتاها الحيض ولم تعد طاهرة ، فناداها الصوت : إن المرتبـة الأولى التى يبلغها العشاق يمثلها تماماً إنسان (يعنى رابعة) تقلّب على أضلاعه سبع سنوات كيما يزور جداراً من اللبن (يعنى الكعبة) ، فلما اقترب من هذا الجدار أغلق الطريق على نفسه نتيجـة عائق نشأ عن شخصه » . (يعنى أنها حاضت ولم تعد طاهرة وليس لها أن تكمل الحج حتى تطهر) . فلما يئست رابعة قالت إلهى ! لا تدعنى كى أبقى فى بيتى ، ولا تريد أن تقبلنى فى بيتك ! فإما أن تدعنى أقيم هادئة فى بيتى بالبصرة ، أو اسمح لى أن أدخل الكعبة وهى منزلك ! ولقد فتشت عنك قبل أن أحنى رأسى أمام الكعبـة ، دعنى إذن أذهب فلست جديرة بدخـول بيتك! » . ثم عادت إلى البصرة وأقامت فى خلوتها وانقطعت للعبادة .

وهذه المناجيات لا يؤمن بها إلا من ذاق لـذتها وعلم اطّلاع الله على سرّ قلبـه وشهوده لباطن أمـره ، والمحب لله يتمثل له سبحـانه فى كل شىء يشـاهده ويسمعه ويـوحى إليه ، وكأنه الرقيب يرعى خواطره وناظره ولسانه فإذا حدّث فعنه ، وإذا استمع فمنه ، وإن لاحظ فإياه ، وليس من نصيب لغير الله ظاهراً وباطناً .

★★★

وكانت رابعـة تحترز من هذه المناجيات وتقـول لنفسها : يجب على المرءألاّ يغتر بحيل الشيطان ! » . وتكاد تكون هذه النجوى النفسية هى خاصية رابعة ، حتى أنها عندما تحكى حكاية اللص معها تسمع المنادى يهتف بـاللص : « يالص ! لا جدوى من محاولاتك ، فمنذ عهد طويل ورابعة قد وكلت إلينا السهـر عليها ، ولا نسمح بدخول حتى إبليس فى خلوتها ! وأنت أيها اللص تريد أن تسرق خمارها ؟ ألا فلتعلم أيها الشقى أنه حينما يكون أحد أحبائنا غارقاً فى النوم فهناك صديق يسهر على أمره ! » .

والمناجاة ربما تكون من الله تعالى على الحقيقة فهى من كرامات الأولياء ، وربما تكون رؤى صادقـة ، وهى جزء من النبوة كما يقول الحديث ، وربما تكون مـن أحاديث النفس حينما تستشرف المعالى ، وترتقى فى الإيمان ، وتستبطن ذاتها فتشف دخائلهـا وتكون لها من ذاتها العليـا رفيقاً يهديها وتستضيء بنـوره ، فتسمعـه من داخلها ومما حولها وقـد

تخارج منها ، وهى كرامة أخرى كالكرامات . وقد حكت رابعة عن نفسها أنها صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً ولا تنام الليل ، منقطعة إلى الصلاة ، وفى الليلة الثامنة قالت لها نفسها الأمّارة بالسوء وهى تنوح : يا رابعة ! إلى متى تعذبيننى هكذا دون هوادة ؟ وخلال هذا الحديث النفسى سمعت طرقاً على الباب ، وفتحت فرأت من يعطيها طعاماً ، أخذته ونَحته لتشعل المصباح ، فجاء قط أكله ، ورأت ما حدث للطعام فسعت إلى الماء فأنطفأ المصباح ، وانكسرت جرّة الماء ، فزفرت وصرخت : إلهى ! ماذا أردت بهذه المسكينة ! » . فسمعت صوتاً يقول : يا رابعة ! لو شئت أعطيناك الدنيا بأسرها ، ولكن يجب من أجل هذا أن ننزع الحب الذى فى قلبك لنا ، لأن حبنا وحب الدنيا لا يجتمعان معاً » . فقالت رابعة معلّقة . لَما سمعت أنى أُخاطَب على هذا النحو نزعتُ من قلبى كل تعلق بأمور الدنيا ، وصرفت نظرى عن كل الدنيويات » . أى أنها كانت تصدق رُؤاها وتقول : وهأنذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصلّ فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكون آخر صلواتى ! ولم أمَل من تكرار هذا القول . إلهى أغرقتنى فى حبك حتى لا يشغلنى شىء عنك ! » .

وتصديق رابعة لرؤاها نابع من إخلاصها ، ولم يكن ذلك من هذيان الجوع كما يقول **ابن الجوزى** ، وهو يذكر لرابعة أنها كانت تحذر الأشياء التى ظاهرها الكرامة وتخاف أن تكون من تلبيس أبليس ، ويحكى عنها أنها لماّ سُئلت : لما لا تأذنين للناس يدخلون عليك ؟ ـ قالت : وما أرجو من الناس ؟ إن أتونى حكوا عنى ما لم أفعل ! » . وقالت أيضاً : يبلغنى أنهم يقولون إنى أجد الدراهم تحت مُصلاّى ، ويُطبَخ لى القدر بدون نار ، ولو رأيتُ مثل هذا لفزعت منه » . وقيل لها : إن الناس يكثرون فيك القول ، ويقولون إن رابعة تصيب فى منزلها الطعام والشراب ،فهل تجدين شيئاً فيه ؟ قالت : لو وجدت فى منزلى شيئاً مما مسسته ولا وضعت يدى عليه » . وحكت رابعة عن نفسها أنها أصبحت صائمة فى يوم بارد ، قالت : فنازعتنى نفسى إلى شىء من الطعام الساخن افطر عليه ، وكان عندى شحم ،فقلت : لو كان عندى بصل أو كراث عالجته ! فإذا عصفور قد جاء فسقط على المثقب فى منقاره بصلة ، فلمارأيته اضربت عما أردتُ ، وخفت أن يكون من الشيطان » . وذلك إخلاص رابعة . لم يجعلها تصدق ما ترى فى مواقف ، وصدّقت ما تسمع فى مواقف أخرى ، وعدم التصديق فى الأولى أنها يمكن أن تكون خداع النفس أو ألاعيب الشيطان ، لأنها منافية للعقل أو للشرع ، وتصديقها فى الثانية أنها عكس ذلك ، وتؤكد خصالها الطيبة ونواياها الحسنة وطموحاتها الدينية وأشواقها الإلهية .

★★★

الفصل الحادى عشر

النقد الموجه لفكر رابعة ومسلكها

★★★

توجه النقد لرابعة باعتبارها صوفية، ثم لأغلاط نُسبت إليها ، إما لأنها ارتكبتها فعلاً وإما لأن مؤرخيها قد وصفوها بصفات ورسموا لها صورة استوجبت من العلماء مساءلتها أو مساءلتهم . وكما يقول **ابن الجوزى** « وما علينا من القائل والفاعل ، وإنما نؤدى بذلك أمانة العلم ، وما يزال العلماء يبيّن كل واحد منهم غَلَط صاحبه ، قصداً لبيان الحق لا لإظهار عيب الغلط ، ولا اعتبار بقول جاهل قد يقول . كيف يُرَدُّ على فلان الزاهد المتُبرّك به ، غير أن الإنقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة لا إلى الأشخاص ، وقد يكون الولى من أهل الجنة ولكن له غلطات فلا تمنع منزلته بيان الله .

★★★

وقد غالى مؤرخو رابعة فيما رووه عنها من حكايات مع كبار صوفية عصرها ، فأظهروهم بأقل من حقيقة ما لهم من منزلة عند المسلمين بعامة والصوفية بخاصة . ومن هؤلاء من لم تُعرف له هنة ، وليس فى حياته شائبة ، ويُذكر دائماً بالخير ، ولم تكن له شطحات ،كالحسن البصرى ، وإبراهيم بن أدهم ، وعبد الواحد بن زيد ، ومالك بن دينار ، ورياح القيسى ، ومما يروى فى ذلك قول رابعة لعبد الواحد بن زيد : « **يا شهواني ! أطلب شهوانية مثلك ! »** ، وقولها لسفيان الثورى « **لا تكذب ! أنت متلطخ بالدنيا ، ولو كنت حزيناً ما هَنَاك عيش ! إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ! »** . وقولها هذا الاخير أخذته من الحسن البصرى وهو ليس لها أصلاً ، فقد قيل عن صالح المرى أن الحسن قال : **يا ابن آدم ! إنما أنت أياماً ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك »** . ولقد شابهت الحسن فى خطابها إلى محمد بن سليمان الهاشمى أمير البصرة ، فقد كتب الحسن البصرى إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز : « **أن رأس ما هو مُصْلِحُك ومُصْلح به على يدك : الزهد فى الدنيا ...** » وكتبت رابعة إلى

الهاشمى « أن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الهم والحزن » . وفى القصة التى يروونها عنها مع اللص ، قالوا انه لما لذّت له الصلاة ما برح يصلى إلى آخر الليل ، فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة فوجدته ساجداً يقول فى سجوده معاتباً نفسه :

إذا مـــــا قـــــال لى ربـى ... أمـــــا استحييت تعصينى
وتخفـى الـــــذنب منْ خَلْقى ... وبـــالعصيـــان تـــأتينـــى
فما قـــــولى لـــــه لمّا ... يعـــــاتبنـــى ويُقصينـى ؟ !

وهذه الأبيات نفسها يذكرها ابن الجوزى منسوبة إلى أحمد بن حنبل ، فقد روى فى معرض الغناء عند الصوفية أن لهم قصائد منها هذه القصيدة ، وكان إنشادها يتسبب فى بكائهم .

★★★

ويبدو أن ما كان يؤخذ على رابعة هو أنها كانت تقول الشعر فى المحبة ، ولها سابق خبرة فى الإنشاد ، فحتى لو كان غناؤها به للتأثير بالتحبيب فى الدين وليس بالترهيب ، فإن القول بذلك كمن يقول إنى أنظر إلى هذه المرأة المستحسنة لأتفكر فى صنعة الله . ثم إن هذا الشعر الذى يحكى عن العشق ويقع الهيمان به يقل فيه وجود شىء يشاربه إلى الخالق ، وقد جلّ الخالق تبارك وتعالى أن يقال فى حقه أنه يَعْشق أو يُعْشق ، وإنما نصيبنا من معرفته الهيبة والتعظيم فقط !

★★★

ويبدو أن رابعة لما أعلنت توبتها ، كما يقول النقاد، إنما فعلت عزوفًا عن الغناء أو الضرب على الدف أو الطبل أو العزف على الناى كما روى ، إذ اعتبرت ذلك من البدع التى لا تجوز فهجرتها ، ولو كانت من المغيّرة وهم الذين يغيرون بذكر الله بالدعاء والتضرع ، فإن التغيير أيضا مكروه . ويروى الزجّاج فى تفسير تسميتهم بالمغيّرة ، أنه لتزهيدهم الناس فى الفانى فى الدنيا وترغيبهم فى الآخرة لكن الرسول كان يقول : عليكم بالسواد الأعظم ، فإنه من شذّ فى النار ، وقال : من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية ، ولعله لهذا تابت رابعة ! .

وقيل إن **الحسن البصرى** كان يكره الدفوف ، ويقول إنها ليست من سُنّة المرسلين ، وكان **أحمد بن حنبل** يكره الطبل ، ويذكر **أبو نعيم** أن المرخص به هو الترنّم ، وكان الصوفية الكبار يترنمون ، وقد روى عن **السلمي** أنه قال إن **سعد بن عبد الله الدمشقي** كانت له جارية قوّالة للفقراء ، أى للصوفية ، وكانت تقول لهم القصائد . وذكر **أبو طالب المكى** أن **مروان القاضي** كانت له جوار يُسمعن التلحين قد أعدهن للصوفية . وكانت **لعطاء** جاريتان تلحنان ، وكان إخوانه يسمعون التلحين منهما ... فلعلّ رابعة كما ذكروا عنها من المطربات والعازفات فعلاً مع كونها زاهدة ؟ أقول لعلها كانت كذلك . ويذكر **ابن الجوزى** أنه لا بأس من سماع المنشدين على أن يؤخذ ما ينشدونه على مقصوده فيُنتفع به ، ولا ينكر أن يسمع الإنسان بيتاً من الشعر أو حكمة فيأخذها إشارة فيزعجه معناها لا أن يطرب من الصوت المطرب ... ومع ذلك فإن رابعة لم يُعرف منها شعر إلا فى **المحبة** ، وتُدرج ضمن **عشاق الصوفية** ، ويقول عنهم **ابن الجوزى** إن ما يدّعيه هؤلاء من محبة الله هو وهم توهموه وتركّبت منه صورة أُنس ، فإذا غابت من العقل أقلقهم الشوق إليها ، فنالهم الوجد وحرّك الهيمان الهواجس الرديئة والعوارض التى يجب بحكم الشرع محوها من القلوب كما يجب كسر الأصنام ، ولقد رأوا من ذلك قولها :

كاسى وخمرى والنديم ثلاثة ... وأنا المشوقة فى المحبة : رابعة

كأس المسرة والنعيم يديرها ... ساقى المدام على المدى متتابعة

فإذا نظرت فلا أرَى إلا له ... وإذا حضرت فلا أرَى إلا معه

يا عاذلى إنى أحب جماله ... تا الله ما أذْنى لعذلك سامعه

كم بِتُّ من خُرقى وفرط تعلقى ... أجرى عيوناً من عيونى الدامعة

لا عبرتى تُرقأ ولا وصلى له ... يبقى ولا عينى القريحة هاجعه

★★★

ومثل ذلك الشعر ما كنا نتأوله لولا أنهم ربطوا بينه وبين نثرها التى تحكى فيه صراحة

عن حبها لله وعشقها له ، كقولها عندما سألوها : أتحبين الله ؟ أجابت . نعم أحبه حقًا ! وما عرفت سواه » . ومع ذلك ففي شعرها كثير من التثريب مثل قولها :

ولقـــد جعلتك في الفـــؤاد محدّثي وأبحت جسمي من أراد جلـــوسي
فـــالجسم مني للجليس مـــؤانس وحبيب قلبي في الفـــؤاد أنيسي

فقالوا : إباحية حلولية متزندقة ، ونسبوا إليها أنها القائلة :

وارحمتـــا للعـــاشقين ! قلـــوبهم في تيـــه ميـــدان المحبـــة هـــائمـــه

فقالوا الله تعالى يقول : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ وليس العشق بأكثر من المحبة ، وقال **القاضي أبو يعلى** وقد ذهبت الحلولية إلى أن الله عز وجل يُعشَق » .

★★★

وقيل غلطت رابعة إذ تلتقي بالرجال وتسمع لهم ويسمعون لها في المحبة ، وقد روى أن **الحسن البصري ورياحاً القيسي** كانا كثيراً ما يبيتان عندها للصلاة وللحديث في المعرفة . وذكر **الثوري** أنه ما كان يرتاح عند أحد مثل راحته عندها ، وذلك لا يجوز ، شرعاً على أنه يروى عنها أيضًا أنها التقت ذا النون في تيه إسرائيل فقـــالت « ما للرجـال ومخاطبة النساء » ... أقول وكان الأحرى بها أن يكون ذلك دأبها مع الآخرين .

★★★

وغلطت رابعة بإعراضها عن العلم شُغلاً بالزهد ، فقد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وقد عابت على **سفيان الثوري** أنه كان يشتغل **بالحديث** واعتبرت ذلك منه ميلاً إلى الدنيا ، فلما تركت العلم وانفردت بالرياضات على مقتضى الصوفية لم يكن بها صبر عن الكلام في الدين فتكلمت بواقعاتها فغلطت أغاليط قبيحة كما قيل ، فلما سألوها هل تحبين الرسول ﷺ قالت . إن حبي لله شـــغلني عن حب غيره ، فلم يعد ثمة مكان لمحبة غيره » . وسألوها هل تكرهين الشيطان ؟ فقالت . إن حبي لله منعني من الاشتغال بكراهية الشيطان » . وسألوها أترين من تعبدينه ؟ فأجابت لو كنت لا أراه لما عبدته » . وتلك

أغلاظ إنفردت بها كما قيل ، وساقت فيها الشرع على مقتضى علمها بالنظر إلى ما لاحظت به أعمالها ، واتفق لها من اللطف بما يشبه الكرامات .

★★★

وقد كانت تقول إنها ترى الجان والحور فانبسطت فى دعواها . وتطاولت على الله عز وجل فسألته : أما كان لك عقوبة ولا أدب غير النار ؟» . وقالت : أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟» . وأمسكت فى إحدى يديها ناراً وفى الأخرى ماء وادعت أنها ذاهبة إلى السماء ، « حتى ألقى بالنار فى الجنة وأصبّ الماء فى الجحيم ، فلا تبقى الواحدة ولا الأخرى » . وذلك منها تحقير لما عظّم الله من أمر الجنة والنار . وكانت تقول ما عبدتك رغبةً فى جنتك ، وليس هذا ما قطعت عمرى فى السلوك إليه ! » . وقالت : إذا كنت أعبدك خوف النار فأحرقنى بنارها ، أو طمعًا فى الجنة فحرّمها علىّ ! » . وقالت : عُرِضت على الجنة فملت بقلبى إليها فأحسب أن مولاى غار علىّ فعاتبنى فله العُتْبى » . فقيل كيف لها أن تصب الماء على نار وقودها الناس والحجارة ، وقد قال فيها الرسول ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم » . وقد روى أنه قال : « يا جبرائيل مالى أرى ميكائيل لا يضحك ؟ فقال . ما ضحك جبرائيل مذ خُلقت النار ، وماجفّت لى عين مذ خُلقت جهنم ، مخافة أن أعصى الله فيجعلنى فيها ! » . فإذا كانت هذه حال الملائكة وهم الأطهار من الدنس ، وهذا انزعاجهم من النار ـ فكيف تهون على رابعة فتقول إنها ستطفئها بالماء ، فتظهر الجهل بقدر هذه النار ؟ !

★★★

وقالت رابعة : إلهى ! كل ما قدّرته لى من خير فى هذه الدنيا أعطه لأعدائك . وكل ما قدّرته لى فى الجنة امنحه لأصدقائك » ، وتلك دعوة باطلة ، لأن الله قد توعد الفُجّار بالعذاب ، وشرع العذاب للمخالفين . وقولها « ما قدّرته لى فى الجنة » قطعٌ لنفسها بأنها من أهل الجنة وذلك كفر ويروى أنها قالت عن قول الله « إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون » ، « مساكين أهل الجنة ! فى شغل هم بأزواجهم ! » . وقد عاب ابن عربى عليها مقالتها وقال إنها ما عرفت! إنها لمسكينة ! فإنما شغلهم بالله ! » . ورَدّ ذلك منها إلى « مكر الله الخفى بالعارفين » .

★★★

ومن شطحات قولها بالكعبة « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها ؟ » ولم تشأ أن تنظر إليها وقالت فيها : الصنم المعبود فى الأرض ! والله ما ولجه الله ولا خلا منه » ، وذلك مخالفٌ لما أمر به الله عز وجل من الحج لبيته وتوقيره ، فقال : ﴿ **ولله على الناس حج البيت منإستطاع إليه سبيلا** ﴾ ، وقال : ﴿**وأتموا الحج والعمرة لله**﴾ ، وقال : ﴿ **ولا فسوق ولا جدال فى الحج** ﴾ .

★★★

وقيل غلطت رابعة حين خُطبت وامتنعت عن **الزواج** بدعوى أن الزواج يميل إلى الدنيا ، ولا خيار لها فى نفسها فإنها لله بها ، وقد لعن الرسول ﷺ المترجلات من النساء المتشبهات بالرجال ، والمتبتلات من النساء اللاتى يقلن لا نتزوج ، وليست العزوبة من أمر الإسلام فى شىء ، **وابن عباس** يقول : إن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء » . ولو ترك الناس الزواج ما كان لهم أولاد ، فلم يغزوا ويجاهدوا ويعملوا ، وكان النبى ﷺ يختار الزواج ويحث عليه وينهى عن التبتل . وإذا كان الزواج ألبق بالرجل فهو ألزم للمرأة ، وكانت رابعة تقول : إن أُنسها بالله ، مع أن الله هو الذى يقول : ﴿ **وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها** ﴾ ، فهل إذا قبلت رابعة الزواج امتثالا لأمر الله والتزاماً بسنته ، أتراها تكون قد خرجت عن الأنس بالله وعن السُّنَّة!

★★★

وقيل غالت رابعة إذ إعتزلت الدنيا بدعوى الاشتغال بالله ، فسكنت كوخاً ، وافترشت حصيراً ، وتجرّدت من كل مال ، وجلست على بساط الفقر ، مع أن الله لم يحرّم زينته على الناس ، وجعل المال قواماً لها ، وكان الرسول يدعو لأصحابه بأن يُكثر الله أموالهم وأولادهم ويبارك فيهم ، ولما سأله **كعب بن مالك** · يا رسول الله ـ أمن توبتى أن انخلع من مالى صدقةً إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ ؟ قال « أمسك بعض مالك فهو خير لك » ، وذلك على خلاف ما اعتقدته رابعة من أن المال حجاب وعقوبة .

★★★

وكانت رابعة لا تجد ما تأكل ، فتظل بالأسبوع على جوعها ، فتضعف حتى لتتداعى ساقاها ، ووصفت بأنها كالشَنّ . وهذا خطأ كما قيل ، لأنها إذا أكلت وتقوّت على القيام كان أكلها عبادة ، لأنه يعين على العبادة ، وليس من العقل ولا من الدين ترك ما تحتاج إليه النفس من المطعم والمشرب فشدّدت فيما ابتدعت .

★★★

ومن أغلاطها أنها قالت لرياح القيسي لما رأته يُقبّل صبياً من أهله : ما كنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره ؟ وكأن طلب الأولاد يشغل عن الله ، وهو سبحانه الذي يقول . ﴿ **وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم** ﴾ ، ورسوله ﷺ يقول : « تناكحوا تناسلوا » ، وقد طلب الأنبياء الأولاد ، فقال تعالى حكاية عنهم . ﴿ **ربِّ هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾ ، و ﴿ **رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي** ﴾ .

وذلك بعض ما نذكره من أغلاط قيل إن رابعة وقعت فيها وأُخذت عليها ، ووُجه لها بسببها النقد ، ولم نر أن نردّ عليها فقد فعلنا ذلك فيما سبق من أبواب ، والله نسأل أن يغفر لها ، ولمن عاب عليها ، وأن يغفر لنا فيما أوردناه أو قصّرنا فيه أو عجزنا عن بيانه .

★★★

الفصل الثانى عشر

رجالٌ ونساءٌ حول رابعة

★★★

يلفت الانتباه فى حياة رابعة العدوية هذا الجمع الكبير من الصوفية من الرجال والنساء من حولها ، على عكس مـا نجد عند تريزا الأفيلية التى يزعم الدكتور بدوى أنها شبيهة رابعة فى المسيحية . وبحسب المتاح من المراجع فإن أكثر ما يروى عنها من حكايات مدارها الحسن البصرى ، ثم خادمتها عبدة بنت أبى شوال ، ثم سفيان الثورى ، فمالك بن دينار ، فرياح القيسى ،فعبد الواحد بن زيد ، فحيَونة ، فشقيق البلخى ، فإبراهيم بن أدهم ، ثم ذو النون المصرى ، وهناك أكثر من ثلاثين شخصية فى حياتها كلهم من الرجال إلا امرأتين .

★★★

١ ـ الحسن البصرى

★★★

أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن ، الفقيه الزاهد ، كان عالماً عالياً رفيعاً ، ثقةً مأموناً عابداً ناسكاً فصيحاً وسيماً ، وله مواعظ اشتهرت عنه . وأبـوه كان فارسياً وسبى فى فتح العراق . وقيل إن أمه كـانت جارية لأم سلمة زوج النبى ﷺ فبعثت أم سلمـة جاريتهـا فى حاجـة لها ، فبكى الحسن وهو طفل ، وكان بكاؤه شـديداً فرقّ له قلب أم سلمـة رضى الله عنها ، فأخذته ووضعته فى حجرهـا ليسكت ، وألقمته ثديها ، فقيل إنه درّ عليه فشرب منه . وقيل إنّ ما بلغه الحسن من الحكمة إنما كان من اللبن الذى شربه من أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، ومـايزال يعى الحكمـة حتى نطق بها . وكان إذا ذكـر عند أبى محمـد بن على بن الحسين يقول . ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء » . وقيل فى أوصافه النفسية : إنه أشبه الناس سريرةً بعـلانية ، وأشبه قولاً بفعل وإن قعـد على أمر قام به ، وإن قـام على أمر قعد عليه ، وإن أمر بأمر أعمل الناس به ، وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له .

وقال عنه **أبو طالب المكي** : إنه أول من أنهج علم التصوف ، وفتّق الألسنة به ، ونطق بمعانيه ، وأظهر أنواره ، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعوه من أحد من إخوانه .

وقيل إن الزهد انتهى إلى ثمانية من التابعين ، فمنهم الحسن بن أبي الحسن ، « فما رأينا أحداً من الناس أطول حزناً منه ، وما كنا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة » .

ومن أقواله

« والله ما من الناس أدرك القرن الأول وأصبح بين ظهرانيكم إلا أصبح مغموماً وأمسى مغموماً ، ولقد أدركت سبعين بدرياً ، أكثر لباسهم الصوف ، ولو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه . ولقد رأيت أقواماً يسمى أحدهم وما يجد عنده إلا قوتاً فيقول لا أجعل هذا كله في بطني ، لأجعلن بعضه لله عز وجل ، فيتصدق ببعضه وإن كان هو أحوج ممن يتصدق عليه . وأدركت أقواماً ماطوى لأحدهم في بيته ثوب قط ، ولا أمر في أهله بصنعة طعام قط ، وما جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط » .

وكان يتمثل بهذين البيتين ، أحدهما في أول النهار ، والآخر في آخر النهار :

يسر الفتى ما كان قدّم من تقى ... إذا عرف الداء الذي هو قاتله

وما الدنيا بباقية لحي ... ولا حي على الدنيا بباق

ولما حضره **الموت** دخل عليه رجال من أصحابه ، وطلبوا أن يزوّدهم بكلمات تنفعهم ، فقال :

إني مزودكم بثلاث كلمات . مانهيتم عنه من أمر فكونوا من أترك الناس له ، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به ، واعلموا أن خُطاكم خطوتان ، خطوة لكم وخطوة عليكم ، فانظروا أين تغدون وأين تروحون » .

وتوفي رحمة الله سنة ١١٠ هـ ، وكانت رابعة في نحو الخامسة عشر أو العشرين ، وربما تكون قد عرفته في مجالسه ، وتاريخ ميلاد رابعة ووفاتها من الأمور المختلف عليها ، فمن قائل أنها توفيت سنة ١٣٥ هـ ، ومن قائل أن وفاتها سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ . وقد

رفض البعض حكاياتها مع الحسن البصرى لعدم إمكان إدراكها له ، وزكّى البعض هذه الحكايات . وقيل إن من أورد لها حكايات مع البصرى إنما كان يقصد الجمع بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين فى تاريخ التصوف ، ولتمجيد رابعة على حساب الحسن ، حيث أظهرتها هذه الحكايات بمنزلة أعلى من منزلة الحسن .

ويذكر الدكتور **بدوى** أن نظرية رابعة فى الزواج تتايد بنظريات رجال عصرها فيه ، وعلى رأسهم الحسن البصرى ، رائد حركة الزهادة فى ذلك العهد ، ولم يكن يرى الزواج بالنسبة إلى الزاهد بل إلى العبد الصالح ، وقال « إذا أراد الله بعبد خيراً فى الدنيا لم يشغله بأهل ولا ولد » . وفى هذا ما يدل على أن نزعة تقرير العزوبة كانت بمثابة الفرض على من يريد أن ينقطع لله ويبلغ منزلة الصدّيقين . غير أنا وجدنا **الأصبهانى** صاحب **حلية الأولياء** قد ذكر فى تاريخه للحسن البصرى أن ابنه جاءه وهو فى مجلسه يطلب إليه أن يصلح سهمه الذى انكسر ، ويبدو أن هذا الابن كان اسمه سعيد ، وأنه لذلك كان يكنى أبا سعيد ، فهل كان الحسن يدعو إلى ما لا يطيقه على نفسه فى حياته ، أم أن هذه الروايات عنه مختلقة ، خاصة أن الحسن كان يقول على وجه المقارنة أنه أدرك أقواماً كانوا آمر الناس بالمعروف ، وآخذهم به ، وأنهى الناس عن المنكر وأتركهم له . وأنه قد صار إلى أقوام آمر الناس بالمعروف وأبعدهم منه ، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه ، ويتساءل . كيف الحياة مع هؤلاء ؟ ولربما لذلك يتناقض قوله الأول مع قوله الثانى . ويذكر الإمام **أحمد بن حنبل** أن العزوبة ليست من أمر الإسلام فى شىء ، وأن النبى ﷺ تزوج أربع عشرة امرأة ، ومات عن تسع ، وكان يصبح وما عندهن شىء ، وكان يختار النكاح ويحث عليه وينهى عن التبتل ، فمن رغب عن فعل النبى ﷺ فهو على غير حق ، والنبى ﷺ قال « حُبّب إلىّ النساء » ، وقال « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار أنفقته فى الصدقة ، ودينار أنفقته على عيالك ، أفضلها الدينار الذى أنفقته على عيالك ! » ، وقد روى عن الحسن مع رابعة أنه دخل عليها وجماعة من الزهاد فعرضوا عليها الزواج ممن تختار منهم ، فلما استفسرت عن أعلمهم قالوا لها الحسن البصرى ، فطلبت إليه أن يجيبها على أربع مسائل فتكون له أهل ، فقال لها سلى فأنا مجيبك إن وفقنى الله ، ومعنى الحكاية أن الحسن كان من دعاة الزواج ، وأنه قد خطب رابعة فيمن تقدّم لخطبتها ، على عكس ما يذهب إليه **الدكتور بدوى** .

★★★

٢ ـ عبدة بنت أبى شوال

★★★

كانت عبدة تخدم رابعة ، وقيل إنها كانت من خير إماء الله . ومعظم ما وصلنا عن حياة رابعة الخاصة وصلنا عن طريقها ، وقد تناولتها فى صلاتها ، ونُسكها ، وتهجدها ، وقيامها الليل ، وطعامها ، ومسكنها ، ولباسها ، وموتها ، فقالت :

« كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة : يانفس ! كم تنامين وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور ! » . فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت . فلما حضرتها الوفاة دعتنى فقالت : ياعبدة ! لاتؤذنى بموتى أحداً ، ولفّينى فى جُبتى هذه ! » . فكفّناها فى تلك الجبة ، وخمار صوف كانت تلبسه . وقالت عبدة : رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها فى منامى ، عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً أحسن منه ، فقالت : يارابعة ! ما فعلت بالجبة التى كفّناك فيها ، والخمار الصوف ؟ ـ قالت . إنه والله نُزع منى ، وأُبدلتُ هذا الذى ترينه علىّ ، وطوبيت أكفانى وخُتم عليها ورُفعت فى عليين ، ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة » . ـ قلت : لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ! ـ قالت : وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه ! » . ـ قلت : فمرينى بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل ! ـ قالت : عليك بكثرة ذكره . أوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك .

وتقوم طريقة عبدة على الذكر ، وربما كان إنشغالها به هو الذى جعلها تحلم برابعة توصيها بالذكر ، والنبى ﷺ كان يقول « سبق المفردون » ، قيل ومن المفردون يا رسول الله ، قال : « الذاكرون كثيرًا والذاكرات » ، والفرد هو الذى ليس معه غيره ، والذكر هو طرد الغفلة ، والفرق بين رابعة وعبدة أن رابعة كانت تستروح الأفكار ، وعبدة كانت تشغلها الأذكار ، ولذلك يحكى الزبيدى أن رابعة قالت يوماً : من يدلنا على حبيبنا ؟ يعنى أنها كانت تفكر فيه ، ومنها من ذلك حيرة ، فأجابتها عبدة بيقين . حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه ! » . وذلك مقام المعية ، ولم يكن يخفى على رابعة ، وإنما كانت كما يقول الزبيدى فى مقام الاستغراق الذى هو من نتائج المحبة ، وهو مقام القُرب الذى قد يتطلب من السالك من

يأخذ بيده ، فنبهتها عبدة خادمتها ، وردّت شوقها إلى الله إلى إنشغالها بالدنيا فافتقدته معها . ومن المفسرين من يستعظم على عبدة أن تنبه رابعة وهى « رأس فى المعرفة والمحبة » ، فقالوا إن مقالة رابعة تفكرٌ فى الله دون ما سواه ، وهذا هو الذكر بعينه ، وفيه قال النورى :

أريد دوام الذكر من فرط حبه ... فيا عجباً من غيبة الذكر فى الوجد

وأعجب منه غيبة الوجد تارة ... وغيبة عين الذكر فى القُرب والبُعد

أو أنهما قد استهلكتهما محبة الله ولم يبق لهما حظ ، وكانت محبة رابعة محبة وَجْد فقالت مقالتها ، بينما كانت محبة عبدة إقراراً وهى أقل درجة ، وفيها يدرك المُحب عِلّة وجده ، ولا يُستغرق عن نفسه بالكلية ، فيذكّره العقل بما فاته . وهو حال عبدة . وكانت فى صحبة سيدة العارفات بالله والمحبات له حتى وفاتها ، والسلوك مُعْدٍ كما يقولون وإنما رابعة رائدة وعبدة تابعة ، ويحكى أن رابعة كانت تعتكف إبّان الصيف فى بيت منعزل لا تفارقه فجاءتها عبدة يوما تقول : سيدتى ! غادرى هذا البيت وتعالى تأملى آثار قدرة الله تعالى ، فأجابتها رابعة : بل أدخلى أنت وتعالى وتأملى القدرة نفسها ، وتأمُّل عبدة إذن كانت لموضوعات خلق الله وبدائع صنعه فهى لم تزل فى مرحلة الدهشة بينما تأمل رابعة كان لذاتها ، وكان استبطاناً ، ولذلك قالت أبياتها المشهورة :

أحبك حبين : حبَّ الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا

فأمّا الذى هو حب الهوى ... فذِكرٌ شُغِلت به عن سواكا

وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فلست أرى الكون حتى أراكا

ففى الحب الأول المعهود تذكر للمحبوب ، ولكنها لا تنسى نفسها ولا الكون من حولها فيه . وفى الثانى كانت محبتها كما يقول بن عبد الصمد . التى تعمى وتصم ، أو تعمى عما سوى المحبوب فلا تطلب سواه ،فقالت قولتها من يدلنا على حبيبنا ؟!!

٣ ـ سفيان الثورى

★★★

أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثورى ، كانوا يسمونه فى البصرة أمير المؤمنين فى الحديث . وقالوا أئمة الناس ثلاثة بعد أصحاب رسول الله ﷺ : ابن عباس فى زمانه ،

والشافعي في زمانه ، وسفيان الثوري في زمانه » . وفي وصف مجالس سفيان قال **ابن المبارك** : تعجبني مجالسه . إذا شئت رأيته في الورع ، وإذا شئت رأيته مصلياً ، وإذا شئت رأيته غائصاً في الفقه » . وقال ابن عياش في مصاحبته : إني لأرى الرجل يصحب سفيان فيعظُم » . وقال **الطنافسي** : لا أذكر سفيان الثوري إلا وهو يُفتي » . ويقول **ابن مبارك** : إذا لقيت سفيان الثوري فلا تسأله عن شيء إلا عن رأيه » .

وسفيان إذن يَشرُف الناس بمعرفته ، ومجالسه فيها الفائدة لمن يؤمها ، ودرايته بالحديث لا يختلف بشأنها أحد ، إلا أن الحكايات التي تورده مع رابعة توقفه منها موقف المتلقي عنها والتلميذ الروحي لها ، وهذه الحكايات قد كتبها صوفية ، ويظهر فيها بوضوح أنهم يريدون أن يثبتوا أن **المتصوفة أفضل من الفقهاء والمحدثين** ، فالجلوس للحديث وعلو الإسناد فيه كله رياسة ودنيا ، وللنفس في الجلوس للحديث لذة ، ورابعة لذلك تقول لسفيان عندما تسمعه يطلق زفرة ويهتف وأحزناه : لا تكذب ! قل واقلة حزناه ! فلو كنت حزيناً ما هناك عيش » . وتقول له مرة أخرى : إن السلامة ترك الدنيا وأنت غارق فيها » . وسمعته يقول اللهم أسألك رضاك ، فقالت : تسأل رضا من لست عنه براض! » . ولا عجب وهذا حالها معه أن تطلب من خادمتها مرة بعد أن ينصرف سفيان من عندها : إذا جاء هذا الشيخ وأصحابه فلا تأذني لهم فإني رأيتهم يحبون الدنيا . وهذا النفور أساسه أن رابعة تنطلق من فلسفة في الحياة والدين مختلفة عن سفيان ، ومع أنه يرتاح إليها كثيراً ، ويطلق عليها اسم المُؤَدِبة إلا أنها كانت كثيرة النقد له ، ونلاحظ أن رابعة تسأل مرة عن حبها للرسول ﷺ فتقول قولتها المحيرة « إن حب الله قد ملأ قلبي إلى حد لم يجعل ثمة مكاناً لمحبة غيره أو كراهيته » ، ولاحظ كذلك قولها القاطع بانه لا مكان في قلبها لغير الله ، بما يعني أنها لم تشتغل بمحبة الرسول ولا بعلم الحديث وإنما اشتغالها على الحقيقة بالله وبعلم الباطن ، فهي له ، وفي ظل أوامره ، ولا خيار لها في نفسها . وعلم الباطن الذي هو شغلها يقول فيه الشبلي :

إذا طالبوني بعلم الورق ... برزت عليهم بعلم الخِرَق

وموجدة رابعة على سفيان أنه ليس من أهل الطريق . والعلم الذي تتيه به رابعة هو الذي قال فيه الإمام عليّ « سرّ من سرّ الله ، وحُكمٌ من أحكامه ، يقذفه في قلوب من يشاء من أوليائه » ، وهو لذلك **علم وهبي** ، لا فضل لهم فيه . وأما علم سفيان فهو **علم كسبي** ، يبذل فيه العالم كل نفسه ، وكما يقول . إن المحدث قبل أن يكتب أو يقول الحديث عليه أن « يؤدّب

نفسه ويتعبّد قبل ذلك بعشرين عام » ، ولذلك فقد فسّر البعض ، **كابن الجوزى** ، تسخيف الصوفية لهذا العلم بأنه بسبب ميلهم إلى الكسل وتبطّلهم وزهدهم فيما يكون به إرهاقهم . ويذهب **ابن عربى** إلى تفسير أكثر موضوعية ، وفيه من التحليل الكثير فيقول : إن السائرين إلى الله بعزائم الأمور على قسمين ، فطائفة ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء مُنبهاً ومُعلماً ، فإذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلّى بينهم وبين الله ، وهؤلاء إذا سابقوا إلى الخيرات سارعوا فلم يروا أمامهم قدماً لأحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالوه من نفوسهم وانفردوا إلى الحق . والطائفة الأخرى جعلوا فى نفوسهم أنهم لا سبيل لهم إلى الله تعالى إلا والرسول هو الحاجب ، فلا يشهدون أمراً إلا وأقدام الرسول ﷺ بين أيديهم . والحالة الأولى هى حالة عبد القادر الجيلانى **ورابعة العدوية** وأبى السعود بن شبل ومن جرى مجراهم ، والحالة الثانية التى لا يضرب ابن عربى المثل لها هى حالة **سفيان الثورى** والمحدّثين بعامة ، أى أن رابعة صار طريقها إلى الله مباشرة من غير حاجة للرسول ، بينما الثورى يتوسل إلى الله بالرسول ، والموقفان متغايران ، ولذلك فبينما نجد الثورى شديد الزهد ومكتفياً بخبزه وبقله ، وقد تمر الأيام عليه دون أن يتناول شيئاً من الطعام ـ وكانت رابعة مثله ـ إلا أن رابعة كان موقفها واضحاً فتقول له : أفضل شىء يتقرب به العبد إلى الله ألا يطلب من الدنيا والآخرة غيره » . وتقول : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، إن خاف عمل ، أو إذا أعطى عمل ، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه . بينما سفيان يرى أن الزهد فى الدنيا هو « قصر الأمل ليس بأكل الخشن ولا لبس الغليظ » ويقول : الأفضل أن يكتسب الرجل لعياله وأن تفوته الجماعة فيصلى وحده ، من أن يترك عياله يتضرعون جوعاً ويتوكل على الله » . وكان يقول . كثرة النساء ليست من الدنيا ، لأن علياً رضى الله عنه من أزهد الصحابة وكان له أربع نسوة وتسع عشرة سرية » . وكان سفيان متزوجاً هو نفسه ، وذلك كله عكس ما ذهبت إليه رابعة فى حياتها وتصوفها. وتسأل رابعة سفيان يوماً : ماتعدون السخاء فيكم ؟ فيقول لها : أما عند أبناء الدنيا فمن يجود بماله ، وعند ابناء الآخرة منْ يجود بنفسه » . فتقول رابعة : أخطأتم ! » . فيسألها فما السخاء **عندكن** ؟ فتقول : أن تعبده حباً له لا طلباً لجزاء ولا مكافأة » . وأتساءل هل جواب سفيان فيه أن يطلب جزاء أو مكافأة حتى تقول رابعة أخطأتم وتصوّبه إلى ما صوبته إليه ؟ ويبدو أن سؤال رابعة الذى فيه « **فيكم** » ، وسؤال سفيان الذى فيه **عندكن** ، يعنى أنها كانت تسأل عن موقف الرجال من السخاء المُعبّر عنه **بفيكم** ، فى مقابل موقف النساء المعبر

عنه بعندكن . والتضحية بالنفس والمال هى أقصى ما يقدمه الرجل المؤمن من السخاء ، بينما عند المجتمع النسائى لرابعة ، وهو مجتمع صوفى من المناديات بالمحبة الإلهية من أمثال حيّونة وعبدة ،فإن السخاء هو أن تبذل المُحِبةُ لله نفْسَها فى هذه المحبة ، فتستغرقها وتعيش بها ، فلا تكون أنثى ولا تتزوج ولا تنجب ، وتلك لعمرى تضحية من المرأة وأى تضحية فى مجتمع كل تعاليمه تقضى بزواج المرأة وتحبب لها الإنجاب . ولم يعرف عن رابعة وعبدة وحيّونة أنهن تزوجن ، وكُنّ يرفضن فكرة الزواج من أساسها تفرغاً لعبادة الله .

وفى حكاية من حكايات رابعة مع سفيان أبصرها مريضة متهافتة وسألها أن تدعو الله لنفسها أن يخفف عنها ، فلم تفعل باعتبار أن مرضها من مشيئة الله ، فكيف تتوجه إليه بالدعاء متجاهلة إرادته . وكانت رابعة كالشأن مع الصوفية ترى فى التداوى والشكوى لله من المرض خروجاً من التوكل ، وأما سفيان فقد صَحَ عنده أن رسول الله مرض واشتكى وتداوى ولم يخرج بذلك من التوكل ، ولا يمكن أن يُفهم ذلك من المسلم إنْ فَعلَه على أنه تَبرُّمٌ منه لقضاء الله فيه . وكانت رابعة فى توكلها متجردة تماماً حتى أنها لم تكن تمتلك سوى حصيرة وكوز وكفنها وثيابها الخَلِقة التى عليها ،وأما سفيان فكان يقول المال فى زماننا (وهو نفسه زمن رابعة) سلاح للمؤمن ، ويقول : لأنْ أخلف عشرة آلاف دينار أحاسب عليها أحب من أن أحتاج إلى الناس ».

وتوفى رحمه الله ١٦١ هـ ، وكان ميلاده سنة ٩٧ هـ ، أى أنه إذ التقى برابعة كان مثل عمرها ، وكان ميلاده ووفاته بالبصرة ، وكان يقال فيه أنه إذا ذُكِر بالموت لا يُنتَفع به أياماً من شدة ذهوله واكتئابه ، حتى أنه كان إذا سئل عن شىء لم يقل سوى « لا أدرى ! لا أدرى ! » .

ومما يذكره **أبو نعيم عن أحمد بن أبى الحوارى** وكان من المحدّثين عن كثير من الصوفية ، أن سفيان الثورى قال : دخلت على بنت أم **حسّان الأسدية** ، وفى جبهتها مثل ركبة العنز من أثر السجود وليس به خفاء ، فقلت لها : يابنت أم حسان ! ألا تأتين عبد الله بن شهاب بن عبد الله فرَفَعْتِ إليه رقعة لعلّه أن يعطيك من زكاة ماله مُستغيرين به بعض الحالة التى أرادها بك ؟ فدعت بمعجر لها فاعتجرت به فقالت : ياسفيان ! لقد كان لك فى قلبى رجحان كثير (أو كبير) ، فقد ذهب الله برجحانك من قلبى ! ياسفيان ! تأمرنى أن أسأل الدنيا من لا يملكها ؟ وعزته وجلاله إنى أستحى أن أسأله الدنيا وهو يملكها ! » .

ونفس الحكاية قيلت عن رابعة ، فقد روى **حماد بن زياد** أنها قالت : إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ ! فكان هذا الجواب لأنه قال لها : سلينى حاجتك » . وفى رواية أخرى أن جماعة من الصالحين ذهبوا لزيارة رابعة ، فلما رأوها وعليها أسمال ممزقة قالوا : أى رابعة ! كثير من الناس سيساعدونك إن طلبت منهم المساعدة . فأجابت : إنى أخجل من أن أسأل الناس شيئاً من متاع هذه الدنيا ، لأن شئون الدنيا ليست ملك أحد ، وما هى إلا عارية فى يد من هى فى يده ! » . وعن **أحمد بن أبى الحوارى** أيضاً فى رواية لأبى نعيم أن سفيان قال : وكان إذا جن عليها الليل (ويقصد بنت أم حسان) دخلت محراباً لها وأغلقت عليها ثم نادت إلهى ! خلا كل حبيب بحبيبه ، وأنا خالية بك يامحبوب ، أفما كان من سجن تسجن به من عصاك إلا جهنم ، ولا عذاب إلا النار ؟» . وهى نفس المعانى والكلمات التى تنسب لرابعة ، فقد قيل إنها كانت إذا صلّت العشاء قامت على سطح لها وشدّت عليها درعها وخمارها ثم قالت . إلهى ! أنارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ! » ، ثم تقبل عن صلاتها . وعن **مالك بن دينار** أنه أتى رابعة وهى تقول : أما كان لك يارب عقوبة ولا أدب غير النار ؟ ! » .

وفى الرواية عند أبى نعيم أن سفيان كان يعظ بنت أم حسان مثلما كان يفعل مع رابعة ، وكان يتلقى عنها ويقف منها موقف التلميذ الروحى كما كان مع رابعة . يقول سفيان : فدخلت عليها بعد ثلاث (ليال) فإذا الجوع قد أثّر فى وجهها ، فقلت لها . يابنت أم حسان ! إنك لن تؤتى أكثر مما أوتى موسى والخضر عليهما السلام إذ أتيا أهل القرية فاستطعما أهلها ، فقالت : ياسفيان ! قل الحمد لله ! فقلت الحمد لله ، فقالت : اعترف له بالشكر ! ـ قلت نعم ، قالت : وجب عليك من معرفة الشكر شكر ، وبمعرفة الشكرين شكر لا ينقضى أبداً » . قال سفيان . فَقَصُرَ والله علمى وفسد لسانى وما أقوم بشكر كلما اعترفت له بنعمة وجب علىّ بمعرفة النعمة شكر ، وبمعرفة الشكرين شكر ، فَوَلّيْتُ وأنا أريد الخروج ، فقالت . ياسفيان ! كفى بالمرء جهلاً أن يُعْجَب بعمله ، وكفى بالمرء علماً أن يَخشى الله ! إعلم أنه لن تَنقَى القلوب من الرَدَى حتى تكون الهموم كلها فى الله هَمّاً واحداً » . قال سفيان : فَقَصُرْت والله إلى نفسى ! » .

★★★

٤ ـ مالك بن دينار

★★★

كنيته أبو يحيى ، فقد كان فى حياته يعيش كالنبى يحيى ، فكان يلبس إزار صوف وعباءة خفيفة ، فإذا كان الشتاء ففرو وكبل وعباءة ، وكان يقول لو صلح لى أن أعمد إلى بُرد لى فاقطعه باثنين فاتزر بقطعة وأرتدى بقطعة ـ لفعلت ، وكان أدمه كل سنة ملحاً بفلسين ولا ياكل اللحم إلا يوم الأضحى ومن أضحيته . وكان يتكسب من شيئين ـ من عمل الخوص ونسخ القرآن . ودخل عليه جابر بن زيد وهو يكتب فقال له . يامالك ! مالك عمل إلا هذا ؟ تنقل من كتاب الله من ورقة إلى ورقة ؟ هذا والله الكسب الحلال ! وكان يكتب المصاحف ولا يأخذ عليها أجراً أزيد من عمل يده ، ويكتب المصحف فى اربعة أشهر وما كان له من الدنيا إلا درهمان ، درهم لورقة ، ودرهم ليشترى به خوصاً يعمل به . وكان كثير الإطّلاع على الكتب المقدسة والقديمة فى اليهودية والمسيحية ، ويزور من أجلها الأديرة ، ويجلس إلى الرهبان ويتحدث بطريقتهم ويقتبس من كتبهم فيقول : بحق اقول لكم إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل فى طلب الفردوس ، وبلغنى أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه أجيعوا أنفسكم وأظمئوها وأعروها وأنصبوها لعل قلوبكم أن تعرف الله ! ، وأوحى الله إلى نبى من الأنبياء ـ ، وفى التوراة ـ ، وفى الإنجيل ، وقرأت فى بعض الكتب ، وقرأت فى الزبور ـ ، ومكتوب فى التوراة ـ . وكان فى زهده فى الغاية ، حتى أن أستاذه الحسن البصرى قال له . ما أطيق أن أفعل ما تفعله ! » .

ومن أقواله فى الزهد : لولا أن يقول الناس جُنّ للبست المسوح ووضعت الرماد على رأسى أنادى فى الناس : من رآنى فلا يعص ربه عز وجل . ويقول : لو وجدت أعواناً ينادون فى سائر الدنيا كلها يايها الناس النار ! النار ! لفعلت ! وقال : نظرت فى كل إثم فلم أجده إلا من حب المال ! والمؤمن والمنافق لا يصطلحان حتى يصطلح الذئب والحمل ! وكان يبكى ويقول . يارب ! قد عرفت ساكن الجنة وساكن النار ، ففى أى الدارين مالك ؟ ولمّا رأى يوماً رجل يدفن جعل يقول : مالك غداً هكذا يصير ! لمثل هذا اليوم كان دؤوب أبى يحيى ! وكان دائم الحزن والبكاء ويقول : الذى لا يحَزن يخرب ، كما أن البيت الذى لا يُسكن يخرب .

هذا هو مالك بن دينار ، وهذه حاله ، ولم يكن فى بيته عند وفاته سنة ١٣١ هـ إلا

سرير أثل مرمول بالشريط ، وعليه قطعة بورى ، والوسادة قطعة كساء ، ولم يتزوج ، ولمّا سألوه أن يفعل أجاب : عجباً ! لقد طلقت الدنيا ثلاثاً ، ولو استطعت لطلقت نفسي !

ويرد اسم مالك فى بعض الروايات عن رابعة كرفيق لسفيان الثورى والحسن البصرى وشقيق البلخى ، ويُروَى عنه أنه قال : ذهبت إلى رابعة فوجدتها تشرب من جرة مكسورة وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة ومخدتها من الطوب اللَّبِن ، فقلت وقلبى يغلى : يارابعة ! لى أصدقاء أغنياء ، فإن سمحت لى سألتهم أن يعطونى شيئاً من أجلك ! » . أجابت . لقد أسأتَ القول يامالك ! إن الله تعالى هو الذى يرزقنى ويرزقهم ، أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء ؟ فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا » .

وفى إحدى المرات وكان بصحبة الحسن والبلخى ، قال الحسن : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه . وقال البلخى : ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه . وقال مالك : ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه . فصاحت رابعة . ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه ـ مثل نسوة مصر اللائى نسين الآم أيديهن لما رأين وجه يوسف ! » . والروايتان ترسمان صورة لرابعة فى مقام أعلى من مقامات مالك والحسن والبلخى ، ومقامها هو مقام المشاهدة ، بينما مقام مالك مقام التواجد . وفى المشاهدة وصل بين رؤية القلب ورؤية العين وقربٌ مقرون باليقين . ومن شاهد الله بقلبه غاب عند وجود عظمة الله ، ولم يبق فى قلبه إلا الله عز وجل . وأما مالك فكان واجداً ، أى يجد فى الضرب تلذذ ، أى حلاوة ، وهو ما يعنيه الوجد . وكثرة مواجيده كانت سمة عليه ، فكان يبكى ويشهق حتى ليُغشَى عليه . ومن أقواله المشهورة فى ذلك أنهم لمّا سألوه أن يدعو قارئاً قال : إن الثكلى لا تحتاج إلى نائحة ! .

★★★

٥ ـ رياح القيسى

★★★

رياح بن عمرو القيسى ، بصرى زاهد ، ومتألّه كبير القدر ، سمع مالك بن دينار وحسّان بن أبى سنان وطائفة ، وكان قليل الحديث ، وكثير الخشية والمراقبة ، ويروى عن

رابعة ، ومن ذلك أن **الأبرد بن ضرار** قال له يوماً : ياريا ح ! هل طالت بك الليالى والأيام ؟ فقال له : بمَ ؟ قال . بالشوق إلى الله ؟ فسكت رياح ولم يردّ على سؤاله حتى اتى رابعة فقالت : ما سالك ؟ فقال لها : سألنى هل طالت بك الأيام والليالى بالشوق إلى لقاء الله ؟ فسألتْه رابعة: فقلت ماذا ؟ قال . لم أقل نعم فأكذب ، ولم أقل لا فاهجن نفسى . ـ فصارت رابعة تخرق قميصها من وراء ثوبها وهى تقول : لكنى نعم !

وتقول **الدكتورة سعاد عبد الرازق** فى كتابها عن رابعة مايعنى أن رياحاً قد تصرف فى الموضوع مع رابعة فى تقديمها للأبرد كما لو كان زوجها ، وقد ظهرت غيرته عليها من طلبه لها أن تلثم وجهها وتستتر ، فهل كانت تبين على رياح من غير لثام دون استتار ؟ ومن رأى الدكتورة أن رياحاً وقد عقدت بينه وبين رابعة أواصر صداقة متينة فإنه تزوجها ، ولعله لذلك كانت رابعة تكنى بالقيسية ، ولما مات رياح سنة ١٧٠ أو ١٧٧ هـ ، وصارت رابعة أرملة تقدم لخطبتها آخرون ، ومنهم عبد الواحد بن زيد والحسن البصرى وأمير البصرة كما تقول الرواية ، إلا أننا نرى أنه مادامت رابعة قد توفيت نحو سنة ١٨٥ هـ ، أى بعد وفاة رياح بثمانى سنوات تقريباً ـ ، أو نحو ثلاث عشرة سنة ، وكانت وقت وفاتها فى نحو الثمانين ، فإنها من غير المعقول أن تُخطب وعمرها ٦٧ أو ربما ٧٢ سنة .، ومن التناقضات فى الروايات عن رياح أنه كان زاهداً فى الزواج ويدعو إلى التجرد على مذهب أستاذه مالك بن دينار . وينقل عنه قوله . لايبلغ العبد منزلة الصدّيقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوى إلى مزابل الكلاب ، ومع ذلك فقد ذكر **الشعرانى** فى طبقاته « باب العبّاد من النساء » امرأة رياح القيسى وكانت تقوم الليل كله ، فإذا مضى ربعه الأول ذهبت تقول لرياح : قم ياريا ح ! فلا يقوم ، فتقوم الربع الأخير إلى تمام الليل ثم تأتيه وتقول : قم ياريا ح ! قد مضى عسكر الليل وأنت نائم ، فليت شعرى من غرّنى بك ياريا ح ! ما أنت إلا جبار عنيد ! وكانت رضى الله عنها تأخذ تبنة من الأرض وتقول : والله للدنيا أهون علىّ من هذه ! وكانت إذا صلّت العشاء تطيبت ولبست ثيابها ثم تقول لزوجها الك حاجة ؟ فإن قال لا ، نزعت ثياب زينتها وصلّت إلى الفجر رضى الله عنها ، فهل تراها هى نفسها رابعة ؟ ولماذا سكت المترجمون وكتبوا عنها « امرأة رياح القيسى » وكفى ؟ أسئلة تحتاج إلى إجابات !

ومما قيل من روايات تثير الحيرة وتزيد البلبلة أن رياحاً كان له صبى من أهله فنظرته

رابعة يضمه ويقبله بما يعني أنه كان متزوجاً وله أولاد ، وعندئذ قالت رابعة : ماكنت أحسب أن في قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه ، فصرخ رياح وخرّ مغشياً عليه من وَجْده . ولمّا أفاق ظل يمسح العرق عن وجهه وهو يقول : رحمةٌ منه تعالى ألقاها في قلوب العباد للأطفال ! وتأنيب رابعة الذي أوجده يتضمن أن رياحاً ما كان له أن يحب غير الله ، والعبارة التي يجيب بها رياح هي دفاع الصوفية المتأهلين ضد المنتقدين عليهم في أمر الإنجاب عموما ، وكانت رابعة ضد الزواج والإنجاب ، فهل تراها مع ذلك قبلت الزواج من رياح على نحو ما فهمت الدكتورة سعاد للنص الأسبق عن الأصبهاني في الحلية ؟

ويذكر الدكتور بدوي أنه يفترض أن رابعة العدوية وقد التقت برياح القيسي في أول طريقها للتصوف فتوسم فيها ميلاً إلى الحياة الطاهرة فحملها على اطّراح حياتها اللاهية عندما كانت تشتغل بالغناء والعزف ، ولعل في هذا ما يفسر الصلة القوية التي قامت بينهما ، فقد يكون العطف أخذه عليها فتمنى لها وهو صاحب الطبيعة الممتازة أن تسلك السبيل الذي سلكه هو . ولئن كانت المصادر لا تحدثنا عن وقوع هذا الحادث بالذات فإنها تشير إلى صلاتهما الوثيقة إلى أبعد حد ، فكانا يقضيان الليل معاً في بيتها إنقطاعاً للتهجد والعبادة ، ومثل هذه الأحداث كثيراً ما تقع في حياتنا ، فذو النفس النبيلة إذا ما توسم في إحدى بنات الهوى روحاً سامية سرعان ما يفكر في إنقاذها مما هي فيه ، فمن يدري ؟ لعل هذا ما وقع بين رياح بن عمرو القيسي وصاحبتنا رابعة .

وقد أجبنا على فروض الدكتور في حينها . والخطأ الأساسي الذي يرتكبه الدكتور هو أنه افترض أيضاً أن رابعة قد اندفعت في طريق الإثم نحو شخص ثم خاب رجاؤها فيه ، أو أنها اندفعت في طريق الإثم إلى حد الإفراط وكان لزاماً على الدكتور بدوي أن يجد لرابعة من ينقذها مما تردّت إليه ، مثلما افترض أنها قد اثمت فاخترع قصة توبتها على يد رياح بدعوى صلتها الوثيقة به . ومع أن رابعة كما تقول الروايات كانت على صلة وثيقة بسفيان الثوري ، وكان كما يعبر عن ذلك نفسه يرتاح إليها كما لا يرتاح إلى أحد ، وأنها مؤدّبة يسمع منها من المواعظ ما لا يسمعه من أحد ، وكان يبيت عندها ويصليان معا ويصومان ، وكذلك الحسن البصري وقد عرض عليها نفسه للزواج فيمن عرض ، وكذلك عبد الواحد بن زيد وغيرهم ، فلماذا إذن رياح القيسي هو الذي يوكل إليه الدكتور مهمة توبتها ؟ والتي يفهم منها فعلاً وجود علاقة حميمة من نوع ما ، إلا أن هذه الرواية تقدم رابعة في صورة

العارفة وتجعل رياحاً تلميذاً لها يعود إليها ليعرف منها جواباً لما استُغلق عليه فهمه والرد عليه . وهذه الرواية نفسها هي أيضاً التي جعلت **الدكتورة سعاد** ترجح أن ما كان بينهما هو علاقة زواج .وثمة أمر آخر تستند إليه **الدكتورة سعاد والدكتور بدوى** فيما أورداه عن خصوصية العلاقة بين رابعة ورياح وهو الخُلة . وقد أورد **أبو طالب المكي** صاحب **القوت** أن رابعة ارتفعت إلى وصف معنى الخلة ، وأن لها أقوالاً جيدة فى مقامها . وكذلك يورد **أبو الحسين الملطى** صاحب **التنبيه والرد على اهل الأهواء** أن رياحاً وكليباً كانا يقولان بالخلة ، وأنهما من الطائفة **الروحانية** ، ويزعمان أن حب الله يغلب على قلوبهم وأهوائهم وإرادتهم ، وأنهما لذلك قد وقعت عليهما الخُلة من الله ، فأبيح لهما أن يفعلا أى شىء حتى لو كان السرقة والزنا وشُرب الخمر والفواحش كلها ، لا على وجه الحلال وإنما على وجه الخُلة كما يحل للخليل الأخذ من مال خليله بغير إذنه . وفكرة الخلة مأخوذة من خُلة **إبراهيم خليل الله** التى وردت فى القرآن ، وقد بيّن الرسول ﷺ فضل مقام الخلة ، وأنه لا يبلغه إلا أولياء الله الصالحون ، وأنه مقام فوق مقام المحبة . ولو صدّقنا **الملطى** فإن رياحاً كان يقول بهذه المقالة ويدعو إليها ، وقيل فى رياح إنه كان قالياً للدنيا هارباً منها وراغباً فى الآخرة ومطّرحاً للكُلَف ، وكان إذا دخل المسجد بكى ، وإذا دخل بيته بكى ، وإذا دخل الجبانة بكى ، فيقال له « أنت دهرك فى مأتم ؟ » . فيقول : يحق لأهل المصائب والذنوب أن يكونوا هكذا ـ ! » . وأتخذ غُلا من حديد فإذا جنّه الليل وضعه فى عنقه وتضرع وبكى حتى يُصبح . **وفكرة الغل** هذه مأخوذة أيضاً من ارتباط الخلة بإبراهيم الخليل ، وإبراهيم عليه السلام هو صاحب قصة الذبيح فى الفكر الإسلامى التى نشأت منها فكرة **سائبة الله** ، وكان كثير من زهّاد البصرة فى عصر رياح يعتبرون أنفسهم سائبات لله ـ كما يقول **الدكتور على النشار** فكانوا يضعون مثل هذا الغل فى أعناقهم انتظاراً للذبح ، ويبكون ويتضرعون حتى الصباح .

ويستخلص **الدكتور بدوى** من علاقة رابعة ورياح الحميمة أنه ربما تأثرت رابعة فلسفياً برياح وانطبعت بها **فكرة الخلة** فقالت بها فى شعرها ، وبسببها تطورت **نظرية الحب** عندها إلى حد أنها أسقطته بسبب أعتبارها لنفسها فى مقام الخلة من ربها ولعله لهذا أيضاً كانت تكلم ربها وتعاتبه بما يشبه **التطاول** ، ولعله أيضاً سبب قولها فى النار إنها لن تحرق قلباً محباً وتوّهمها رداً سماوياً عليه ، إذ تقول مخاطبة المولى عز وجل : « أتحرق قلباً

محباً ؟ فيأتيها الجواب : ما كنا نفعل هكذا فلا تظنى بنا السوء » . وارتباط هذه الرواية بقصة إبراهيم عليه السلام وإلقائه فى النار فكانت عليه برداً وسلاماً معروفة فى الإسلام ، فطالما أن الصوف الواصل قد بلغ الخلة التى كانت لإبراهيم فإنه وقد صار إلى مقامها لن تحرقه النار مثله وهو خليل الله .

وإننا لنستبعد أن يكون المعنى الإباحى الذى انصرفت إليه الخلة هو ما انتهى إليه حال وسلوك رياح أو رابعة ، وقد يكون هذا المعنى قد اعتقده آخرون ، منحرفين بالخلة عن أصلها ، وذلك شأن كل المذاهب فى شتى العصور والأمصار ، فلن تعدو أرقاها وأصفاها أن تجد من يسىء إليها شرحاً وتفسيراً وتطبيقاً . ولم يكن كذلك رياح ولا رابعة أبداً رحمهما الله ! .

★★★

٦ ـ عبد الواحد بن زيد

★★★

كان زاهدًا واعظًا ، وروى عن **الحسن البصرى** ، ورافق **سفيان الثورى** ، **وفرقد السبخى** ، **ومحمد بن واسع** ، **ومالك بن دينار** ، **وصالح المرى** ، **وعُتبة الغلام** ، **وسلّمة الأسوارى** . وقيل إنه أصيب بالفالج فسأل الله أن يطلقه فى وقت الوضوء ، فإذا أراد أن يتوضأ انطلق ، وإذا رجع إلى سريره عاد إليه الفالج . ويبدو من حالته أن مرضه كان نفسياً أو ما يسمى **بالشلل النفسى** ، وتوفى سنة ١٧٧ هـ ، وكان أكثر ما يميز شخصيته هو كثرة مواجيده وهياجه النفسى حتى ليبكى ويتشنج فما يستطع أحد أن يهدئه . ويروى **الحارث بن عبيد** أن عبد الواحد كان يجلس إلى جانبه فى مجلس مالك بن دينار فلم يكن يفهم كثيراً من مواعظ مالك لكثرة بكاء عبد الواحد ، وفى وعظه كانت له طريقة فى التحزن والإلقاء العاطفى المؤثر حتى ليؤخذ السامعون ويُغشَى على بعضهم . ويُروَى أنه فى إحدى المرات ناداه رجل من ناحية المسجد : كف عنا يا أبا عبيدة فقد كشفت قناع قلبى ! ولم يتوقف عبد الواحد واستمر فى وعظه والرجل يقول : كف عنا يا أبا عبيدة فقد كشفت قناع قلبى ! وعبد الواحد لا يقطع موعظته حتى حشرج الرجل حشرجة الموت ثم خرجت نفسه

ومات . وقيل فى بثه أنه لو قُسِم على أهل البصرة لوسعهم ، وقيل إنه فى الليل كان كأنه فرس رهان مضمر يقوم إلى محرابه فكأنه إنسان مخاطب .

وكان عبد الواحد مثل الكثير من أصحابه مطّلعاً على الكتب المقدسة ، ويتردد على الرهبان ، ولعله لهذا السبب أرجع **المستشرقون** فكرة **المحبة الإلهية** عند صوفية البصرة فى ذلك الزمان إلى تأثير **التصوف اليهودى والمسيحى** وهذا النفر من الأصحاب هم أنفسهم الذين كانوا يترددون على رابعة ، وبعضهم كان من تلاميذ الحسن البصرى أو التقى به واستمع إليه وتأثر بأفكاره . وربما لهذا كانت حكايات رابعة مع الحسن البصرى ،فلقد كانت من دائرة ثقافته . وكان عبد الواحد بن زيد من دعاة المحبة وكان يقول . الرضا رأس المحبة ، والرضا يتقدم الصبر ، وأهل محبة الله لا يمكن أن ييأسوا من رحمته ... وكان عبد الواحد بن زيد الراوى للحديث القدسى عن الحسن البصرى قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى جعلت نعيمه ولذته فى ذِكرى ، فإذا جعلت نعيمه ولذته فى ذكرى عشقنى وعشقته ، فإذا عشقنى وعشقته رفعتُ الحجاب بينى وبينه ، وصرتُ معالم بين عينيه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك الأبطال حقّا أولئك الذين إذا أردتُ بأهل الأرض عقوبةً وعذاباً ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم » ، وهذا الحديث كما يقول **أبو النعيم** فى **الحلية** مرسل ، ولكنه خارج من جملة الأحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن البصرى وعبد الواحد بن زيد وما يرجعان إليه من الضعف ، والحديث كما نرى يذكر « **العشق** » باللفظ فى مجال المحبة الإلهية .

وفى السيرة لرابعة أن عبد الواحد بن زيد خطبها ، ومع علو شأنه هجرته أياماً حتى شفع له إليها إخوانه ، فلما دخل عليها قالت له . يا شهوانى ! أطلب شهوانية مثلك ! أى شىء رأيتَ فىّ من آلة الشهوة ؟ !

وربما يُحمل كلامها على أنها لم تكن جميلة كما يشاع عنها ، وربما لم يكن عبد الواحد بن زيد قد رغب فيها عن شهوة ، إلا أنها فهمت خطبته لها كذلك ، ولقد قيل إن الهاشمى أمير البصرة قد خطبها أيضاً ، ، وجاءت خطبته لها بناءً على ما أشاروا به عليه ، ولم يكن قد شاهدها ولكنه خطبها لمّا علم زهدها وتقواها ، فلماذا لا يكون عبد الواحد قد خطبها لنفس السبب ، خصوصا أنه لم يكن من المتجردين . فقد ذكر **أبو نعيم** أنه كان له ابن متعبّد يقوم على أموره وحوائجه كلها ، فمات وهو بعد فتى ، فوجد عليه عبد الواحد وجداً شديداً ، وكلما

ذكره يبكى ويقول : موته نغّص علىّ حياتى ! ويستدرك ويقول : وهل الحياة إلا متنغصة ! ومن الغريب أن الرواة قد ذكروا عن عبد الواحد أنه صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة ، فهل نفهم من ذلك أنه تزوج مبكراً ، أو ماتت زوجته وظل بعدها فى عزوبة ؟ وربما أنه فى هذه الفترة قد رأى أن يتأهل واختار لنفسه رابعة ؟

ومما يثير الدهشة حقاً فى سيرة عبد الواحد بن زيد ما ذكره **الفضيل بن عياض** عن عبد الواحد ، بشأن امرأة من العابدات اسمها « **ميمونة السوداء** » وكان قد سأل الله ثلاث ليال أن يريه فى المنام رفيقته فى الجنة ، وذلك أمر مستغرب أن يخطر هذا الخاطر فى باله ، فهو دليل على انشغاله الجنسى كما يقول محللو النفس . ويقول عبد الواحد أنه قيل له فى المنام أنها من الكوفة من آل فلان ، فخرج إلى الكوفة وسأل عنها ، فقيل إنها مجنونة ، أو كما نقول مصابة بهوس دينى ، وأنها ترعى غنيمات لقومها ، فذهب يبحث عنها حتى عثر عليها قائمة تصلى وبين يديها عكازة لها ، وعليها جبة مكتوب عليها لا تباع ولا تشترى . وإذ الغنم مع الذئاب لا الذئاب تأكل الغنم ولا الغنم تفزع من الذئاب . فلما رأته أوجزت فى صلاتها ثم قالت : إرجع يا ابن زيد ، ليس الموعد ههنا ، إنما الموعد ثم ، فقال لها . يرحمك الله ! وما يُعلمك أنى ابن زيد ؟ فقالت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ؟ فقال لها : عِظينى ، فقالت : واعجباً لواعظ يوعظ ! يا ابن زيد ! إنك لو وضعت معاير القسط على جوارحك لخبرّتك بمكتوم مكنون ما فيها ! يا ابن زيد إنه بلغنى ما من عبد أُعطى من الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله حب الخلوة معه ،ويبدله بَعد القرب البُعد ، وبَعد الأُنس الوحشة . ثم أنشأت تقول :

يـــا واعظـــاً قـــام لاحتســـاب ... يـزجـر قـومـاً عن الـذنـوب

تنهى وأنت السقيم حقـــــاً ... هـــذا من المنكـــر العجيب

لـــو كنت أصلحت قبل هـــذا ... غيبك أو تبت من قـــريب

كـــان لما قلت يـــاحبيبى ... مـــوقع صـــدق من القلـــوب

تنهـــى عـــن الغـــى والتمادى ... وأنـــت فى النهـــى كالمريـــب

فقلت لها : إنى أرى هذه الذئاب مع الغنم ، لا الغنم تفزع من الذئاب ، ولا الذئاب تأكل الغنم ، فكيف ذلك ؟ فقالت : إليك عنى ! فإنى أصلحت مابينى وبين سيدى ، فأصلح بين الذئاب والغنم .

والقصة من الأدب الديني الرمزى كما ترى ، إلا أن لها دلالة أخرى بصدد ما نحن فيه ، فميمونة السوداء لم تتزوج ، وثوابها من الله تعالى فى الآخرة أن يزوّجها عبد الواحد بن زيد ، فهل يسوغ يكون عبد الواحد بن زيد أعزب ، ولذلك فقد طلب من الله تعالى أن يطلعه على نتيجة صبره على العفة فى الدنيا ؟ وهل من الممكن أن يكون عبد الواحد وقد رفضته رابعة محل رفض من أخريات ، فسأل ربه أن يريه فى المنام رفيقته فى الجنة ؟ أسئلة من الصعب الإجابة عليها بشكل حاسم من كتب السيرة ، ويفرضها منهج التحليل الذى آليت على نفسى اتباعه فى هذا الكتاب . على أن مواضع العجب فى القصة أن تنسب لإبراهيم بن أدهم قصة مشابهة عن منام يرى فيه أن زوجته فى الجنة هى ميمونة السوداء . وكان إبراهيم عزباً فى حياته ، وربما لذلك قد رأى هذه الرؤيا كتعويض لحرمانه ، وربما من كرامات الأولياء كما عند ابن زيد ، إلا أن العجيب أن يكون اسم المرأتين ميمونة ، وأن تكون كل منهما سوداء ، وكانت كل منهما تصلى والشاة والذئب فى مكان واحد ، وقالتا كلاماً مشابهاً فى تبرير الألفة بين الشاه والذئب . تقول ميمونة لإبراهيم : سلّمتها (أى الشاة) إلى منشئها ، وارتفعت بينى وبين من أنا قائمة بين يديه ، فهو الذى رفع الوحشة بين الشاة والذئب . ثم ولت وأنشأت تقول :

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرونا

وألسنة بسرٍ قد تناجى ... تغيب عن الكرام الكاتبينا

وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمينا

فتسقيها شراب الصدق صرفاً ... وتشرب من كئوس العارفينا

★★★

٧ـ حيونة

★★★

هي زاهدة عابدة من حلقة الجلساء إلى رابعة ، والروايات عنها قليلة إلا أنها فيها تبدو أيضاً من أهل محبة الله ، ولها مخاطبات ومناجيات مع الله ، ولها شعر في المحبة ومواقف مع كبار الصوفية ومع رابعة نفسها تدل على ما بلغته في الطريق وما ارتفعت إليه من مقامات . فمن مناجياتها : يا وَجدي ! تمنعني بالليل التلاوة ثم تقطعني عنك بك في ضياء النهار ؟ إلهي ! وددت أن النهار ليل حتى أتمتع بقربك ! ... وصمت حتى اسودت من الصيام ، فعوتبت في ذلك فرفعت طرفها إلى السماء وقالت . قد لامني خلقك في خدمتك ! فوعزتك وجلالك لأخدمنّك حتى لا يبقى لي عصب ولا قصب ! ... ولعله لهذا سميت خادمة الله ، وشِعرها أقل جودة من شعر رابعة ، وليست فيه على سجيتها . مثل :

يا ذا الذي وعد الرضا لحبيبه أنت الذي ما إن سواك أريد

ونثرها أيضاً ليست فيه مطبوعة ، تقول « من أحبّ الله أَنِس ، ومن أنس طرِب ، ومن طرب اشتاق ، ومن اشتاق ولِهَ ، ومن وله خَرُمَ ، ومن خرم وصل ، ومن وصل اتصل ، ومن اتصل عرف ، ومن عرف قرُب ، ومن قرب لم يرقد وتسورت عليه بوارق الأحزان » . وما ندري هل هذا كلام حيونة أم كلام رابعة ؟ غير أن ترتيبها مع ذلك للأحوال والمقامات فيه دراية وعقل وإعمال فكر وخبرة بالغة مما للرجال عموماً ، وليست للنساء . وهي دائماً تأخذ زمام المبادرة كالرجال ، فقد كانت لديها ريحانة وهي عابدة أخرى من حلقة رابعة ، فلما جنّ الليل جاء المطر والريح الشديد ، ففزعت ريحانة وضحكت حيونة من فزعها وقالت . لو علمت أن في قلبي محبة غيره أو خوف سواه لوجأته (أي قلبها) بالسكين ! ، وفي يوم كان شديد الحرارة قالت . عند المَبلَغ يفرح الواردون ، وعند العَرْض تنقطع الأسباب ، وعند قوله (أي الله) تنشر أعلام العارفين ! ـ وكلامها كما نرى مُنضّد وله ماوراءه ولا يفهمه إلا خبير .

وناتي إلى بعض مواقفها الموحية مع رابعة ،فقيل إن حيونة كانت في زيارة من زياراتها لرابعة فلما كان جوف الليل حمل النوم على رابعة ، فقامت إليها حيونة فركلتها برجلها وهي تقول : قومي ! قد جاء عُرْس المهتدين يا مَن زين عرائس الليل بنور التهجد !

ويقول الدكتور بدوى إن هذا الكلام من حيونة نص على أكبر قدر من الخطورة ، لأنه يتحدث عن وجود فكرة الزواج من الله والاقتران به لدى الصوفيات المسلمات حتى منذ القرن الثانى الهجرى ، أى الثامن الميلادى ، وهى الفكرة التى لعبت دوراً خطيراً فى التصوف المسيحى ، ابتداءً من القديسة تريزا التى عاشت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد أولئك الصوفيات المسلمات بثمانية قرون . وإذا كنا لا نستطيع أن نتحدث عن تأثير مباشر لهؤلاء المسلمات فى القديسة تريزا ، فإننا نترك هذه المسألة مفتوحة للباحثين .

والنص كما نرى منسوب لحيونة فلماذا يربطه الدكتور بدوى بنظرية الزواج عند رابعة ؟ ثم إن فكرة الزواج من الله فى التصوف المسيحى لها أساس عقدى فى المسيحية ، وهو إمكان الاتحاد بين الناسوت واللاهوت متمثلاً فى المسيح ، وعلى هذا الأساس كان القول بالاتحاد فى التصوف المسيحى . وإذا كان بعض فلاسفة التصوف الإسلامى قد قالوا بالاتحاد كذلك فإنما نقلوه من الفكر المسيحى دون أن يكون له أساس عقدى من الإسلام . وفكرة الاقتران بالله لم يقل بها فى المسيحية إلا المتصوفات ، وكانت فى مجالهن أنسب لكونهن نساء ، فهل كانت هناك دوافع أيديولوجية للقول بالاقتران بالله عند المتصوفات من المسلمات ؟ وإربما تكون دوافع حيونة هى تزويق الكلام باصطلاحات نسائية . ويحتمل أنها بطريقتها المندفعة والتى تتولى فيها المبادأة كشأن الرجال قد رأت أن تؤثر على رابعة ، فجعلت كلامها عن الصلاة والاستعداد لها ولقاء الله فيها بالنسبة لرابعة الأنثى ، كأنما تتهيأ لعرسها ، وهو أشرف عرس ، لأنه عرس المهتدين . وربما كذلك كان تعبيرها ذاك إسقاطاً لاشعورياً عن مكنونها النفسى ،وهى المرأة التى حرمت نفسها الزواج ، فطرحت رغبتها المكبوتة فيها فى هذه العبارة الموحية وكثيرة الدلالة . وعلى أى الأحوال ، ومهما كانت التفسيرات والتحليلات ، فإنه مما لاشك فيه أن حيونة كانت من مدرسة رابعة فى المحبة الإلهية ، وأنها كانت لها طريقة رابعة فى التعبير دون أن تكون لها أفكارها ، فهى إذا استُفضبت فى الله كانت لها ألفاظها الحادة كرابعة . ولقد سبق أن خبرنا رابعة تقول لسفيان « كاذب » ، وتقول لعبد الواحد بن زيد « ياشهوانى » ، وهاهى حيونة تفتقد الاتساق والإخلاص فى وعظ عبد الواحد بن زيد ،فتنبرى له وتصده ولا تناديه باسمه وإنما تقول له « يامتكلم ! تكلم عن نفسك ! والله لو مت ما تبعت جنازتك ! » ، وتشبّهه بمعلم الصبية الذى يحفّظ الأولاد بالعصى ، فإذا بهم ينسون بمجرد أن يتركوه ، وتقول له إن

الأولى به أن يبادر هو نفسه إلى ضرب نفسه ليعلّمها الأدب ، وذلك أسلوب رابعة فى الخطاب مما يدل على أن التأثير كان من رابعة عليها ، وليس العكس كما تقول **الدكتورة سعاد** حيث تجعل حيونة هى معلمة رابعة أو بمثابة الشيخ لها .

★★★

٨ ـ شقيق البلخى

★★★

أبو على شقيق بن إبراهيم الأزدى من أهل بلخ ، التقى برابعة فى البصرة وكان كثير السياحة . ويحكى أنه ذهب لزيارة رابعة بصحبة **مالك بن دينار والحسن البصرى** فتحدثوا عن الإخلاص ، فقال الحسن البصرى : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه » فقالت رابعة : هذا غرور ! ـ وقال شقيق البلخى « ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه » ، فقالت رابعة : هناك ما هو خير من هذا ! ـ فقال مالك بن دينار « ليس بصادق فى دعواه من لا يتلذذ بضرب مولاه » ، فصاحت رابعة : هناك أفضل من هذا ! ـ فقالوا لها تكلمى أنت إذن ؟ فقالت رابعة « ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه ، مثل نسوة مصر اللائى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف ! » .

والشكر إذن هو مقام البلخى فكما يقول هو نفسه : كنت رجلاً شاعراً فرزقنى الله عز وجل التوبة ، وكنت مرابياً ولبست الصوف عشرين سنة وأنا لا أعلم ، حتى لقيت عبد العزيز بن رواد فقال : « ياشقيق ! ليس البيان فى أكل الشعير ولا لباس الصوف والشَعر . البيان المعرفة أولاً ، أنت تعرف الله عز وجل وتعبده ولا تشرك به شيئاً ! والرضا عن الله عز وجل ثانياً . والثالثة تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى أيدى المخلوقين » . ولقد تحقق لشقيق البلخى كل ذلك ، أفلا يكون من الشاكرين ؟ وشكرُه ترجمة فى حياته إلى عمل فكانت له ـ كما يروون عنه ـ ثلاثمائة قرية فوهبها جميعاً لله ، وخرج من ثلاثمائة ألف درهم ، فلما مات لم يكن له كفن يُكفَن فيه ! وقيل فى سبب تـوبته أنه كان من أبناء التجار وخرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث ، فدخل بيتاً للأصنام ، فرأى خادماً للأصنام فيه قد حلق رأسه ولحيته ولبس ثياباً أرجوانية ، فقال شقيق البلخى للخادم : إن لك صانعاً حياً عالماً فاعبدْه

ولا تعبدْ هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ! فقال لـه الخادم : إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك ، فَلِما تعنّيت إلى هـاهنا للتجارة ؟ فانتبه شقيق وأخذ فى طـريق الزهد ! وقيل غير ذلك من الروايات . والمهم أن شقيقاً كان همه منذ انتبـاهه وتوبته تحصيل المعرفة بالله ، يحصلهـا لنفسه ولغيره ، فكان متعلماً يقول للمشايخ علّمـونى ، وكان معلماً يدرّس علم الأحوال . واجتمع حوله الكثيرون وأبرزهم **حاتم الأصم** . وقيل إنه سافر معه فصحبه منهم ثلاثمائة مريد (يلفت انتباهنا العدد ثلاثمائة فى حكايات شقيق) . وكان شقيق أستاذًا يميل إلى التصنيف والتبـويب ، ويحب أن يرتب معـارفه وينقلهـا إلى مريديـه فى شكل أولاً وثانياً وثالثاً ، ويقول **سبعة** أبواب يسلك بها طريق الـزهاد ، ويقول **أربعة** أشياء إذا لم يعـرفها المؤمن لم ينج من النـار ، **وثلاث** خصـال منْ عَمِل بها أعطاه اللـه الجنة وهكـذا . والمعرفـة عنده كما هى عنـد رابعة هى المعـرفة باللـه، ويفصلها فيقـول . إنها أولاً بالقلب واللسان والسمع وجميع الجوارح ، ثم هى معرفة النفس ثانياً ، ومعـرفة أوامر الله ونواهيه ثالثـاً ، ومعرفة عدو اللـه والنفس رابعاً . وتفسير **معرفة الله** هو أن تعـرف بقلبك أنه لن يعطيك غيره ، ولا مانع غيره . ولا ضار غيره ، ولا نافع غيره . **ومعرفة النفس** هى أن تعرف أنك لاتنفع ، ولا تضر ، ولا تستطيع شيئـاً إلا بـإذن اللـه وتقـديـره . **ومعرفة أوامر الله ونواهيه** هى أن تعلم أن أمر الله عليك ، وأن رزقك عليه ، وأن تكون واثقاً بالرزق مخلصاً فى العمل . أما **معرفة عدو الله** فهـو أن تعلم أن ذلك عـدو لا يقبل الله منك شيئـاً بشـأنـه إلا المحاربـة . والمحاربة فى القلب هى أن تكون محاربـاً مجاهداً متعباً للعدو . وقـد توفى شقيق محارباً ومجاهداً ومتعِباً للعـدو فى معركة **كولان** من بـلاد الترك سنة ١٩٤ هـ ، ويصف تلميذه حـاتم استشهاده أنـه كان مع شقيق فى ذلك اليوم الـذى كانت السرؤوس تطير فيه ، والسيوف تقطع ، والـرماح تقصف ، وكـان شقيق يتنقل بين الصفوف ويسأل حـاتم كيف ترى نفسك ؟ تراها مثل ما كنت فى الليلة التى زفت إليك امرأتك ؟

والمعرفة التى يقول بها شقيق البلخى هى معرفة مستفادة بالعقل ، بينما معرفة رابعة تحصلتها بالوجدان . ومقام الشكر الذى أقام فيه شقيق أدنى بكثير من مقام المشاهدة الذى كان لـرابعة . ومعـرفتها تحصلتها من هـذا المقام ، ففى المشـاهدة تتكشف للمحب عمـوماً صفات المحبوب ، ليس جملة وإنما صفة بعد صفة ، وكلما عرف منه واحدة طلب أن يعرف الأعلى منها ، لأن تجليات المحبوب لا آخر لها . وعلى قدر كمال المعـرفة تكون لذة المشاهدة .

ويحرك الشوق المحب إلى تكميل معرفته بالمحبوب ، وشوقه لتحصيل هذا الكمال يؤلمه ولكنه الألم المبهج ، لأنه بالمشاهدة يتنعم بجمال المحبوب . وفى مقام المشاهدة يعز الكلام ويلهج اللسان مع ذلك بما يستطيع من وصف للجميل ولذة مشاهدته ، وكانت رابعة لذلك شاعرة وشعرها ينبض بالمحبة ، والمحبة مقام جامع وأصل كل المقامات والأحوال . وبلغت رابعة فى المحبة الغاية فكانت العاشقة التى تجد ، وفى العشق كان فناؤها ، ولقد فنيت فى المشاهدة التى قالت بها فلم تعد تسمع إلاّ لله ، ولا تبصر إلاّ به ، ولا تدرك إلا له . فأين ذلك من مقام شقيق ؟

مساكين المحبين الحيارى ... تراهم مطلقين وهم أُسارى
وتحسبهم صحاةً من مُدام ... وهم من خمر عِشقهم سُكارى
إذا ذُكِرَ الحمى حنّوا إليه ... بأرواح مولهة حيارى
لقد سكن الهوى لهم قلوباً ... وقرّبها فاعدمها القرارا

★★★

٩ ـ إبراهيم بن أدهم

★★★

تقول الرواية إن إبراهيم بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة ، لأنه كان فى كل خطوة يصلى ركعتين ، وكان يقول « غيرى يسلك هذا الطريق على قدميه ، أما أنا فأسلكه على رأسى » . وبعد أربعين سنة بلغها فلم يجدها فى مكانها ، فقال نائحاً : واأسفاه ! أصرت أعمى حتى لا أرى الكعبة ؟ فسمع صوتاً يقول : يا إبراهيم ! لست أعمى ، لكن الكعبة قد ذهبت للقاء رابعة ! فتأثر إبراهيم ، ثم رأى الكعبة قد عادت مكانها ، وأبصر رابعة تتقدم مستندة إلى عصا : أى رابعة ! هكذا قال لها ـ « ما أجلّ عملك ! وما الضجة التى تحدثينها فى الدنيا ! الكل يقولون : ذهبت الكعبة للقاء رابعة ! » فأجابت رابعة : يا إبراهيم ! وأية ضجة تحدثها أنت فى الدنيا بأنك أمضيت أربعين عاماً حتى بلغت هذا المكان ؟ لأن الكل يقولون . إبراهيم يتوقف كل خطوة ليصلى ركعتين . فقال إبراهيم : نعم ! لقد أمضيت أربعين سنة فى اختراق

هذه الصحراء ! فأجابت رابعة يا إبراهيم ! أنت جئت بالصلاة وأنا جئت بالفقر ! ـ وبكت طويلاً ، وبعد أن زارت الكعبة عادت إلى البصرة ، وفى وثبة من قلبها صاحت : إلهى ! وعدت بجزئين لشيئين : القيام بالحج والصبر على الشدائد ، فإذا لم يكن حجى صحيحاً عندك ، فما أكبرها مصيبة عندى ! لكن ما جزاء هذه المصيبة ؟

والرواية كما صاغها المؤرخون تربط بين رابعة وإبراهيم بن أدهم ، وكلاهما قمة من قمم التصوف ، وترمز فيها الكعبة إلى الحضرة الإلهية ، وتشير إلى طريقة العبادة لبلوغ هذه الحضرة ، وهى طريقة إبراهيم بن أدهم ، فلكى يصل كان عليه أن يعانى المشاق « على رأسه » كما يقول ، بينما غيره يسلك مفازة الصحراء إليها على قدميه ، فطريقة إبراهيم هى الأعسر ، وقد اختارها رغم ذلك واستنفدت عمره كله ، المرموز له بأربعين سنة من الصلاة والسير على الدرب « على رأسه » ، أى على غير ما اعتاد الناس . وأما رابعة فطريقها هو القبول والرضا من الله عز وجل ، وهو المحبة ، فمن أحبه الله كان بصره ويده (الحديث) . والكعبة أى الحضرة هى التى تذهب إلى رابعة ، وهذا غاية الكرم من رب الكعبة ، وهدية الله إلى أحبائه ،وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

وكانت رابعة رأس المحبة ، وتكلم إبراهيم فى المحبة ، ومن ذلك قوله : إن العباد لو علموا حب الله لقل مطعمهم ومشربهم وملبسهم وحرصهم ، وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى أن منهم قائماً وراكعاً وساجداً منذ خلق الله تعالى الدنيا ، ما التفت إلى مَنْ عن يمينه وشماله ، اشتغالاً بالله عز وجل ، وبخدمته ، فالمحبة عنده تعنى الاشتغال بعبادته تعالى ، والمحبة عند رابعة تعنى أن تجعله فى فؤادها ، فإذا نطقت كان حديثها ، وإذا سكتت كان غليلها . وإبراهيم إذ يبلغ الكعبة فيفتقدها ينوح ، وهو يبحث عنها فى الكعبة البنساء ، أى فى العبادات والطقوس ، ورابعة لاتريد الكعبة الحجر ، لأنها مغايرة لطبيعتها ، فحجرية الكعبة تقابلها لبنية رابعة ، أى أنها من لَبِن بما يعنى إنسيتها ، ورابعة لاتريد الكعبة الحجر ، ولا ترغب فى الطقوس ، وإنما تريد أن تشاهد وجه الله ، ومن أجل ذلك تقول فى نص آخر « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها » ، وفى نص ثالث تقول عن الكعبة « إنها الصنم المعبود فى الأرض ، والله ماولجه إله ولا خلا منه » . ولم تشأ رابعة أن تنظر إلى الكعبة من بعد ذلك ، وعادت إلى البصرة ، وأقامت فى خلوتها ، وانقطعت بكامل نفسها إلى حضرتها مع الله تعالى .

وإبراهيم بن أدهم كان شرع الرسول ﷺ ونهجه ، والروايات فى حياته أكثر من أقواله ، وحياته هى التى حيّرت فيه المستشرقين ، ووجدوا فيها شبهاً بحياة **جوتاما بوذا** صاحب البوذية ، وأنشئت حولها الكثير من القصص الأدبى كقصة الأمير الشحاذ . ويحكى إبراهيم عن أول أمره فيقول أن أباه كان من أهل بلخ وملوك خراسان ، ومن المياسر ، وحبب أولاده فى الصيد . وفى يوم خرج إبراهيم راكباً فرسه وكلبه معه ، فبينا هو كذلك إذ ثار أرنب أو ثعلب فحرك إبراهيم فرسه وراءه ، فسمع نداء من خلفه يقول . ليس لذا خُلِقْتَ ولا بذا أُمِرتَ ! فتوقف ينظر يمنة ويسرة ، فلم ير أحداً ، فقال فى نفسه لعن الله إبليس . وحرك فرسه ، فإذا بالصوت يأتيه مرة أخرى أجهر من الأولى : يا إبراهيم ! ليس لذا خلقت ولا بذا أمرت ! فتنبه وقال · أُنْبِهْتُ ! أُنْبِهْتُ ! جاءنى نذير من رب العالمين ! والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى ! ورجع إبراهيم إلى أهله فخلّى عن فرسه ، ثم جاء إلى أحد الرعاة لأبيه فطلب منه جبة وكساء مما يضعه الرعاة ، وألقى عنه ثيابه ، وارتحل على قدميه ، أرضٌ ترفعه وأرضٌ تضعه ، وهذا ما كان من أوائل أمره وخروجه .

وفى رواية أخرى أنه وهو على فرسه يُركضه ، إذ سمع صوتاً من فوقه . يا إبراهيم ! ما هذا العبث ؟ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ اتقِ الله ، وعليك بالزاد ليوم الفاقة . فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ فى عمل الآخرة .

وفلسفة إبراهيم تكاد تقرب من رابعة فى مواضع ، فهو يقول فى الجنة . « اللهم إنك تعلم أن الجنة لاتزن عندى جناح بعوضة ، إذا أنت آنستنى بذكرك ، ورزقتنى حبك ، وسَهلت علىّ طاعتك ، فاعطِ الجنة لمن شئت » .أو يقول «اللهم إنك تعلم أن الجنة لاتزن عندى جناح بعوضة فما دونها ،إذا أنت وهبت لى حبك ، وآنستنى بمذاكرتك ، وفرّغتنى للتفكر فى عظمتك » ، وتقول رابعة « إلهى ! إذا كنت أعبدك خوف النار فاحرقنى بنارها ، أو طمعاً فى الجنة فحرّمها علىّ ! وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك » . وقيل لها يوماً كيف شوقك إلى الجنة ؟ فقالت : الجار قبل الدار ! .

وتجمع الرواية بين إبراهيم بن أدهم ورابعة كما رأينا فيما سبق من أبواب ، وتجمعه أيضاً بمتصوفة أخرى قيل اسمها **ميمونة السوداء** . ويحكى إبراهيم أنه رأى فى المنام كأن قائلاً يقول له إن ميمونة السوداء زوجتك ، وذلك نفسه ما يحدث **لعبد الواحد بن زيد** ،

وقد سبق أن قدمنا لذلك فيما أوردناه عن ذلك الزاهد العابد ، فالمَشاهد والمعانى واحدة وإن اختلفت الألفاظ ، والقصة من الأدب الرمزى ، والبيئة التى تجرى عليها مع ابن زيد هى البصرة ، بينما هى مع إبراهيم بيئة الشام ، مع مناسبة الشعر فيهما لابن زيد أو ابن أدهم ، بحسب مقام كل منهما وبساعه فى التصوف . ففى القصيدة الأولى نقرأ كلمات مثل الوعظ والزجر والمحبة وهى من مفردات أليق بابن زيد ، وفى القصيدة الثانية نعثر على ألفاظ ومصطلحات مثل قلوب العارفين وسر النجوى وشراب الصدق ، وهى الأنسب لابن أدهم . وأما أن ميمونة فى الحالتين سوداء ، وأنها فى الجنة زوجة لهذا أو لذاك من الأولياء ، فقد تكون الإشارة للظاهر والباطن أو الشريعة والتصوف ، وأما أن الخراف ترعى مع الذئاب فقد يكون المعنى مصالحة التصوف على الشريعة ، أو توافق الظاهر والباطن ، أو كما تقول ميمونة أصلحت ما بينى وبين الله فأصلح هو مابين الذئاب والغنم .

★★★

١٠ ـ ذو النون المصرى

اسمه **ثوبان بن إبراهيم** ، وأطلقوا عليه **ذا النون** ، لأنه كان كالنبى يونس سواحلياً كثير السياحة بالبحر ، وله حكايات مع أهل البحر ، ولقّبوه **بأبى الفيض** فقد كانت له مواهب فيضية وتحدّث فى الطريق وله فيه تعاليم . ويبدو أنه كما قيل أول من قعّد وأصلح مصطلحاته وبيّن معارفه . وله لسان فى المعرفة وفى المحبة ، وكلامه معظمه يدورَ حول الأُلفة والهوى والوله والوداد والأنس والشوق ، واللذات والذكر ، والوصال والعشق ، ولغته هى لغة القلوب والعيون والعبرات والجفون والصبابة والحب والمحبة والمُحبّين ، ولقاءاته فى أغلب ما يحكى تتم على خلفية من الطبيعة ، فيقول : كنت فى جبال الشام ، أو تيه إسرائيل ويقصد سيناء ، أو صحراء العرب ، أو بلاد النوبة ،أو برية مندرة ، أو على شط نيل مصر ، أو بين أشجار الشام ، أو فى البحر ، أو على ساحل بحر الشام ، أو فى جبال بيت المقدس ، أو على ساحل البحر عند صخرة موسى ، أو فى جبال أنطاكية ، ولقاءاته مع النساء بخاصة كثيرة جداً ، وروايات بهذا الخصوص لاتعد ، وهن دائماً من العابدات ، وحديثهن لا يكون إلا فى المحبّة ، وتجرى هذه اللقاءات على خلفية طبيعية يصف فيها الليل والسماء والماء ،

ورهبة القفر ووحشة الجبال ، والألوان تستهويه ، ومن ذلك خضرة الشجر ، وسواد الليل وبياض النهار ، ودُكنة الجبال ، وصفرة الصحراء ، والناس عنده سود البشرة أو بيض ، والأصوات يلوّنها الحزن والشجن ، والقلوب تحرقها اللوعة ودائمة الأنين . وأحصيت له فى سيرته فى **حلية الأولياء** لقاءه بعشرة نسوة ، وحديثه كثير عن الشهوات واللذات ، وإذا تحدث فى الذنوب اختص منها بالذات ذنوب النظرة ، ومن النظرة الخَطْرة ، فإذا تداركنا الخطرة بالرجوع إلى الله ذهبت ، وإن لم ندركها امتزجت بالوساوس فتتولد منها الشهوة ، ويقول : إن هذه العمليات النفسية الجسمية تتم فى الباطن ولم تظهر بعد على الجوارح ، وما لم نتدارك الشهوة يتولد منها الطلب ، وما لم نتدارك الطلب يتولد عنه الذنب ، والصوفية دائماً ينبهون إلى أن ما نذكره كثيراً ونخوض فيه مراراً دليل انشغال أكيد به ، وكأن انشغال ذى النون إذن **بالجنس** ، ولكنه يتسامى به كما نقول فى التحليل النفسى ، فيوجه طاقاته الليبيدية إلى الحديث فى المحبة والانفعال بمطلق المحبة ، ولغته فيها لغة **العارف** ، والفرق بينه وبين رابعة فى مجال المحبة أن رابعة تحب كأنثى وتعانى فعلاً وتبلغ فى حبها الغاية وهو العشق . والمحبة ألصق بالنساء ، بينما ذو النون أستاذ ومعلم ، فهو يعرف المحبة ويبيّن علاماتها ، ويصف أهلها ، ويصنّف مراتبها ، وينعتها فى أحوالها ، ويعدّد مقاماتها .

وكان لقاء ذى النون برابعة كلقائه بغيرها من الجوارى من أهل المحبة والهوى والجوى والصبابة والعشق ، يقول تلميذه **سعد بن عثمان** : كنت مع ذى النون المصرى رحمه الله فى تيه بنى إسرائيل ، وإذا بشخص قد أقبل فقلت : يا أستاذ ! شخص قد أتى ، فقال لى . أنظر من هو ، فإنه لا يضع أحد قدمه فى هذا المكان إلا صدّيق ، فنظرت فإذا هى امرأة فقلت : إنها امرأة ؟ فقال صدّيقة ورب الكعبة ! فابتدر إليها وسلّم عليها فقالت : وما للرجل ومخاطبة النساء ؟ فقال : أنا أخوك ذو النون ولست من أهل التهم ، فقالت : مرحباً ! حيّاك الله بالسلام ! فقال : ما حملَك على الدخول فى هذا الموضع ؟ فقالت : آية من كتاب الله عز وجل ـ قوله تعالى : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ فكلما دخلت إلى موضع لم يهنئنى القرار فيه بقلب قد أبْهَلتْهُ شدة المحبة ، وهام بالشوق إلى رؤيته . فقال لها : صفى المحبة ! فقالت : سبحان الله ! أنت عارف بها وتتكلم بلسان المعرفة ، وتسألنى عنها ؟ ! فقال لها : للسائل حق الجواب . فقالت : نعم ، والمحبة عندى لها أول وآخر فأولها لهج القلب بذكر المحبوب ، والحزن الدائم والتشوق اللازم ، فإذا صار إلى أعلاها شغله

وجدان الخلوات عن كثير من أعمال الطاعات ... ثم أخذت فى الزفير والشهيق وأنشأت تقول :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حب الهوى ... فذِكرٌ شُغِلت به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وفى رواية أخرى قال ذو النون : بينما أنا أسير على ساحل البحر إذ بَصرت بجارية عليها أطمار شَعْر ، وإذا هى ناحلة ذابلة فدنوت منها لأسمع ما تقول ، فرأيتها تنظر إلى السماء ، متصلة الأحزان بالأشجان . وعصفت الرياح فاضطربت الأمواج وظهرت الحيتان ، فصرخت ، ثم سقطت إلى الأرض ، فلما أفاقت قالت تناجى الله : ياسيدى ! لك تقرّب المتقربون فى الخلوات ، ولعظمتك سبّحت الحيتان فى البحار الزاخرات ، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات ، أنت الذى سجد لك سواء الليل وضوء النهار ، والفلك الدّوار ، والبحر الزخّار ، والقمر النوّار ، والنجم الزهّار ، وكل شىء عندك بمقدار ، لأنك الله العلى القهّار :

يامؤنس الأبرار فى خلواتهم ... ياخير من حلّت به النُّزّال
من ذاق حبك لايزال مُتيّما ... فَرِحَ الفؤاد متيماً بلبال
من ذاق حبك لا يُرى متبسماً ... من طول حزن فى الحشا إشعال

فقلت لها : زيدينا من هذا ! فقالت : إليك عنى ! ثم رفعت طرفها إلى السماء وقالت :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأمّا الذى هو حبّ الهوى ... فذِكرٌ شُغِلت به عن سواكا
وأمّا الذى أنت أهلٌ له ... فكشفُك الحُجب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ثم شهقت شهقة فإذا هى قد فارقت الدنيا ، فبقيت أتعجب مما رأيت منها ، فإذا بنسوة قد أقبلن ، عليهن مدارع الشعر ، فاحتملْنها فغيبنها عن عينى ، فغسّلنها ثم أقبلن بها فى أكفان ، فقلن لى : تقدّم فصلّ عليها ، فتقدمت وصلّيت عليها وهن خلفى ، ثم احتملنها ومضين .

ومن رأى **الدكتور بدوى** أن هذه القصة أسطورية إن قُصِد بهذه المرأة رابعة كما هو ظاهر من شعرها ، وذلك أن ذا النون المصرى إنما ولد حوالى سنة ١٨٠ هـ ، أى فى الوقت الذى توفيت حواليه رابعة ، فهنا استحالة تاريخية إذن ، وإنما هى من تلك الأقاصيص الشائعة عند مؤرخى الصوفية للربط بين كبار الشخصيات فى التصوف ، حتى ولو لم يتفق هذا مع الإمكان التاريخى ، ومن شعروا بهذه الاستحالة التاريخية سرعان ما راحوا يزيفون فى التواريخ نفسها حتى ييسروا هذا التلاقى ، والعلّة فى هذا الحرص الشديد على الربط واللقاء ، هو تواتر السند بحيث يتصل الإسناد الحى ، لأن فى اتصاله ضماناً لصدقه ورفعاً للذاتية فيه ، كما هو شأن الروح العربية فى تصوراتها ، ففى النبرة تحرص على التسلسل الطولى بحيث يكون الأنبياء جميعاً سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، تأخذ قوامها الحق لا عن أفراد الأنبياء تفاريق ، بل عن وحدة التسلسل فيها مجتمعين . وفى **الرواة المحدّثين** ، وفى الإجازات فى مختلف مرافق الحياة الدينية ، فهذا هو الذى يفسر لنا وجود هذه الظاهرة الفذة فى عالم الروح العربية ، **ظاهرة الحرص الشديد على الإسناد التاريخى الحى المتصل** ، أعنى أن العلة هى القضاء على الذاتية وتوكيد التسلسل حتى يتصل بالكلمة العليا ، ولذا نرى الإجازة الحقيقية أو الإسناد الحق لابد أن ينتهى بالنبى أو الملَك الصادر مباشرة من الله فى خاتمة المطاف . ولعل من أوضح الشواهد وأغربها فى هذا الباب **فكرة المصافحة** وتسلسلها التاريخى حتى تنتهى بالنبى ، والرسائل عديدة فى موضوع المصافحة مما يدل على مدى الاهتمام الشديد بالفكرة عينها ، **إنما تفيد فى بيان الفكرة التى كانت لدى أولئك المؤرخين الذين ابتدعوا القصة عن نظرية الحب منسوبة إلى رابعة بوصفها أول من تحدث عنها ، ولذا كانت أجدر الناس بأن يتلقى عنها معانى المحبة ، فإذا كان فى تقدير الصوفية أن رابعة هى التى لقّنت الناس مذهب المحبة فمن يتكلم بعدها عن المحبة يجب أن يأخذ عنها حتى تكون معرفته بها كاملة ، لهذا نرى أن الذين وضعوا هذه القصة إنما أرادوا خصوصاً أن يرفعوا من شأن ذى النون بأن يجعلوه يتلقى علم المحبة عن صاحبة هذا العلم الأولى : رابعة .**

وكل ما ذكره **الدكتور بدوى** كان يمكن أن يكون صحيحاً لو لم تكن هناك مراجع تزعم أن ذى النون ولِدَ سنة ١٥٧ هـ (**أنظر ابن الملقن طبقات الأولياء**) فإذا كانت رابعة قد توفيت نحو سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ فمعنى ذلك أن يكون ذو النون قد التقى برابعة على الحقيقة ، وخاصة إذا علمنا أن ذا النون كان كثير التنقل ،وكان لقاؤه بغير أهل بلده من الكثرة حتى أنهم أطلقوا عليه اسم المصرى ، وأنه سافر إلى غزة ، والشام والبصرة ، وبغداد وجدة ، ومكة ، والمدينة ، ومدن أخرى ، ولعل تلك الأسفار وإقباله على الالتقاء بالصوفية أنّى وجدوا ، هو الذى أشهره بينهم ، فلما عرفوه اطّلعوا على فكره وتبيّن لهم فضله ، فقال فيه **الجامى** إنه هو رأس هذه الفرقة أى الصوفية ، فالكل قد أخذ عنه وانتسب إليه ، ولقد كان المشايخ قبله ولكنه أول من فسّر إشارات الصوفية وتكلّم فى هذا الطريق . ويذكر **أبو المحاسن** أن ذا النون كان أول من تكلّم فى مصر فى الأحوال ومقامات أهل الولاية . ويذكر له **العطار صاحب تذكرة الأولياء** تعريفات لكلمة العارف والمعرفة تملأ نحواً من صفحتين . ومما يؤثر له أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع . **وقال عنه القشيرى** أنه أول من عرّف التوحيد بالمعنى الصوفى . **ويقول المستشرق نيكلسون** أن ذا النون ـ وليس أبو اليزيد البسطامى ـ كان له أكبر الأثر فى تشكيل الفكرة الصوفية . وإذن فلربما يمكن القول أن القصة قد لا تكون مختلقة ، وخصوصاً أن ما يطعن فى زعم الدكتور بدوى من أن المؤرخين ابتدعوا القصة لينسبوا مذهب المحبة لرابعة ويرفعوا من شأن ذى النون كمتلقٍ عن رابعة ـ أقول إن ما يطعن على هذا الزعم أن الرواة جهّلوا المرأة ، وكان الأجدر بهم أن يذكروا أنها رابعة صراحة ـ وكذلك لا يطعن فى نسبة الأبيات لرابعة أن الراوى لم ينسبها إليها فالأبيات لرابعة فعلاً بشهادة كل المؤرخين ، وتفسيرنا لتجهيل المرأة فى هذه الرواية أنها ربما لم تكن رابعة وكانت إحدى المتصوفات التى تحفظ عن رابعة وتنهج نهجها .

وفى السيرة التى يوردها **أبو النعيم** لذى النون أنه فى جبال أنطاكية ، إذا بجارية كأنها مجنونة ، وعليها جبة صوف ، فسلّم عليها ، فردّت السلام ، فقالت : ألست ذا النون المصرى ؟ فسألها كيف عرفتنى ؟ فقالت : فتق الحبيب بينى وبين قلبك ، فعرفتك باتصال حب الحبيب . ثم قالت أسألك مسألة ؟ قلت : سلينى . قالت : أى شىء السخاء ؟ قلت : البذل والعطاء . قالت . هذا السخاء فى الدنيا ، فما السخاء فى الدين ؟ قلت . المسارعة فى طاعة المولى . قالت : فإذا سارعت إلى طاعة المولى تحب منه خيرًا ؟ قلت . نعم . قالت : المسارعة إلى

طاعة المولى أن يطّلع إلى قلبك وأنت تـريد منه شيئاً بشيء . ويحك يـاذا النون ! إنى أريد أن أقسم عليه فى طلب شهوة منذ عشرين سنة فأستحى منه مخافة أن أكون كأجير السوء ، إذا عمل طلب الأجر ، لكن أعمل تعظيما لهيبته وعز جلاله !

والسـؤال عن السخـاء وطلب الشهـوة التـى تعتمل فى النفس منـذ مـدة ولم تتحقق ، والاستحياء من الله ، وأجير السوء ، والعمل لعظمته وهيبتـه ، كل ذلك نصادفه فى الروايات عن رابعة مع صوفية آخرين غير ذى النون ، ولا تقتصر على ذى النون .

ويلتقى ذو النون بـامرأة فى بعض مسيراتـه تسأله من يكـون ؟ فيشكو لها الغـربة ، فتقول : وهل توجد مع الله أحزان للغربة وهو مؤنس الغرباء ومعين الضعفاء ؟ !

ثم يلتقى ذو النون بجـارية على شاطىء النيل تـدعو ربها تقول : يامن هـو عند ألْسُن الناطقين ، يامن هو عند قلوب الذاكرين ، يامن هو عند فكرة الحامدين ، يامن هو على نفوس الجبّارين والمتكبرين ، قد علمت ما كان منى يا أهل المؤملين ! ثم صرخت صرخة خرّت مغشياً عليها .

ويحكى أيضـاً ذو النـون عن امـرأة سـوداء فى سـواد نيل مصر ، ويقصـد ربما من السودان ، تنـاجى ربها بأحسن وأعذب الكلام ، ثم امرأة خامسة وسـادسة إلخ ،، ومنهن واحدة التقى بها فى الكعبة وكانت تبث الله لواعج حبها :

ذَوّقتنى طيب الـوصـال فـزدتنى شـوقـاً إليك مخامـر الحسرات

وتقول :

روّعت قلبى بـالفـراق فلم أجـد شيئـاً أمـرّ من الفـراق وأوجعـا
حسب الفـراق بان يفـرق بيننـا وأطـال مـا قـد كنت منـه مـودعـا

وقـالت : يا ذا النـون ! أما علمت أن الشـوق يـورث السقم ، وتجديد التذكار يـورث الأحزان ؟ وأنشأت تقول :

لم أذق طعـم وصلـك حتـى زال عنـى محبتى لـلأنـام

وقالت :

نِعْمَ المحبُ إذا تـــزايـــد وصلـــه وعَلَت محبتـــه بعقب وصـــال

وكل هذه الروايـات وغيرها عن نساء لم تُذكر أسماؤهن ، وأحسب لذلك أن المرأة التى أنشدت أبيات رابعة فإنما كانت تنشدها مما تحفظه من الشعر عن المحبة .

وذو النون نفسه شاعر ، وله القصائد والأبيات فى المحبة كأجمل ما يكون الشعر فى هذا المجال ، إلا أنها مع ذلك ليست على مستوى شعر رابعة ، حيث نستطيع أن نميز فى شعرها أنها تتحدث عن **تجربتها الحية** ، وتقبس من مشاعرها ، وتطرح نفسها فى سطور ، فتنبض الأبيات بصـدق المحبة وحرارة الحب ، فأما شعر ذى النون فإنه لا يتحدث فيـه عن نفسه بقدر مـا يجعل من تجربته **تجربة إنسانية عامة** تصلح لكل أحـد فى مثل حالـه ، وفى كل عصر ومصر ، فقد كان ذو النون مشغولاً بالتعليم وأن يكون له المريدون ، فلما توفى فى جيزة مصر سنة ٢٤٥ هـ ، حُمل على قارب مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس مع جنازته ، ورأى الناس طيوراً خضراء ترفرف على جنازته حتى وصلت إلى قبره رضى الله عنه .

★★★

وبعد ... فلعل هذه السياحـة فى عالم رابعة قد شارفت على غايتها ، وقـد أتاحها كتاب **الدكتـور عبد الرحمن بـدوى « رابعة العدويـة شهيدة العشق الإلهى »** .والكتاب من الكتب المثيرة للكثير من الجدل ، والمهم أن الدكتور بدوى كان فيه رائداً ، وأفكاره فيه مبدعة وأصيلة وإن اختلفنا معه فيها .

وتظل رابعة العدويـة بسيرتها وأفكارها وأقوالها نبعاً ثرّاً لبحـوث مستقبلة ، وكشوف عظيمـة ، نتوقعهـا من فلاسفـة مسلمين وغير مسلمين ، ومتصوفـة من كل أنحاء العـالم ، فرابعة بما آمنت به ، ووهبت حياتها من أجله ، ملكٌ لكل الناس ، فى كل العصور والأمصار ، رضى الله عنها وأرضاها ....

عبد المنعم الحفنى

★★★

المراجع التى ورد ذكرها فى الكتاب

ـ رابعة العدوية · شهيدة العشق الإلهى للدكتور عبد الرحمن بدوى .

ـ الطبقات · لابن الملقن .

ـ الأعلام · الزركلى .

ـ الروض الفائق فى المواعظ والرقائق : الحريفيش .

ـ شذور العقود : لابن الجوزى .

ـ وفيات الأعيان · لابن خلكان .

ـ إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين . الزبيدى .

ـ قوت القلوب . للمكى .

ـ الرسالة . للقشيرى .

ـ التعرف . للكلاباذى .

ـ عوارف المعارف · للسهروردى .

ـ الرسائل والمسائل . لابن تيمية .

ـ صفة الصفوة : لابن الجوزى .

ـ مصارع العشاق : للسرّاج .

ـ طبقات الأولياء : للمناوى .

ـ نفحات الأنس من حضرات القدس . لعبد الرحمن جامى .

ـ شذرات الذهب . لابن العماد الحنبلى .

ـ سير السالكات المؤمنات الخيرات : لأبى بكر الحصنى .

ـ سير أعلام النبلاء : لشمس الدين الذهبى .

ـ شرح حال الأولياء · لعز الدين بن عبد السلام .

ـ شفاء السائل لتهذيب المسائل : لعبد الرحمن بن خلدون .

ـ تفسير المنار .

ـ إحياء علوم الدين . للغزالى .

ـ روض الرياحين عن مناقب الصالحين · لابن أسعد .

ـ روضة التعريف بالحب الشريف : لابن الخطيب .
ـ حلية الأولياء : للأصبهانى .
ـ تذكرة الأولياء : لفريد الدين العطار .
ـ دائرة معارف القرن العشرين .
ـ دائرة المعارف الحديثة .
ـ دائرة المعارف الإسلامية .
ـ البداية والنهاية . لابن كثير .
ـ الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى . للدكتور محمد مصطفى حلمى .
ـ رابعة العدوية . محمد زكى عبد الرحمن .
ـ رابعة العدوية . سميح عاطف الزين .
ـ رابعة العدوية بين الفناء والبكاء : الدكتورة سعاد على عبد الرازق
ـ الموسوعة الصوفية . لچون فرجسون
- The Mystic Encyclopedia, : J. Ferguson, .
ـ دائرة المعارف البريطانية
- Encyclopedia Britannica. vol. 9 .
ـ رابعة العدوية وأصحابها الصوفية : لرجريت سميث
- M. Smith : Rabbi'a The Mystic and Her Fellow - Saints .
ـ رابعة العدوية : لمحمد قمر الدولة نصر .
ـ رابعة العدوية . لمحمد زكى عبد الرحمن .
ـ رابعة العدوية . طه عبد الباقى سرور .
ـ رابعة العدوية . ليسرى الجندى .
ـ المتصوفة عبيدة : لمحمد شوقى .
ـ كشف المحجوب . للهجويرى .
ـ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع : اللالطى
- Simone De Beauvoir : Le Deuxieme Sexe .
- Handbook of Parapsychology : Wolman .
- Teresa De Jesus : Libro de la Vida .

الفهرس

* مقدمة الطبعة الثانية ص ٧

* مقدمة الطبعة الأولى ص ٩ ، وتشمل :

في أسباب الكتابة عن رابعة وعلاقة ذلك بكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى « رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى » ، ثم قوله بأن رابعة أوغلت فى الإثم وأنها تابت ، ومنهج الاحتمالات والترجيح ، والتأويل المسرف عنده ، وعلاقة كتابه بمذهبه فى الوجودية .

* الفصل الأول : رابعة فى كتابات الشرق والغرب ـ أولاً فى الشرق ص ١٢ : عند الجاحظ فى الحيوان والبيان والتبيين ، وفى طبقات ابن الملقن ، وعند الزركلى فى الأعلام ، وفى كتاب الروض الفائق للحريفيش ص١٤ ، وفى إتحاف السادة المتقين للزبيدى ص ١٧ ، ورسالة القشيرى ، وتعرّف الكلاباذى ص ٢٢ ، وقوت القلوب للمكى ، وعوارف المعارف للسهروردى ، وطبقات الشعرانى ، ومجموعة رسائل ابن تيمية ، وصفة الصفوة لابن الجوزى ص٢٥ ، ومصارع العشاق للسراج ، وطبقات الأولياء للمناوى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ونفحات الأنس لجامى ، وشذرات الذهب لابن العماد ، وسير السالكات للحصنى ، وسير أعلام النبلاء للذهبى ، وشرح حال الأولياء لعز الدين بن عبد السلام ص ٣٤ظ ، وشفاء السائل لابن خلدون ، وتفسير المنار ، وإحياء علوم الدين للغزالى ، وروض الرياحين لليافعى ، وروضة التعريف لابن الخطيب ، وحلية الأولياء للأصبهانى ، وتذكرة الأولياء للعطار ، ودائرة المعارف للبستانى ، ودائرة معارف القرن العشرين ، ودائرة المعارف الحديثة ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والبداية والنهاية لابن كثير ص ٥٥ ، والحب الإلهى فى التصوف للدكتور محمد مصطفى حلمى ، والحياة الروحية للإسلام لطه عبد الباقى سرور ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، ورابعة العدوية لمحمد زكى عبد الرحمن ، ورابعة العدوية لسميح عاطف الزين ، ورابعة العدوية بين الغناء والبكاء للدكتورة سعاد عبد الرازق . ص ٦٣ .

وثانياً في الغرب : في الموسوعة الصوفية لڤيرجسون ، ودائرة المعارف البريطانية ، ورابعة العدوية وأصحابها من الصوفية لمرجريت سميث . ص ٦٥

* **الفصل الثاني** : رابعة بين الأسطورة والحقيقة . ص ٦٩

* **الفصل الثالث** : فلسفة الوجود الفردى متحققة فى الصـوفية وفى رابعة بالذات : **مذهب الدكتور بدوى الوجودى** وتطبيقه على حال رابعة ـ رأى الدكتور فى الكرامات والرد عليه من علم النفس الباراسيكولوچى ـ تشـابه تحليل الدكتور بدوى **وسيمون دى بوڤوار** ، والإحالة عندهما إلى **تريزا** ـ مقارنة رابعة **بالقديس بولس والقديس أوغسطين** . ص٧٥

* **الفصل الرابع** : محبة اللـه فى الإسلام وفى المسيحية والفرق بينهما ، ومعنى الفنـاء عند رابعة ، والاتحاد عند المسيحيين وعلاقته بالله الإبن . ص ٨٧

* **الفصل الخامس : تريزا الأڤيليـة ورابعة العدوية** ـ خطأ الدكتـور بدوى فى الاسم ـ فلسفة تريـزا واختلافها عن فلسفة رابعة ـــ حياة تريزا من الطفـولة وقراءاتها ، ومعنى التوبة عندها وعند رابعة ، واستخدام رابعة لكلمات تتصل بالزواج ، والقران الروحى عند تريزا . ص ٩٣

* **الفصل السادس** : لغة التصوف عموماً ، وعند رابعة وتريزا خصوصاً ـ كراهية الدكتور بدوى للتصوف ويُعْدُ تفسيراته للنصوص ـــ الأدب الصوفى النسائى ولغة التصوف عند المتصوفات المسلمات . ص ١٠٣

***الفصل السابع** : رأى العلم فى إمكان تـوبة الأئمة وأن تكـون من أولياء اللـه ـ رأى الطب النفسى ـــ رأى **كينزى** ـــ رأى **ريتشارد سيمون** ـــ رأى **فيليب سولومون** ـــ أنماط الشـخصية والنمـط المتدين ـــ تخطئة الدكتـور بدوى دينياً ، وحكم الدين فيمـن يقذف المحصنات ـ الدكتور بدوى كان سبباً فى انتشار الفكرة الخاطئة عن رابعة والفيلم الهابط عنها ـ أشعار الفيلم **لطاهر أبو فاشا** وغناء أم كلثوم وتلحين رياض السنباطى والموجى والطويل ـ كتاب **سنية قراعة** عن رابعة . ص ١١٩

* **الفصل الثامن** : رابعـة فى ضوء التحليل النفسى ـــ مفتـاح شخصية رابعـة ـ أحـوالها

الصوفية ومواصفاتها فى الخوف والأنس والقبض والبسط والزهد والمحبة والعشق والود والفناء . ص ١٣٣

* **الفصل التاسع :** قضيـة زواج رابعة ، والمحبـة والخلة عنـدهـا ، والشطح المتهمة بـه ـ مناقشة رأى الدكتور بدوى ـ ورأى الدكتورة سعاد عبد الرازق ـ ما يسمى نظرية رابعـة فى الـزواج ـ بشر بن الحارث والتجـرد ـ أقـوال أبى طـالب المكى والحسن البصرى وابن الجوزى ـ موسوعة أيزنك ومعنى عدم الزواج ـ معنى المحبة المعنوية ـ القول فى اقتران رابعة بالله على طـريقة المسيحيين ـ معنى العشق الإلهى ـ الخلة وتفسيراتها وأقوال للجنيد والبسطامى ، ونقد ابن عربى والمالطى . ص ١٣٩

* **الفصل العاشر :** معراج رابعة الروحى من أحوالها ومقامـاتها ـ المعرفة والمحبة والالفة والرضا ـ مناجياتها وتفسيراتها . ص ١٥١

***الفصل الحادى عشر :** النقد الموجه لفكر رابعة ، ومسلكها مع الثورى وابن زيد والبصرى ـ القول فيها كروحانية ، أو إباحية حلـولية متزندقة ـ تكفيرها من أقوالها فى الجنة والنار والكعبة . ص ١٥٩

* **الفصل الثانى عشر :** رجال ونساء حول رابعة . الحسن البصرى ـ عبدة بنت أبى شـوال ـ سفيان الثورى ـ مـالك بن دينار ـ رياح القيسى ـ عبد الواحد بـن زيد ـ حيونة ـ شقيق البلخى ـ ذو النون المصرى ـ وعلاقة كـل منهم برابعة ، ومناقشة ما قيل فى ذلك فى ضوء تحليل أفكارهم وأفكار رابعة . ص ١٦٧

★★★

بعض كتب الدكتور الحفنى

١ ـ الموسوعة الصوفية : أعلام الصوفية والمنكرين عليهم والمؤيدين لهم .

٢ ـ المعجم الصوفى : الشامل لمفاهيم ومصطلحات وألفاظ الصوفية .

٣ ـ الإمام الفيلسوف حجة الحق الشاعر عمر الخيام والرباعيات .

٤ ـ فرق الشيعة للنوبختى والقمى : تحقيق ودراسة .

٥ ـ موسوعة الفرق والمذاهب والجماعات الإسلامية منذ البداية حتى جماعة الإخوان المسلمين وأنصار السنة والجهاد وغيرهم .

٦ ـ موسوعة أعلام علم النفس .

٧ ـ موسوعة مدارس علم النفس .

٨ ـ البراهين العقلية على وجود الله والرد على المنكرين والطبيعيين والملحدين.

٨ ـ موسوعة الفلسفة .

١٠ ـ المعجم الفلسفى : عربى إنجليزى فرنسى ألمانى لاتينى .

١١ ـ القاموس اللاتينى للفلسفة .

١٢ ـ موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية .

١٣ ـ الفلسفة الوجودية .

١٤ ـ التعريفات للجرجانى ـ تحقيق .

١٥ ـ موسوعة علم النفس والتحليل النفسى .

١٦ ـ موسوعة : علم النفس فى حياتنا اليومية .

١٧ ـ الموسوعة النفسية الجنسية .

١٨ ـ المعجم الموسوعى للتحليل النفسى .

١٩ ـ التحليل النفسى للأحلام .

٢٠ ـ تعبير الرؤيا ـ تحقيق عن أرطميدروس .

٢١ ـ تعبير المنام لعمر الخيام تحقيق .

٢٢ ـ موسوعة الطب النفسى (مجلدان) .

٢٣ ـ تفسير الأحلام لفرويد .

٢٤ ـ موسى والتوحيد لفرويد .

٢٥ ـ الحب والحرب والموت والحضارة لفرويد .

٢٦ ـ ليوناردو دافنشى لفرويد.

٢٧ ـ ما فوق مبدأ اللذة لفرويد .

٢٨ ـ أسطورة سيسيف لكامى .

٢٩ ـ المتمرد لكامى .

٣٠ ـ الوجودية مذهب إنسانى لسارتر .

٣١ ـ الماركسية والثورة لسارتر .

٣٢ ـ عالم بلا يهود لماركس وسارتر وآخرين .

٣٣ ـ معنى الوجودية لچان ڤال .

٣٤ ـ جان بول سارتر . حياته وأدبه وفلسفته .

٣٥ ـ البير كامى : حياته وأدبه وفلسفته .

٣٦ ـ ثلاث مسرحيات لسارتر : سجناء ألطونا ، والشيطان والرحمن ، والممثل كين .

٣٧ ـ ثلاث مسرحيات لكامى . العادلون ، والحصاد ، وسوء تفاهم .

٣٨ ـ سيناريو فيلم الدوامة L' Engrenage لسارتر .

٣٩ ـ الأفواه اللامجدية لسيمون دى بوفوار .

٤٠ ـ البغى الفاضلة لسارتر .

٤١ ـ ملء قبضة من المطر لجازو .

٤٢ ـ مشهد من الشارع لرايس .

٤٣ ـ جمهورية أفلاطون .

٤٤ ـ رجال وفئران لشتاينبك .

٤٥ ـ البوتقة لميلر .

★★★

هذا الكتاب

إن قصة رابعة العدوية لشئ يستحق أن نقرأه ونحيط علماً به ، وقد كثر المؤلفون لها والمترجمون لحياتها ، ولكنهم لم يتعرضوا لسيرتها بالتحليل ، ولم يمحصوا أخبارها ولعل أكبر إسهام فى التنويه بها كان كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى ، رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى ، ولكن هذا الكتاب من وجهة نظر الدكتور الحفنى كان أكبر إساءة لرابعة العدوية ، هذه الصوفية المتبتلة ، والناسكة الزاهدة . وقد آل الدكتور الحفنى أن يرد على الدكتور بدوى ويحلل اتهاماته لرابعة ، ويخضع حياتها للتحليل النفسى ، ويقارن بينها وبين القديسة تريزا على الحقيقة ، ويوضح الاختلافات الأساسية بين هاتين الشخصيتين المتميزتين فى تاريخ التصوف الإسلامى والمسيحى . وقد تناول الدكتور الحفنى بالنقد الشديد كتباً أخرى عن رابعة ، واعتبر قصة الفيلم التى قدمتها السينما المصرية عن هذه الصوفية إهانة بالغة تسبب فيها كتاب الدكتور بدوى السالف الذكر . وقدم معراج رابعة الروحى من أحوالها ومقاماتها ، وتحليلاً لسلوك الرجال والنساء من حولها فى علاقاتهم بها ، ومعانى الزواج والمحبة والعشق والخلة عندها ، ورأى العلم فى إمكان تنوية الآثمة وأن تكون من أولياء الله ، وعرض لغة التصوف عموماً وتحليل هذه اللغة عند رابعة وتريزا ، والفرق بين محبة الله فى الإسلام والمسيحية . والمؤلف يرجو أن يكون بذلك قد قدم دراسة فلسفية موضوعية جادة لرابعة ودار الرشاد يسعدها أن تقدم هذا الكتاب كأول دراسة موضوعية فعلاً بعيداً عن الكتابات الإنشائية المعروفة فى مجال الكتابة عن التصوف عموماً ورابعة العدوية خصوصاً

الناشر

دار الرشاد

طبع . نشر . توزيع

[illegible]

To: www.al-mostafa.com